AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

892.78
T1753hA
c.1

سعيد تقي الدين

لولا المحامي ١٩٢٤

مؤلف ونخب العدو ١٩٣٧

حفنة ريح

مهزلة في فصل واحد

موجة نار

مجموعة قصص

مراسلات

دار العلم للملايين

L.55 I 5811

حقوق الطبع والتمثيل والاذاعة محفوظة

كانون الثاني ١٩٤٨
بيروت

L.S.I. 5811

الإهـــداء

الى التي نادت بي ، يوم كنت كسيحاً : « هيـا انهض فاستبق الناس فانت في ميدان الحياة مجلٍّ . »

الى التي آمنت بي يوم هزىء النـــاس واوشكت ان اسخر بنفسي .

الى التي جعلت جهنم حياتي جنة .

الى التي محت عن وجهي ميسم الضعة ، وابدلت بـــه منطح التفوّق .

الى التي طوت كفيّ المترهلتين ، فجعلت منهما قبضتين فولاذيتين اصرع بهما الجبابرة .

الى التي ملأت قلبي حباً وأملاً واغاريد .

الى رفيقة اسفاري ، بين القصر والكوخ ، والكوخ والقصر .

الى زوجتي
بياتريس تقي الدين

اهدي هذا الكتاب – مجاناً – يُضحك ملكة

هذا اول كتاب يصدر عن مطبعة تدار محركاتها على القوة الذرية ، التي اكتشف سرّها عبقري الاجيال ، مواطننا النابغة :

وديع البقاعي

المعروف في عالم الكيمياء بالاستاذ مَيْك مَرْسَرْ دُورِكْ ، والذي تلقبه المجلات العلمية بـ « فلتة الدهر » .

طُبع هـــذا الكتاب على نفقة امير المحسنين ، وسيّد
المهاجرين ، الذي رفع اسمنا عالياً وراء البحار ، صاحب
معادن النحاس في « بوليفيا » ومعامل النسيج في
« سان باولو – البرازيل »، والمساهم الاكبر
في خطوط سكك الحـديد « المكسيك
– روزاريو » :

العلامة الفيكونت غندور باشا الزيات

رسالة

تفضل مليك البحث والاستقراء وبادشاه المؤرخين، سمو البرنس حمد باشا السّبْعَلي ، فأرسل للمؤلف كتاباً هذا بعضه :

« أخي الشيخ سعيد بك آل تقي الدين

... كذلك لم أدر حين دفعتُ بك عن شريط القطار المداهم [1] انني انقذ للبشرية عبقرياً يتحف الادب الخالد بمثل «حفنة ريح»... فيا للنبوغ الموهوب يقترن بكياسة الصناعة التمثيلية ، ويا للرائعة لم يَجُدْ بمثلها الاولون ولا المعاصرون،من زمن « فاجعة الاغريق » الى يومنا هذا في صخب « برودواي » ولغبه ... ويقيني ان صلابة الخلق فيك لن تلين فتستمر في الاباء بان تبيع ادبك – على وفرة ما عرضوه عليك – الى معمل السخافة والتبذّل الذي يسمّونـــه « هَليوود » .

سلمت يا موليير لبنان ، وشكسبير العرب . »

---

(١) اشارة الى فاجعـــة كادت تنزل بالمؤلف اذ ماشى سمو البرنس في شيكاغو ، فكاد ان يدهمه قطار مسرع لو لم يقذف بالمؤلف عن طريق القطار سمو البرنس السبعلي .

لمحة تاريخيّة

يقول المتهجمون الذين يريدون التنقّص من الادب العربي القديم ان العرب لم يعرفوا الدرامة .

ونحن لسنا نحاول في هذه الكلمة المقتضبة التبسّط في تكذيب هذا المفترى ، غير اننا نريد ان نثبت ان الدرامة ذات الفصل الواحد ، هي من مخترعات العرب الاقدمين ، وكانوا يطلقون عليها اسم « مثال » للمغزى الذي يجب ان تؤديه . جاء في « الحواشة السخفولية [1] » :

« كان للبساطرة ، وهم فخذ من قبيلة ثَعَلة ، عادةٌ كلما اكتمل القمر ان يمثلوا رواية في فصل واحد ، فينتحون هضبة يجعلونها مسرحاً ويحجبونها عن القوم [2] بستار يعلق جانباه على رأسَيْ بعيرين واقفين ، بينهما عشر فشخات واربعة اشبار . فاذا احتشد القوم صاح الحقريف [3] وأناخ الجملين ، فهبط الستار وابتدأ التمثيل . فاذا انتهت الرواية ضرب الحقريف البعيرين بعصا فنهضا فحجب الستار المسرح عن القوم وانتهت الرواية . »

---

(١) صفحة ٢١ الجزء الرابع (هي المخطوطه اليتيمة التي يملكها الاستاذ اسعاف النشاشيبي)

(٢) ما نسميه اليوم : نظارة

(٣) مدير المسرح

وقد اشار الى هذه العادة أبو العبث الشوفاني في موشحته الاندلسية الشهيرة التي مطلعها :

يا شوق قلبي لد « مثال » يا ليلةً البدر فيها قد استدار
والجمع حشد كالرمال يا صرخةً تعلو اذا هبط الستار
ويدي على كتف الحبيب تلاعبه

طعبروس

نهض عريف الآلهة عن كرسيّه الحريري وتمطّى تعباً فرحاً ، ثمّ انتزع من جيبه الهائل محرمته الحريرية الخضراء ، وراح ينظّف صولجانه الذهبي متكلماً فيما هو ينظّف « يا له من يوم غنيّ الحوادث ! » فاجابه صدىً من متملقي البلاط « يا له من نهار غنيّ الحوادث ! » وتابع العريف كلامه « لقد انزلت عن عاتقي معظم عناء شؤون حكم الكرة الارضية . ان الحكم المباشر كان خطأ . لقد ابهظ كتفي . واني وجدت الانسان مثلما هو في قرارة نفسه يهوى تعدّد الزوجات ، كذلك هو في صميم مشاعره يؤثر تعدّد الآلهة . لقد ارسلت لبني البشر سرباً من آلهة – واحداً للمواسم ، وآخر للحب ، وغيره للصواعق – لكل شعور ، وغريزة ، وحادثة الهاً ، ولم يبق لي الاّ ان اقرأ التقارير واصدر الاوامر .

وامسك مدير البروتوكول السترة ، فأنشب عريف الآلهة في كميها ذراعيه ، وفيما هو يتهيأ للانصراف ، سمع نأمة من زاوية الديوان تقول :

ـ لماذا اهملتني يا سيدي ؟

فتطلع عريف الآلهة فرأى جسداً هائل البطن ، وعينين مائعتين بالشرّ ، ويداً مرتفعة علّتها أقذار كأنها بَرَص ، وكاد عريف الآلهة ان يبتسم ويمشي اذ استأنف الصوت نأماته :

ـ انا رجلك يا سيّدي . انا طعبروس ، أنسيتني ؟ ألا تذكر الانتخاب الماضي منذ مليون سنة ، كيف كان « ابولو » و« ادونيس » يتخطيانك بالاصوات ، وكاد « ابولو » يفوز ، لو لم ازوّر لك اصوات الكوكب حيث كنت رئيس الاقتراع ؟ انظر الى يدي وقد دنست باثم التزوير ! لقد غمستها بالبحر الف سنة وغسلتها بحمم البراكين مئة عام ، ودفنتها في البحيرة الملتهبة عشرين جيلاً ، وتمتمت لها تعويذة ديوان المتنبي ، وروايات شكسبير ، والياذة هوميروس ، وعلّقت في زندي حرزاً ملأته بدساتير دول الارض ، وتصريحات بالطا ، ونقاط ويلسون الاربع عشرة ، وقوانين جمعية الامم ومنظمة الدول ، فما محوت من اقذارها ذرة ، وها انت قد نثرت الوظائف على سواي ، واهملتني انا الذي وبىء في الجهاد من اجل انتخابك .

وليس آلم على الكبير من معروف سابق يذكّره به صغير ..

فعبس عريف الآلهة واجاب طعبروس :

ـ ألم اهبك برميل نفط بعد الانتخاب ؟ ولئن كنت ناقماً عليّ فلم لا تلتحق بصفوف المعارضة ؟

قال طعبروس :

ـ اني معجب بك يا مولاي ، واني اوثر جهنم الحاكمين التي

اعرفها على جنة المعارضة التي لا اعرفها . ثمّ ان المعارضة لا تملك شيئاً تهبه ، اما مولاي ...

قال عريف الآلهة :

– اني آسف لما انت فيه ، ولقد فرّقتُ الوظائف وانتهى الامر ...

واجاب طعبررس :

– أيعجز مولاي عن خلق وظيفة لأحد محاسيبه وهو الذي ملأ الدنيا وظائف ؟ وظّفني في السلك الخارجي ... أسمعُ ان دولاً كثيرة نشأت في الكرة الارضية حديثاً فهل اعتمدتني لايٍّ منها ؟

فهزّ العريف رأسه وقال :

– كيف ارضى ان يمثلني شخص موبوء ؟ !

فاجاب طعبروس :

– أنسيت ياسيدي اني أملك برميل نفط ، وان هذا السائل من الذهب الاسود مرهم يلوّن الامور والاجساد بالوان زاهية تستحبها الناس ؟ ثم ان الطبيب اعطاني وصفة ،هي ان آخذ براءة تعييني في الوظيفة فأحرقها ثم اسحق رمادها ، فأذرّه في العيون فلا ترى بي غير الجميل ! اني مؤكد لمولاي ان مرهم النفط ورماد البراءة يُجَمّلانني حتى ليخلط البشر بيني وبين ادونيس !

وكان عريف الآلهة من تلك الشخصيات السياسية التي بلغت القمّة بعد الف معركة في الوادي وعلى السفح ، ولقد صار من القوة بحيث امسى في وسعه ان يتناسى الانصار ورفاق الجهاد ،

ولكنه نظر الى طعبروس ثانية وذكر حادثة الكوكب حيث ترأس طعبروس الاقتراع ، وكيف جاءه بصندوق الاقتراع وفيه ١٥٣ مليون صوت للعريف ، و٣٥ صوتاً لأبولو ، و٤٨ لأدونيس . فابتسم وسرت به رعشة السطوة في القويّ اذ يمنح او يمنع ، فصاح برئيس المواصلات ان يسهّل لطعبروس سيارة او « جيب » للكرة الارضية ، فطعبروس ذاهب الى هناك بصفة غير رسمية ، عله يحتال بذكائه على ان يخلق طائفة تؤمن به فيكفي بذلك العريف مؤونة تعيين إله جديد . وكان وزير الموصلات مكبّاً على دفتر يقلّبه وقد تجمّر رجهه ، فاقترب من عريف الالهة وهمس باذنه :

— لتتكلم بصوت خافت مخافة ان تسمعنا الصحافة . ان في دفتري قيداً بـ ٨٤ سيارة و١٢٥ « جيب ! » . وتذكرون ان سلفي باع اكثرها ولما نزل نطالبه بثمنها ، ثم ان بعضها مخرّب ، وما بقي فقد ارسلته لاستقبال ابن عمي ، وهو راجع من رَحَل مصطحباً هدية ثمينة لمولاي .

فسأل العريف :

— اليس عندنا من مخلّفات الجيش ما نقدر ان نستعمله ؟

فتناول الوزير دفتر « المستحيلات » وقلّب صفحاته واجاب :

— بلى يا سيّدي . عندنا مظلّة هوائية يستعملها القافز من الطيارة . انما .... انما ....

وصار الوزير يتلعثم ، فحنق العريف وصرخ :

— انما ... ماذا ؟ .

اجاب الوزير :

طعبروس

إله الغلو والادعاء

– لقد اقتطعنا من نَيْلُونِها سروالاً أهديناه الى رئيس بلديّة « الثريّا » . انت تذكره يا مولاي : رجل مخلص . كذلك انتزعنا الكثير من حبالها لنشر غسيل الوزراء يا مولاي ، اذ ان الصحافة ترش عليهم الوحول ، فاثوابهم ابداً قذرة يلزمها التنظيف . واني اخاف ، ان نحن اعطينا المظلّة لطعبروس ، ان لا تنفتح حين يقفز فيهلك ، وان انفتحت – ذلك الخرق ... سروال رئيس البلديّة يا مولانا ...

وسرعان ما دار عريف الآلهة وخاطب طعبروس :

– معاذاً ان ينسى عريف الآلهة رجاله المخلصين . اني لا اريدك ان تذهب الى الكرة الارضية كرجل عاديّ في سيّارة أو « جيب » . انزل اليهم كبطل . لقد جهزت لك مظلّة هوائيـــة جديدة من مخلّفات الجيش ومن صنع الاميركان وانت تعرف انهم لا يصنعون الاّ الأجمل والافخم والأمتن .

فشكر طعبروس للعريف حنانـــه وشدّ المظلة الى كتفيه وقفز . وراح العريف يتطلّع من كوّة السماء مقهقهاً فرحاً ؛ انه تخلّص من شخص يذكره بمعاركه الماضية ، واستفاقت «ساديته» فحدّق بالارض يريد ان يرى طعبروس يلتطم بالارض فيتمزق . غير ان طعبروس حينما وقـــع ، لم يصطدم الاّ بكومـــة رمال ، فسرعان ما انتصب واقفاً على قدميه سالماً ، فاحرق مظلته وتأبّط برميله ومشى صاخباً يحدّث نفسه بالفتك والاخذ بالثأر ، ويحلف بان يثير على العريف سكّان البسيطة . ومـــا طال سيره حتى لمح بدوياً شرس الوجه ، يرعى جمالاً ويحمل بارودة ، فهلع

طعبروس وصاح :

— انا بوجهك يا بدويّ .

اجاب البدويّ :

— كنت على همّة ان اردیك برصاصة . ولكنك سبقتني الى الاستجارة ، فما انا بقاتلك . ولكن قل لي من انت وما تريـــد ؟ وهات اعطني نهلة من هذا البرميل الذي تحمله فاني عطش .

ومد البدوي يده وقلب البرميل الى شفتيه ، وسرعان ما بصق ما دخل فمه ،وشتم طعبروس الشرير الذي يحمل ماء لا يُشرب .

قال طعبروس :

— رويدك يا بدويّ . انا جئت هـــذا المكان لإسعافك . ما صنعتك ؟

اجاب البدوي :

— انا راعي جمال .

— ومن هو شيخ القبيلة ؟

— درداح الغمدوش .

— ولماذا هو شيخ القبيلة وانت راعي جمالها ؟

— هذه ارادة الله . واحد يرأس القبيلة ، وآخر يرعى جمالها .

قال طعبروس :

— ما انا ممن يخالفون مشيئة الله . صدقت ، انه تعالى قسّم المهن والارزاق ،وجعل للقبيلة شيخاً يدير امورها ، وراعياً يتعهّد جمالها . ولكنك يا بدويّ اشجع من درداح الغمدوش ،فلماذا لا تحاول ان تكون شيخ القبيلة وتترك هذه الابل لدرداح ؟

فلمعت عينا البدويّ وعض على شفتيه ، وشع وجهه بحلم جميل – الخيمة الكبرى هو يملكها ، و .... وتطلع بطعبروس من جديد وأجهم وجهه وقال :

– اسمع يا مخلوق ، ان كلامك معقول . غير اننا هنا في البادية نصغي الى من يقول لا الى ما يقال . نحن هنا لا نخاف الاعصار ، والجوع ، والعطش ، والامراض ، ورصاص العدوّ . ولكننا نخشى اللسان الذرب ... إخال كلامك شبيهاً ببر ميلك ، تنظر اليه فتحسب فيه ماء يروي ، فما ان تنهل منه حتى تعرف طعمه الكريه ، وكلامك تسمعه ، فاذا هو مقنع ، وفي يقيني ان من اراد السير على ما انت به تبشّر ، سيعثر . لقد امنتك على روحك ، ولكني اخشى ثورة غضبي فاكفر بتقاليد قومي . هيّا انصرف عني . رح الى هناك ، الى بلاد الحضر الملاعين ، في القرى والمدن حيث الرجال ذوو أيدٍ ناعمة ووجوه حليقة معطرة . هناك يحبون اللسان الذرب ، واحسب ان ستكون بينهم ذا شأن .

وكان طعبروس من اولئك القلائل الذين يفهمون الحكمة من أيٍّ سمعوها ، ويعرفون ان يلتقطوها حيث كانت ، لذلك أعجب بقول البدوي ، فودّعه وراح يقطع البادية ميمماً قرى الحضر ومدنها ، فادّى به التسيار قبيل الغروب الى ضاحية قرية ، فرافق بعض فلاّحيها ، وكانوا منصرفين من حراثة اراضيهم وعائدين الى قريتهم . وسمع الفلاحين يتحادثون فرحين ، وادّى بهم الحديث الى الدعابة ، والدعابة الى قول « القرّادي » فزجّ طعبروس نفسه بينهم وسألهم :

— ما هذا الذي تنشدون ؟

اجابوا بشيء من الخجل :

— نحن اناس امّيون ننظم القرّادي في بعض الاحيان للمباسطة وللغناء في الافراح والمآتم .

اجاب طعبروس :

— انكم لا تعرفون اي شيء قيّم تملكون. ما هذا «قرّادي». هذا شعر . انتم شعراء . انتم الشعراء .

فراحت قلوب اولئك الفلاّحين تدق جذلة كأنهـا اجراس الكاتدرائية في يوم العيد،ونفخوا صدورهم ورموا بمعاولهم وآلات الحراثة وطفقوا يصيحون في القرية :

— نحن شعراء . نحن الشعراء .

وسرت الصيحة في القرى المجاورة ومدن البلاد ، وصار كل من نظم في حياتـــه ، او همّ بنظم « قرّادي » او ايّ كلام عاميّ مقفّى ، يقف على سطح بيته او شرفة منزله ويصرخ « انا شاعر » واجتمع الشعراء فانتخبوا لهم امـــيراً وشيخاً ، وفرّقوا الالقاب والاوسمة فرحين .

اما طعبروس فقد هزه فوزه السريع، فلم ينم تلك الليلة،شأن كل من ينعم ببكر انتصاراته . وفي فجر اليوم الثاني طفق يطوّف في طول البلاد وعرضها ، ولقي من الصحافيين اعواناً له ، فاذا لاعبت فرقة من بيروت بالفوتبول فرقة من حلب سموها « مباراة دولية » واذا فاز تلميذ بدروسه سموه « النابغة العبقري » . واشار عـــلى الناس ، فاسسوا الجمعيات والمنظمات ، التي هي في حقيقة مراميهـا

ابواق لطعبروس . وتحالف مع رأسمالي ، فبنى مصنعاً للمرايا المقعّرة متى تطلّع فيها الرائي وجد نفسه عظيماً ، فراجت تلك المرايا ، واغنت صانعها . ومن ارباح ذلك المصنع بنى الرأسمالي مصانع للابواق والطبول ، واخذ طعبروس يدور على البيوت فيبيعها بدون ربح ، حتى اصبح كل من السكان يحمل مرآة مقعّرة في جيبه ، وبوقاً في يساره ، ويعلّق طبلاً في رقبته ، تضرب لحناً واحداً : « ما اعظمني ! » وكان طعبروس شديد المراقبة ، فلمح في تطوافه ان الاسلحة كثيرة في البيوت ، فخشي على نفسه ان يؤلف الشعب جيشاً ، والجندي ، جنرالاً كان ام نفراً ، هو مثال الطاعة ، والنظام ، والدعة ، والتواضع ، وهذه صفات ان فشت قتلت نفوذ طعبروس ، فحمّل تلك الاسلحة اصحابها وصاح بهم : « هيا اطلقوها في الجو ! » ففعلوا وطربوا لدويها . إذ ذاك قام طعبروس فيهم خطيباً وقال :

— انتم الابطال الصناديد . مَنْ غيركم يقوى ان يطلق الاسلحة في الهواء ؟

فصاروا يطلقون الرصاص لأية مناسبة ، فيصم آذانهم عن ضحك شرذمة من الشذاذ جاءتهم غازية واغتصبت بعض دورهم ، ووقفت متسلحة يقظة توسع تخوم مغتصباتها شيئاً فشيئاً ، وقد وجدت تلك الشرذمة في «طعبروس» اعظم حليف ، إذ شغل القوم عن الدفاع عن دورهم بالاعجاب بنفوسهم ، ونفْخ ذاتيتهم المتضخمة .

واصبح طعبروس كلما كثرت انتصاراته اشتد دأبه ، فبنى حول تلك البلاد سوراً عالياً وأقنع الناس ان ليس وراء السور من بلدان . بل هو شيد حول كل قرية وشارع وضاحية سوراً ، وقال

للسكان « هذه هي الدنيا » فضيّق الآفاق على النـــاس ، وقصر طموحهم . ولم يعف عن معبد أو مدرسة ، فزين للتلامـــذة ترك دروسهم والمشاغبة في الاسواق املاً بالتزعم ، وصرف من كان شأنه تعهّد المعبد ، عن الاغاني الروحية ، الى الصخب السياسي رجاء التسوّد .

وذات يوم طاف طعبروس مملكته – وقد استحسّ انه امسى فيها ملكاً مطلقاً ، فوجد فيها شخصاً واحداً قانعاً يُعنى بتربيـة النحل ، ولا يأبه لشيء غيرها . وعبثاً حاول طعبروس ان يُقنع مربي النحل انه شاعر . أو انه خليق بان يرشح نفسه للنيـابة . واخيراً جاءه طعبروس وهمس باذنه :

– اني اريد ان اسرّ اليك اكتشافاً... فقد قرأت في « الحواشة السّخفولية » ان نابليون هو جدّك الاعلى ، وان الملكة اليصابات هي ابنة خالتك لجدّ جدّك . فما بالك تربي النحل وانت يليق بك ان تتربع دست الوزارة ؟

فباع المسكين منحلته ، وراح يشاغب على الوزراء رجاء ان يُستبدل بواحد منهم .

وأصدر طعبروس طبعة جديدة – ملايين النسخ – من « الحواشة السّخفولية » وفيها تواريخ عائلات البشر ، واشادة بذكر جـدود الناس اجمعين . فمن عدم شيئاً يتبجح به في نفسه ، وجد في تاريخ اجداده موضوعاً للتباهي يصرفه عن الجهود المفيدة .

هكذا نعم طعبروس في ملكه فكثرت الالقاب ، والاوسمة ، والحفلات ، والمآدب ، ونفخت الابواق ، وقرعت الطبول ، وكان

من الطبيعي ، متى ازدحمت الاقدام وضخمت الذاتيات ، ان ينشأ العداء . وكان الخصام على اشده في « شارع النيابة » حيث تقاطر الناس باجمعهم يريدون ان يجتازوه طريقاً الى « القبة » حيث علق اكبر بوق واضخم طبل ، في قاعة حيطانها مرايا مقعّرة .

واختفى الحب ، وضاقت الاخلاق ، وانمحى التسامح والحلم ، وتكالب الناس على الظهور بمظاهر التفوق ، ولم تعد الاسلحة تطلق في الهواء فحسب ، بل صارت تطلق في الصدور احياناً . ونقم الناس على الناس ، وكفروا بما كانوا يؤمنون . اذ انهم قبل طعبروس كانوا يؤمنون بامور منها سخيفة أو ساذجة ، ومنها كريمة شريفة ، ولكنها كانت في مجموعها ايماناً يملأ النفس ثقة واقداماً ، ويغسلها من ادرانها ، « ويُقَوِلز » عناصرها . اما حينما ضخمت ذاتيتهم فقد فرّ الايمان من صدورهم فماعت شخصيّاتهم . ألا ويلٌ لقوم نفوسهم كهوف خالية هجرها الايمان .

امّا الآلهة فقد ساءهم اعراض الناس عنهم ، فما يرتاد مفوضيّاتهم وسفاراتهم الزائرون ، وضعف شأنهم فما يسمعون صلاة ولا ضراعة . فعادوا الى العريف يشكون امر طعبروس ، ويخبرونه ان البشر انصرفوا اليه يعبدونه ، في حين انه ليست له صفة رسميّة . وان الامر اذا استمرّ هكذا ، فقد يضطر العريف الى سحب ممثليه من الكرة الارضية وشطبها من خارطة مستعمراته .

والحنق انواع اشدّه تلك الحمم التي تقذفها النفس اذ تغضب على نفس كانت لها مرؤوسة . لذلك نادى عريف الآلهة على مدير

البوليس ، وامره ان يرمي كل كتب القانون في النار ، وان يختار من رجاله اشدّهم بأساً واوسعهم حيلة ، وان يهبط الى الكرة الارضية فيرجع منها بطعبروس او بجثة طعبروس .

وانتصب مدير البوليس بعد لحظة امام العريف فسأله هذا :

— ما بالك لم تذهب بعد ؟

— سيّدي .. اني رجعت ولم اجـــد من آثار طعبروس الاّ برميله الفارغ !اما هو فقد عشش في رؤوس الناس ، لذلك ، لم اوفق بالعودة به حياً ، اذ انـه مختفٍ ، واني خشيت ان انا قتلته ان اقضي على الناس اجمعين فهو في كل رأس ، وطيّ كل قلب ، وعلى كل لسان .

وتمطّى الاله « فرنسوا » وهو الآله العملاق الذي قتله الاله « جرمانيوس » بضربة من قبضته ، واعادته الى الحياة الآلهة التي تكاثرت على « جرمانيوس » فدحرته . ولكن « فرنسوا » وقـد قُتل عملاقاً بُعث قزماً بدون ذراعين . قال « فرنسوا » لعريف الآلهـــة :

— سيّدي ! أعدني الى البشر حاكماً عليهم ، واني أعدك بان امزّق اعلامهم ، واذلّل نفوسهم ، واطرد طعبروسهم ، وافتِـل السنتهم ، فلا يتكلمون الاّ اللغة التي تريد . واني فوق ذلك منتزع من كوّارتهم ما فيها من مؤونة ينعم بها مولاي العريف واصفياؤه من الحاشية .

غير ان عريف الآلهـــة اعتاد ان لا يُصغي إلى « فرنسوا » ولكنّ اذنه اشرأبت اذ سمع كبير الحكماء يقول :

– مولاي ... متى دخل الهٌ قلب المرء ورأسه ، وسرى على لسانه ، فمن العبث محاولة طرده برجال البوليس . اني على ثقة انه لن يَطرد هذا المارقَ طعبروس الاّ فنّانونا . اني اشير على سيّدي ان ينادي على النحاتين يبنون التماثيل لطعبروس تُنصب في ساحات الكرة الارضية ، ثمّ فليرسمه نبغاء مصوّرينا ولتعلّق صورته في كل بيت . كذلك ليصفه كتبتنا وشعراؤنا .

فقلب عريف الآلهة شفتيه ساخراً غاضباً وقال :

– ما كنت أحلم ان اعيش الى يوم اسمع فيه الحمق من فم كبير الحكماء . ها انا اريد الفنك ما له شرّير يعبدونه ، وانت تقترح التمثال والصورة والقصة والقصيدة لتفخيمه ؟

اجاب كبير الحكماء :

– اني ابغي من ذلك اظهاره للناس ليروه . ان الناس لا يعبدون ما يرون ... انهم يعبدون ما لا يرون !

وغطس عريف الآلهة في بحيرة التفكير ، وراح يسبح حيناً ثمّ خرج منها مبتهجاً واعلن ان رئيس الحكماء على صواب ، فمتى رأى الناس طعبروس طردوه لا سيما وقد فرغ برميله من النفط ، فلن تخفى اقذار يده ، وخلت يده من براءة توظيف يذرّ رمادها في العيون . ونادى على الفنانين ففرّق عليهم جبال المرمر ، واوتار قلوب البلابل ، وحفنةً من قوس القزح ، ونفخة من ريش الحساسين ، وعبأ جراباتهم باغاريد اطفال الملائكة ، وصاح :

– : عليكم بطعبروس . هذا عتاد الحرب والنصر بين انامليكم .

حفنة ريح

مهزلة في فصل واحد

بيروت سنة ١٩٥٠

[غرفة اثاثها غوغاء . في منتصف المسرح ــ الى الامام ــ صحارة قائمة على جانبها الضيق وفوقها قطعة خشب ضخمة تستعمل في المطابخ ، اذ يقطع عليها اللحم ، والخضار . على قطعة الخشب سكين مطبخ ، واشياش عارية . وخلف تلك الطاولة (الصحارة) فوتويل مثلث المقاعد ، ممزق ، خاض الكثير من معارك الحياة . على يمين المسرح طاولة (صحارة) ثانية عليها آلة تلفون . على يسار المسرح فتى موسيقي يدوزن عوده . بضعة كراسي مبعثرة هنا وهناك بعضها مقلوب . في منتصف الحائط الذي يواجه النظارة باب صغير عليه ستارة ممزقة . الى يمين النظارة ، يلاصق الحائط الخلفي سرير هو ثلاث الواح خشبية متمددة على ثلاثة صحاحير . ناموسية السرير مرفوعة . على جوانب السرير وعلى الناموسية كلسات ، وربطة رقبة ، وطربوش ، وبنطلون وكلسون . الى اليسار ، فيما يلاصق الحائط ، حذاء الباب الخلفي ، مغسلة مهشمة عليها مرآة مكرسكوبية وعلى المغسلة فرشاة اسنان ، وفرشاة ثياب ، وبعض ادوات الزينة . في منتصف المسرح ، طاولة صغيرة عليها مزهرية بدون زهور . على الارض بقايا سكاير وقشر ليمون وزجاجات فارغة .

على السرير ، يتقلب وجيه في بيجامته .

على المقعد المثلث يجلس فتى انيق الثياب قصير نحيل ، يلبس طربوشاً خمرياً يكاد يغطيه حتى أخمص قدميه . بين يديه عصا مذهبة المقبض ، تعلم من كثرة تقليبه اياها ، انه اشتراها منذ ساعتين فقط . اسمه الشيخ نسيب وهاب . يسمع دق على الباب الايسر ويدخل نهاد العسكري . شاب في الثلاثين ، خفيف الخطى ، زواغ النظر ، لطيف]

●

نهاد ــ صباح الخير يا اخوان .

العوّاد
الشيخ نسيب } صباح الخير .

نهاد — أين وجيه ؟

الشيخ نسيب — صار لي نصف ساعة انتظره وهو (يشير الى السرير) نايم .

العوّاد — صار لي (متطلعاً الى ساعة اليد التي يلبسها) ساعة وربع . من ينتظر وجيه ان يفيق من نومه كمن ينتظر عنقود عنب يصير زبيباً .

نهاد — مسكين ... وجيه تعبان . ليلة البارحة القى خطاباً هز البلدّ . جئت اطلب نسخة منه . عدم المؤاخذه (يقترب من العواد مصافحاً) داعيك اسمه نهاد العسكري .

العوّاد — (معجباً) صاحب جريدة « نهضة الفجر » ؟ ! حصل لنا الشرف . داعيك « شوقي الحيّاك » صاحب اوركسترا « جوقة لبنان » .

نهاد — حصل لنا الشرف . سمعت جوقتك عدة مرات على الراديو .

الشيخ نسيب [يقترب منهما بجياء من يركبه ميسم الضعة (١) يمد يده لنهاد] — انا نسيب وهّاب .

نهاد — (هازاً يده) وهّاب ... وهّاب ... حضرتك « الشيخ » نسيب وهّاب .

(الشيخ نسيب يضحك منزعجاً)

---

(١) تعريب « Inferiority Complex »

نهاد – الشيخ فرج الله مدير الجمرك هو صديقي – هل هو قريبك ؟

الشيخ نسيب – عمّي أخو ابي .

نهاد – والشيخ عبدالله مدير جمرك الناقوره ؟

الشيخ نسيب – ابن خال عمى .

نهاد – والشيخ شفيق ... مفتش المعارف ؟

الشيخ نسيب – ابن خال عمتي .

نهاد – والشيخ عادل مهندس بلدية صيدا ؟

الشيخ نسيب – ابن عمّة خالي .

نهاد – وحضرتك ؟

الشيخ نسيب – البارحة صدر امر بتعييني مفتشاً في جمرك بيروت

نهاد – (يأخذ ورقة من جيبه وقلماً) هذا خبر هام (يكتب) : « يسرّنا ان نزف الى القراء الكرام بشرى تعيين صديقنا الاوفى الاستاذ الشيخ نسيب وهّاب مفتشاً في جمرك بيروت . والشيخ نسيب هو العبقري المتخرّج من ... » (الى الشيخ نسيب) من اي كليـة تخرّجت حضرتك ؟

الشيخ نسيب – انا لم اتخرّج . اولاد صفي تخرجوا .

نهاد – « ..... والشيخ نسيب من خيرة شبابنا المثقف ، وعبقريّ (للشيخ نسيب) لم تتخرج ؟

الشيخ نسيب – لا .

نهاد – « ..... من خـيرة شبابنا المثقف ونابغة وقـّاد

الذكاء . » (الى الشيخ نسيب) لا تؤاخذني ان قلت « نابغة » فقط لاني لا احب المبالغة! (يعيد الورقة والقلم الى جيبه ويمشي الى السرير مخاطباً النائم) وجيـــه ... وجيه ... قم . ثلاثـــة ارباع البلد في انتظارك . (مخاطباً العواد والشيخ نسيب) هل ام ظريف هنـــا ؟ (يتقدم من الباب الخلفي ويصيح) يا ام ظريف ! يا ام ظريف ! اهلاً وسهلاً بعروستي ام ظريف (تظهر ام ظريف كهلة في حوالى الخمسين، صلبة العضلات، ضخمة، بارزة العينين على رأسها عصابة . وفي وجهها نظرة حنان تنكرت قسوة، تستشف من خلال خشونتها نعومة الانوثة . يضع نهاد ذراعه على كتفي ام ظريف ويماشيها الى مقدم المسرح)

نهاد — هل قرأت مـا كتبته عنك في عـــدد امس ؟ (يريها الجورنال)

ام ظريف — (بخيلاء) الحمد لله اني اجهل القراءة والكتابة .

نهاد — هل ترك لي وجيه ورقة معك ؟ او وصيّة ؟

ام ظريف — ترك لك وصية . قال يجب ان ترجع قبل ان تبدأ بطبع الجريدة لأن عنده عجائب غرائب من الاخبار .

نهاد — طيب، قولي له اني راجع في اقل من ساعة . ألم يترك نسخة خطابه عندك ؟

ام ظريف — (تمشي الى المزهرية وتنزع منها اولا كلسات ثم اوراقـــاً) ترك هذا .

نهاد — هذا هو ؟ سلّم الله يديك يا ام ظريف . هـــذا

خطاب وجيه .

ام ظريف — اوصاني وجيه ان اسألك ان كنت تحب ن تدفع ثمن الخطاب .

نهاد — وجيه يعرف اني لا ادفع ثمن خطابات . اما اذا كان عنده اخبار فهذه ادفع ثمنها . بخاطرك يا ام ظريف . بخاطركم .

نهاد — (للشيخ نسيب) نسيت ان اسألك عن معاش الوظيفة .

الشيخ نسيب — انا لا يهمني المعاش . حالتنا المالية حسنة بحمدالله .

نهاد — خطر على بالي امر . احب ان انشر صورتك . تفضل معي . عندنا مصوّر في الادارة .

الشيخ نسيب — (يقترب من المرآة فيصلح من شأنه ويلوح بالعصا مزدهياً) ولكني اريد مقابلة وجيه .

نهاد — تقدر ان ترجع بعد ربع ساعة .

نهاد — } بخاطرك يا استاذ .
الشيخ نسيب — }

العوّاد — بخاطركم يا اخوان .

نهاد — (على الباب) يا ام ظريف ، قولي لوجيه ان تلك العجائب — الاخبار التي وعد بها — يجب ان تكون حوادث حقيقية ، لا حوادث رآها في المنام .

الشيخ نسيب — اخبري الاستاذ وجيه اني راجع (نهاد والشيخ نسيب ينصرفان — يرجع العواد يدوزن عوده ويتغنى بـ « يا ليل » مرة

بعد مرة ـ ام ظريف تخرج من الباب الخلفي وترجع بمكنسة ومجرود فتطوف في الغرفة مقومة كرسياً هنـــا ومتاعاً هناك . تلتقط اكعاب السكاير خفية وتخبئها في تنورتها. تظهر اشمئزازها من العواد ، اذ هي تسد اذنيها مرة ، وتهم بان تنزل على رأسه بالمجرود والمكنسة الخ... يرن التلفون فتضع ام ظريف السماعة على اذنها .)

ام ظريف — ... تضرب بعينك (ترجع السماعة)

العوّاد — ماذا جرى ؟

ام ظريف — هَلُو ... هَلُو . من قال له اني احكي فرنساوي

(تقترب من سرير وجيه وتهزه حانقة)

ام ظريف — انهض . قم .

(ينهض وجيه ثم يعود الى السرير متثائباً . فتى دون الثلاثين ، قصير ، شاحب ، طويل الانف بارز العينين . نحيل ، عصبي المزاج ، كلامه نبر ، ولهجة حديثـه ثورة واحتجاج وسخرية)

العوّاد — بقي لي في انتظارك اكثر من ساعة يا استاذ وجيه .

وجيه — كم الساعة الآن ؟

ام ظريف — الساعة العاشرة والنصف من صباح ٣١ ك٢ . هذا ٣١ الشهر . اتدري ماذا يجري في آخر الشهر ؟

وجيه — آه من آخر الشهر . آخر الشهر يقبض الموظـــف معاشه . ولكن اين انا من الوظيفة ؟

ام ظريف — (متوعدة) آخر الشهر يدفع المستأجر الاجـــار . أفهمت ؟ خمسة عشر شهراً وانت ساكن هذه الغرفة ، اين الاجار ؟

وجيه — يا ام ظريف ....

ام ظريف — (مقاطعة) آخر الشهر تقول لي « ادفـــع في اول الشهر . اول الشهر تقول ادفع في آخر الشهر .

وجيه — يا ام ظريف... هذا زمن لا يعرف اوله من آخره.

ام ظريف — كيف تريد ان اعيش في هذه الدنيا ؟ لا ابن ولا ابنة ولا زوج ولا قريب . انا وحيدة .

وجيه — الله معك يا ام ظريف .

ام ظريف — هذه غرفة سكن جعلتها مطبخاً (ترفع اشياش اللحم وتضربها على الخشبة) لحم مشوي الصبح . لحـم مشوي المساء . لحم مشوي نصف الليل . لحم . لحم ...

وجيه — الاسود لا تأكل ملفوفاً ، والنمور لا تمضغ البطاطا.

ام ظريف — ضيوف وضيوف . جماهير تدخل وجماهير تخرج . انظر الى الارض واقذارها . انظر الى قشر الليمون. اهذه غرفة سكن ام ياخور (اصطبل) .

وجيه — ياخور (اصطبل) ... يسكنه جواد كريم !

ام ظريف — خطب واشعار. وهيصة وصياح ، والآن (تقترب الى خلف العواد صارخة) « يا ليل » (يجفل العواد) .

وجيه — فنجان قهوة يا ام ظريف. «موتور» دماغي لايشتغل بدون قهوة .

ام ظريف — قهوه ؟!! خمسة عشر شهراً بدون ان تدفـع اجار الغرفة ، والآن تطلب قهوة ؟! والقهوة سعرها بالجوّ .

وجيه — ما هذا بعذر . القهوة سعرها بالجوّ . الطحين سعره

بالجوّ . الثياب سعرها بالجوّ . الشعب طائر في الجو . الوزارة والحكومة بالجوّ . كلنا بالجو .

ام ظريف — وفنجان القهوة بالجوّ .

وجيه — (مؤنباً عاتباً) هذا جزاء المعروف ! كم مرّة نشرت الجرائد صورتك ؟ ! كم مرّة كتبوا عن ام ظريف وغرفة ام ظريف ؟ عرفتك الى الوزراء ، والنوّاب ، والصحافيين ، غرفة ام ظريف في بيروت أشهر من قلعة بعلبك في بعلبك . انت اشهر رجل في بيروت .

ام ظريف — (على الباب) انا اشهر رجل في بيروت لاني الرجل الوحيد الذي يؤجر غرفة ولا يقبض اجارها (تنصرف)

العوّاد — من فضلك يا استاذ. صار لي اكثر من ساعة انتظر.

وجيه — (بعد ان يفتش جميع انحاء الغرفة وجيوبه) معك سيكارة؟

العوّاد — (يعطيه سيكارة) تفضل .

وجيه — (بعد ان يفتش) معك كبريته ؟

(العواد يولع له السيكارة)

وجيه — تشكرات . هل اعددت اللحن ؟ هل اقتضبته ؟

العوّاد — نعم . فعلت ما تريد . سيعجبك اللحن .

وجيه — وستعجبك الاغنية .

العوّاد — ان شاء الله .

وجيه — وستشتريها مني .

العوّاد — ان شاء الله . انما من فضلك عجّل . صار لي ساعة انتظر .

وجيه — (يطوف الغرفة مفتشاً عن شيء لا يجده) اسمح لي ان أغسل وجهي اولا . على فوقه ، معك صابونة ؟

العواد — صابونة ؟!!

وجيه — طبعاً ما معك صابونة . سؤال سخيف . (منادياً) يا ام ظريف اين الصابونة ؟

ام ظريف — (من الداخل) أي صابونة ؟

وجيه — اي صابونة كانت . حمراء او بيضاء . طويلة او قصيرة ... سمينة أو نحيله . فتية او عجوز . شيوعية او ديمقراطية . سلافية او انكلوسكسونية . بشرط ان تكون صابونة .

ام ظريف — آخر صابونة اشتريتها ذابت في ايام الصيف .

وجيه — (يقترب من المغسلة ويتكلم اذ هو يغسل وجهه) هل لاحظت ان اكثر الصابون مغشوش في هذه الايام ؟ يعني انه يوسّخ اكثر مما هو ينظف ؟

العوّاد — (متبرماً) نعم لاحظت . من فضلك صار لي ساعة انتظر .

وجيه — (وقد فرغ من غسيل وجهه وبل شعره) معك منشفة ؟ طبعاً ما معك منشفة . (ينشف بالستارة التي تزين الباب الخلفي) معك مشط ؟

العوّاد — (يأخذ المشط من جيبه ويعطيه لوجيه) تفضل !

وجيه — (ممشطاً شعره . هنا يستحيل وجيه من فتى ماجن الى فنان يقظ) اسمعني النغم . اريده خطفاً كله حياة . نغم ناعم ولكنه

ليس بنائم .

العوّاد — الاغنية يا استاذ . صار لي ساعة انتظر .

وجيه — (يفتش بين الامتعة فلا يجد الاغنية) لعلها هنا (تحت الفراش) لا . هذه رواية تمثيلية . (يأخذ الحذاء وينزع منه ورقة) لا هذه مقالة للمقتطف . ها . ها . (يأخذ الطربوش وينتزع من تحت الاطار الجلدي الداخلي ورقة يعطيها للعواد) هذه هي . (فيما يلعب العواد هذه القطعة ويغنيها ، وجيه يلقي كلماتها شطراً شطراً بحيث يفهمها الجمهور)

عاش تعساً من شكا آلامه
وتناسى امد العيش القصير
صهَر اللذة من اوجاعه
كل من يضحك منها ويسير

اللازمة

ماذا لو غاب القمر
ماذا لو صدّ الحبيب
ماذا لو طال السهر
ماذا ان تمسي غريب

هذه الدنيا سراب بُطلُها مثل الصحيح
هي حلمٌ شاردٌ بين مهد وضريح
اسرفت في الصمت عن اسرارها ما ان تبيح
كل ما نجنيه من اعصارها حفنةُ ريح

هي نار العيش من يعبدها احرقته وهجها ما ان ينير
من جفا الاحلام لم يفجع بها وازدرى الاموال لا يمسي فقير

اللازمة

لا تبايع مثلًا عليها فلا تطّلب في الناس نبلًا ووفا
ذاك نهر العيش لن تشربه نهلةً ترويك منه وكفى

(خلال الغناء تظهر ام ظريف في الباب الخلفي ، فاذا انقطع الغناء تجهش في البكاء ، فتمسح عينيها بمريولها وتنفخ انفها به وتنهزم الى الداخل)

وجيه — اعجبتك الابيات ؟

العوّاد — ابيات بديعة . شعر رفيع .

وجيه — اعتقد انك مستعجل. الافضل ان لا تضيّع وقتك. مئة ليرا (تظهر ام ظريف)

العوّاد — (يعيد القصيدة لوجيه ويتهيأ للانصراف) آسف ان لا اقدر ان اشتريها .

وجيه — هاه ؟ لم تعجبك ؟

العوّاد — قلت لك انها بديعة .

(ام ظريف من خلف العواد ترسم باصابعها علامة الخمسين)

وجيه — اذا كانت المئة ليرا مبلغاً كبيراً فيكفي خمسون .

العوّاد — لا . آسف ان لا اقدر ان اشتريها .

(ام ظريف ترسم باصابعها علامة العشرين)

وجيه — يا سيّدي نحن ابناء الفن اخوان . عشرون ليرا تكفي .

العوّاد — لا تؤاخذني ...

(ام ظريف ترسم علامة الخمسة) .

وجيه — خمس ليرات كافية .

العوّاد — الحق يا استاذ اني لا اقدر ان اغني هذه الابيات في حفلة .

وجيه — لماذا ؟

العوّاد — اولاً ما فيها « يا ليل » .

وجيه — زد عليها الف « يا ليل » ، بدون ان ارفع عليك السعر .

العوّاد — ثمّ ... ثمّ ... ينقصها كثير من الشعر . العيون . النهود . اللعاب . الخدود . الشعر . الجبين . الشفاه .

وجيه — (متهكماً) العيون . النهود . اللعاب . الخدود . الشعر . الجبين . الشفاه . حضرتك تطلب اغنية شعرية ام محاضرة فسيولوجية ؟

العوّاد — اريد شيئاً من القلب .

وجيه — هل تحفظ السر ؟

العوّاد — بالطبع .

وجيه — (هامساً بعد ان يتطلع حواليه كأنه يتأكد ان ليس من يسمعه) لا تخبر احداً . انما انا لا اقدر ان انظم شيئاً من القلب .

العوّاد — صحيح ؟! لماذا ؟

وجيه — لانه ليس لي قلب ! [حانقاً] اللعاب ... النهود . صدقت اني ابيعك هذه الابيات بخمس ليرات ؟! هاه ! عندي مشترٍ بخمسين ...!

العوّاد — ان شاء الله !

وجيه — ومشترٍ غيره بخمسماية .

العوّاد — ان شاءَ الله !

وجيه — وغيره . وغ ... يره بالف ليرا .

العوّاد — إن شاء الله. إن شاء الله . بخاطرك . (يختفي في الباب الأيسر) .

وجيه — (صارخا خلفه) إن شاء الله تقع على الدرج وتكسر عودك ورقبتك . (الى ام ظريف) اسمعت القصيدة ؟

ام ظريف — قصيدة عظيمة . عظيمة . ما فهمت منها ولا كلمة .

وجيه — هذه القصيدة سينقشونها على صخرة الجلاء، ويحفرونها على جبين «السفنكس» ، ويطبعونها على مياه الفرات والاردن . ولكن لا يشترونها بخمس ليرات (يرمي السيكارة فتلتقطها ام ظريف وتبدأ في تدخينها . وجيه يرتمي على المقعد المثلث فتقترب منه ام ظريف موآسية تلاعب شعره)

ام ظريف — آه يا بني . آه يا وجيه . لماذا انت هكذا ؟ ما انت اقرع ولا اعور ولا اعرج ولا غبي ولا امي . النـاس يحبونك .

وجيه — الناس يحبون الفاشلين ، وضعف الخائبين يُظهر ما في الناس من قوة .

ام ظريف — (مكملة دون ان تفهم ما نطق به وجيه) لماذا غـيرك يتنعم بالاوتوموبيلات ...

وجيه — وانا عائش على اللحم المشوي؟ اسمعي يا ام ظريف!

أرأيتِ هذا العوّاد يدوزن عوده؟ بعض الناس يدوزن عوده بلحظة . بعضهم بسنة ، والبعض يولد وعوده مدوزن . اما انا فكلما حاولت دوزنة عودي وجدته مقطّع الاوتار .

ام ظريف — هذا غضب الله عليك ، لانك كفرت به وقسوت على احدى مخلوقاته .

وجيه — هل جُننتِ ؟ عمن تتكلمين ؟

ام ظريف — اتكلم عنك ، وعن خطيبتك عايـــدة . سيبيض شعرك قبل ان تتزوج .

وجيه — هذا اوفق من ان يبيضّ شعري بعد ان اتزوج !

ام ظريف — مسكينة عايدة . هي ملاك . لم اسمع بابنـة بقيت مخطوبة سبع سنوات الا عـايدة . عجّل وتزوج . كم عمرك الآن ؟

وجيه — تسعة وعشرون تشريناً اولاً ، لولا الغرام ، لولا عايدة لكانت تسعة وعشرين ثانياً .

ام ظريف — عايده ! يا لها من فتاة جميلة ، مهذبة عاقلة (تبكي) كل رفيقاتها اصبحن زوجـــات وامهات ، وهي في انتظارك . لماذا لا تتزوجها ؟ ما عيبها ؟

وجيه — فيها عيب كبير .

ام ظريف — (تتحداه) عايدة ملاك . كذب كل من نقل عنها خبراً . عيبها كبير ؟! ما هو ؟!

وجيه — عيبها ان لها اماً . اخترعوا طيارة بدون جناح ،

وقلم حبر يكتب بدون حبر – لماذا لا يخترعون زوجاً بدون حماة ؟

ام ظريف – ام عايدة ، مدام زعرور ، سيدة فاضلة . مـــا اعتراضك عليها ، ألعلها تعارض في الزواج ؟!

وجيه – يا ليتها تعارض . كان الامر هيناً . لكنهـــا تريد شيئاً مستحيلاً . تريد مصاغاً . اسمعي ماذا تريد ان اشـــتري . (يمشي الى يمين النظارة ويقرأ من الحائط هناك)

١ – خاتم خطبة ، ثم خاتم زواج .

٢ – زوج حلق كوكتيل .

من يفهم علاقـة الحلق بالكوكتيل ؟ لا ام ظريف تفهمه ، ولا انا افهمه ، ولا ابو حنّا تولستوي يفهمه !..

٣ – دبوس بلاتين .

٤ – اسوار الماس .

٥ – (متهجئاً) بَ . نْ . دَ نْ . ط . . . بندنطيف . ها لطيف ! وانا من انواع الجواهر ، لا اقدر ان اقدّم الاّ لحم مشوي . (يرن التلفون)

وجيه – (على التلفون) هلو ... هلو ... نهاد . آسف ان كنت نائماً . عندي اخبار تهز البلد . لا اريد ان اقولها على التلفون . الاخبار لهـا ثمن يا استاذ . اي ساعه تبدأ بطبع الجريدة ؟ مرّ عليّ بعـــد نصف ساعة . لا تنسَ ان تجلب معك عمـــلة . انا احب الاشتغال بالنقدي . بخاطرك (يقفل التلفون – الى ام ظريف)

هذا نهاد العسكري صاحب « نهضة الفجر » .

ام ظريف — ما هي الاخبار التي تهز البلد ؟ اخبرني . انا لا اخبر أحداً .

وجيه — انا ما عندي اخبار . وانت هل عندك اخبار ؟

ام ظريف — ولماذا كذبت عليه ؟

وجيه — ولماذا يكذب غيري على غيره ؟ للضرورة . للحاجة . وبعض الاحيان بحكم العادة . على كل حال، مدام زعرور ستشرفنا بعد قليل، وهي دائماً حمّالة اخبار (يأخذ المكواة من الصحارة فيحملها بيساره ، ويضع بنطلونه على كتفه) لا تخافي على الاجار . سأصير غنياً . سأبني بناية كبيرة اسكن في غرفة منها وانت تتولين قبض الاجارات . (في الباب الخلفي ورافعاً المكواة) سأبني الف بناية . وساحتج على قانون الاجار . نحن نغامر برأسمالنا ونبذل مئات الالوف ونبني فوق رؤوس الناس سقفاً يقيهم المطر ، والشمس ، والبرد والصواعق ، والرعود ، ثمّ في آخر الامر نمسي عرضة لاستبداد هؤلاء . . . هؤلاء ال . . . مستأجرين (ينصرف)

ام ظريف — (تلتقط القصيدة وتحاول قراءتها وغناءها) ع . . . ا . . . ش تيساً من جفا . . . ا . . . لا . . . مه . . . أمّه . عاش تيساً من جفا امّه (فيما هي تعيد الاغنية يدخل صانع اللحام من

الباب الايسر ويقترب ويتنحنح فتجفل ام ظريف وتصرخ خائفة غضبى)

ام ظريف — من انت وما تريد ؟

صانع اللحام — انا مسعود صانع اللحام. معلمي توفيق ارسلني لكي احصّل من وجيه افندي .

ام ظريف — تحصّل ماذا ؟

مسعود — احصل فلوس . عملة . ثمن اللحم . منذ ثلاثة أشهر ووجيه افندي ما دفع .

ام ظريف — وجيه ليس هنا .

مسعود — (يدير عينيه في الغرفة غير مصدق ثم يعطيها ورقة) على كل حال سلميه — هذه قائمة الحساب وهذا مكتوب لوجيه افندي .

ام ظريف — كم هو الحساب ؟

مسعود — ١٢٥ ليرا و ١٤ قرشاً .

ام ظريف — والمكتوب ماذا يقول ؟

مسعود — اقرأيه ..

ام ظريف — (بفخر) انا لا اعرف القراءة والحمدالله . اقرأه انت

مسعود — (يقرأ) — حضرة الاجل الاجـــد سريّ الهمم وجيه افندي المحترم : بعد تقديم واجب الاحترام لشخصكم الكريم ، يلعن دين ساعة بعت لحم بالدين ، ويلعن دين ...

ام ظريف — (مقاطعة) رح الله يلعنك ويلعن معلمك (تطرده وتدفشه)

اطلع .. اخرج ... تخيّب ..

مسعود — (على الباب) الله يلعنّي اذا جلبت لكم لحماً .

ام ظريف — الله يلعنك ان جلبت لحمـــاً ، والله يلعنك ان لم تجلب لحماً .

(ترجع ام ظريف الى المقعد تتمتم لنفسها وتضرب كفاً على كف حزينة قلقة) من يوم مات زوجي تزوجني ، الشيطان — شيطان الفقر . ما آلم انيابك اذ تعض ، وأسمها اذ تلسع . مرض لا يقتـل ولا يَشفى . تحس ان في عروقك الف ثعبان وعلى لسانك اقة فلفل ؛ وعـلى عينيك نظارات تريك الدنيا جهنماً والناس ابالسة .

(تخاطب شيطان الفقر كأنـه جالس الى جانبها) ابتعد عني . من جاء بك الى هذه الدار يا لعين ؟ ابتعـد قلت لك اخرج !(تركض الى حـــذاء الباب الخلفي وتأخـــذ المكنسة والمجرود واذ ترجع ترى ان الشيطان قبالتها) انت دائمـــاً لاحق بي . ما ألأم هذه الابتسامة على وجهـــك ! سنطردك من هذه الدار — انا ووجيه . فهمت ؟ الله يلعنك !(تنزل بالمجرود والمكنسة ضرباً على الشيطان الذي تتوهم انه قبالتها صاخبة شاتمة . تدخل مدام زعرور)

[بعد هذا المشهد وفي الاوقات المناسبة ام ظريف تخاطب الشيطان وتضربه متمتمة كلاماً غير مفهوم]

مدام زعرور — ام ظريف !

ام ظريف — مدام زعرور !

مدام زعرور – ماذا جرى ؟ من تقاتلين ؟

ام ظريف – اقاتل الـ . . برغش .

مدام زعرور – كيف حالك ؟

ام ظريف – كيف حالك ؟

(تعيدان هذا السؤال بضع مرات)

مدام زعرور – حالي في الويل ، يا ذلّي على عايدة .

ام ظريف – سلامتها . ماذا جرى ؟

مدام زعرور – جرى كل شي . يا ذلي ! (تنتحب . ام ظريف تهديء روعها بـ « طولي بالك . لخير ان شاء الله . . » ثم كأنها فطنت لأمر فتصرخ « جرى كل شيء ؟! » وتروح تنتحب وتلبث الاثنتان في لغب من دموع ونشيق وشهيق وعصرانفين .)

ام ظريف – هل عايدة بخير .

مدام زعرور – بخير والحمد لله . تركتها عند الخياطة . وستكون هنا بعد قليل . انما يا ام ظريف خربنا . صرنا اضحوكة الناس . سبع سنوات خطبة !!! اين وجيه ؟

ام ظريف – وجيه في المطبخ (مشيرة الى الداخل) يكوي بنطلونه . كنا نتحدث في موضوع الزواج هذا الصباح . وجيه مستعد للزواج .

مدام زعرور – مستعد للزواج ؟ بدون صيغة ؟ الموت اهون . لا خاتم (ترجع للنحيب) ولا اسوار !

ام ظريف – (منتحبة) ولا حلق !

مدام زعرور – ولا كستاك ذهب !

ام ظريف – ولا ساعة !

مدام زعرور – ولا دبوس !

ام ظريف – ولا عقد !

مدام زعرور – زواج ابنتي مستحيل !

ام ظريف – وعدم زواج ابنتك مستحيل !

مدام زعرور – ما العمل يا ام ظريف ؟

ام ظريف – لماذا لا نجرّب الغيرة ؟

مدام زعرور – ماذا تعنين ؟

ام ظريف – اسمعي . الرجال خلقهم الله غيورين . قولي لوجيه ان عايدة ستتزوج رجلًا – اي رجل – ترينه يسحب الخواتم من بزر البطيخ والحلق من قشر الباذنجان . (متذكرة) المرحوم زوجي رفض ان يدفع لأبي ليرتين انكليزيتين مهري – حين علم ان لي طالباً ، دفع ليرتين انكليزيتين وريال مجيدي .

مدام زعرور – (سكرى بالاعجاب) الله ما اوفر عقلك ! لو ان دماغك ترابة افرنجية «شمنتو» لكان رأسك اكبر من معامل « شكا » . صحيح – الرجال غيورون . رحم الله زوجي : ما فاتح ابي وامي بالزواج حتى ابتدأ ابن عمه يسهر عندنا . انما اي رجـــل نقول لوجيه انه سيتزوج عايدة ؟

ام ظريف – اي رجل كان . (قرع على الباب الايسر) تفضـــل ! (يدخل الشيخ نسيب).

ام ظريف
مدام زعرور } (بعد ان تتبادلا النظرات ذات المعنى) اهلاً وسهلاً! اهلاً وسهلاً ! تفضل . اجلس هنا ، على هذا المقعد .

الشيخ نسيب – (مستغرباً هذا التأهيل غير المنتظر) نهاركم سعيد . الاستاذ وجيه ينتظرني ؟

مدام زعرور
ام ظريف } نحن ننتظرك .

الشيخ نسيب – خير ان شاء الله!

مدام زعرور – هيأتك ابن عائلة، ابن اوادم. انت شاب، شريف، مهذب ...

ام ظريف – ... انت اعزب ، اليس كذلك ؟

الشيخ نسيب – بلى انا اعزب .

مدام زعرور – اسمع يا ابني ، انا ارملة....

ام ظريف – وانا ارملة ....

الشيخ نسيب – (مرتبكا) انالست طالب زواج... في الوقت الحاضر

مدام زعرور – لم تفهم قصدنا . ابنتي. ابنتي ...

الشيخ نسيب – الله يرسل لها عريس . انا لا اطلب الزواج .

مدام زعرور – اسمح لي ان اشرح لك ...

الشيخ نسيب – اشرحي ما تريدين – بدون زواج .

ام ظريف – اصبري حتى اقفل الابواب. [تقفل الباب الخلفي والباب الايسر]

مدام زعرور – يا ابني . عندي ابنة اسمها عايدة . ابنة وحيدة ،

مهذبة ، جميـــلة ، عصرية ، تطبخ ، ترقص ، تغني ، تلعب بيانو ...

الشيخ نسيب – الله يخليها ويرسل لها عريس – غيري .

مدام زعرور – صار لها مخطوبة لوجيه سبع سنوات .

الشيخ نسيب – (كمن رمى عن كتفه حملا) ، الحمد لله ! مخطوبة . شي جميل !

مدام زعرور – انما كلام الناس غير جميل . صرنا اضحوكة وموضع الهزء والسخرية . نريد ان نعجّل الزواج . وجيه دائماً يؤجل يوم العرس . نرجوك ان تتظاهر انك خطبت عايدة . هكذا وجيه تلذعه الغيرة فنعجّل بالزواج . ارجوك بل اتوسل اليك . هكذا تكون عملت معي معروفاً ، انا الارملة الشقية ، ومع صديقك وجيـه . احسبها دور تمثيل . احسبها مزحة ...

الشيخ نسيب – بعض مرات عاقبة المزاح وخيمة ...

ام ظريف – شاب مثلك وفي عمرك يخاف العواقب ؟

مدام زعرور – ارجوك ، اتوسل اليك (تنتحب)

الشيخ نسيب – طيّب . سأتظاهر . انمـا اذكري ان المسألة هي تمثيل فقط .

(صوت قرع من الباب الخلفي ووجيه يصيح : « افتحي يا ام ظريف ، لماذا اقفلت الباب ؟ .. » ام ظريف تفتح الباب)

وجيه – (لابساً البنطلون مكوياً كياً مضحكا . يخرج وهو يصلح من ساقي البنطلون) لا يفهم هندسة هذين الخطـــين الا البروفسور آنشتـين . (ينهض ببصره فيرى مدام زعرور

والشيخ نسيب) أهلاً بخالتي هدى ! (يقبل يديها . هـذه تقف وقفة مقاتل) كيف حالك ؟ اين عايدة ؟ كيف حال عايدة ؟

مدام زعرور – (كلامها مشدد ذو معنى) عايدة والحمد لله بالف واربعماية وستين خير . ستكون هنا بعد قليل ، تركتها عند الخيّاطة .

وجيه – (متابعـا) وانت يا الشيخ نسيب ؟ اهلاً وسهـلاً بك. اشكرك لمجيئك . تفضلوا ! (الشيخ نسيب يقتعد كرسي العواد ، ومدام زعرور الكنباية ، ويجلس وجيـه على حافة الكنباية . ام ظريف كلها عيون ، وآذان ، تجلس قرب آلة التلفون) .

وجيه – (للشيخ نسيب) – بالطبع ، لا بأس بفنجان قهوة ؟

الشيخ نسيب – اشكرك . انا ممنوع عن القهوة .

ام ظريف – ووجيه ممنوع عن القهوة !

الشيخ نسيب – ارسلت في طلبي – خير ان شاء الله !

وجيه – يا شيخ نسيب ؛ فهمت من مصدر حكومي عـال انك تعينت في الجمرك .

الشيخ نسيب – (مدغدغا جيبه) نعم صدر الامر !

وجيه – لذلك سألتك ان تأتي الى هنا . اولاً لاهنئـك بالوظيفة ...

الشيخ نسيب – اشكرك .

وجيه – ... وثانياً لاسألك ان تستعفي من الوظيفة .

الشيخ نسيب (مبهوتا) -- هاه !؟

وجيه — اريد ان اخبرك اني انا كنت موعوداً بهـذه الوظيفة . وان المرجع الحكومي العالي قال لي انك اذا استعفيت انت ، يعطوني الوظيفة لي . انت فتى تحب عائلتك ؟!

الشيخ نسيب — بالطبع احبّ عائلتي .

وجيه — اذاً فاعلم انّ عائلتك في خطر . ان الناس بدأوا يشمئزون من احتكاركم وظائف الحكومة . حذار ! حذار من الرأي العام ! من خلع القياصرة عن عرش موسكو ؟ الرأي العام . من طرد سلاطين بني عثمان؟ الرأي العام . من اعدم لويس السادس عشر ؟ الرأي العام .فياشيخ نسيب اريد ان اصارحك ان الرأي العام بدأ يثور على عائلتكم !

الشيخ نسيب — بلادنا ليس فيها رأي عام . اين هو ؟ انا لا اراه .

وجيه — خطر الرأي العام في انه لا يُرى ، شبه الرصاصة لا تراها حتى ولو خرقت رأسك . افتكر ، تمعّن في الامر . المسألة مسألة موت وحياة .

الشيخ نسيب — ساسأل خالي . اذا اراد ان استعفي ، استعفي .

وجيه — ثم انا استغرب ان فتى نجيباً مثلك يدفن نفسه في الجمرك . بالطبع انت اديب ؟

الشيخ نسيب — آ...

وجيه — يعني انك تنظم الشعر وتجيد النثر ، وعنـدك

طموح ان تصبح اديباً كبيراً .

الشيخ نسيب – ... بالطبع ...!

وجيه – هل سمعت باديب توظف في جمرك ؟ امرؤ القيس هل كان موظفاً في جمرك ؟ ابو العتاهيـــة ، حافظ ابرهيم ، خليل مطران ، الفرزدق ، جرجي زيدان ، هل توظفوا في الجمارك ؟ هل تريد ان تدفن عبقريتك ونبوغك بين بالات الخام والعنبر كيس ؟

الشيخ نسيب – اسمح لي بسؤال . لماذا حضرتك راغب في هـذه الوظيفة ؟

وجيه – لأنّ الله خلقني غيوراً على المصلحة العامة .

الشيخ نسيب – وانا ...

وجيه – انت ! في عمرك ! في نبوغك ! غامر ! هاجر ! من أسس الهلال ، والمقتطف والاهرام والمقطّم ؟ فتيان مثلك هاجروا . من جمع الثروات الكبرى في مشارق الارض ومغاربها – فتيان في عمرك هاجروا . لمَ لا تهاجر ؟ .

الشيخ نسيب – وحضرتك لمَ لا تهاجر ؟

وجيه – ان سافرنا كلّنا – من يبقى هنا لاستلام حوالات المهاجرين ؟ آه ، يا الشيخ نسيب ، ان الغمار ، والهوى ، تملأ الدنيا حيث ادرت عينيك – لو فتحت عينيك (يأخذ جريدة عن الطاولة) خـــذ مثلاً هاتـين الفتاتين الاميركيتين – هـذه اللابسة قميص السباحة • شيء

جميل آه ؟ (يقرأ) : الآنسة نانسي كلاركس ابنة صاحب اكثر فبركة مسامير في اوهايو ، الولايات المتحدة . وهذه اللاّبسة البنطلون (يقرأ : الآنسة اليزابت وُوْكر ابنة صاحب فبركة ملاعق في « شيكاغو » . هما هنا في بيروت في لوكندة « زهرة بيروت » . هل تعرف الانكليزية ؟

الشيخ نسيب – اتكلم الانكليزية .

وجيه – ماذا تنتظر ؟ اذهب الى اللوكندة . اقرع الباب هكذا (ممثلا) « نهارك سعيد يانانسي . أنا احبك » .

Good Morning Nancy - I love you .

الشيخ نسيب – (كمن يتمرن على تمثيل دور)

Good Morning Nancy - I love you .

وبعدها ماذا يصير ؟

وجيه – بعد ذلك تصير صاحب فبركة مسامير !

الشيخ نسيب – يا استاذ وجيه – بخصوص الاستعفاء ، ساستشير خالي واخبرك . (مدام زعرور وام ظريف تومئان اليه ان يخبر وجيه بالخطبة) . على ذكر فبركة المسامير احب ان ان اخبرك انني خطبت .

وجيه – خطبت ! ؟ برافو ، ما اسم الخطيبة حتى ننشر الخبر في الجرائد ؟

الشيخ نسيب – اسمها ... (ام ظريف ومدام زعرور تتهجآن الاسم صامتتين) اسمها عايدة .

وجيه – غريبة هذه الصدفة ! اسم خطيبتي عايدة ايضاً . امر غريب !

الشيخ نسيب – الامر اغرب من هذا بكثير !

وجيه – ؟!؟!

الشيخ نسيب – خطيبتك عايدة ، هي خطيبتي عايدة .

وجيه (فوار الفرح) - ما اجمل هذه الصدفة ! خالتي هدى ؟ (يقبل يدها ثانية) اهنئك . شباب ، وغنى ، ووظيفة ، ومشيخة .

الشيخ نسيب – لا تصدّق . هذا تمثيل ! هذه لعبة . مزاح بخاطرك . سأستشير خالي واردّ عليك الخبر بشأن الاستعفاء . (على الباب لمدام زعرور) قلت لك ان عاقبة المزاح وخيمة (مدام زعرور ترتمي بين ذراعي ام ظريف وتجهش الاثنتان بالبكاء)

وجيه – بعرضكم ! عندي دواء لكل داء ، الا بكاء النساء .

مدام زعرور – خربت بيتنا يا وجيه . صيرتنا اضحوكة بيروت . ابنتي فتاة جميلة .

وجيه – اجمل من حوالة دولارات على National City Bank

مدام زعرور – ابنتي طلابها كثار .

وجيه – اكثر من طلاب الوظائف !

مدام زعرور – ابنتي فتاة مهذبة شريفة عفيفة نادرة !

وجيه – اندر ممن جمع قرش الفقير وسلمه للفقير .

مدام زعرور – يا لك من مجرم قاس . ان ابنتي هي روحي

واملي وحياتي ، انا ارملة ، وهي يتيمة . ولقد عضّنا الفقر وبرّحت بنا الفاقة ، ولكنّ يد الدنس لم تلمس عفافنا . وجيه ، انك تطعن ابنتي في شرفها وعرضها اذ تطيل امد الزواج . ليت ابنتي عشقت جنّياً ولم تعشقك !

وجيه — (في جد) اسمعي يا خالتي هدى . انت تعرفين اني احب عايدة . ان نفسي كئيبة تتستر بالعبث والدعابة ولكنك أمّ جائرة ، إذ تصرّين على المصاغ . اي علاقة بين الحب والجواهر ؟ انا رجل فقير . من اين لي ثمن مصاغ ؟ لنتزوج غداً . لنتزوج بعد هـــذا الظهر . واتركي امر المصاغ لبعد الزواج . تتطلبين : خواتم ، واساور ، وساعات ، وانا لا املك ثمن عقرب ساعة !

مدام زعرور — (ناحبة) يا ذلي ! زواج بلا مصاغ؟ هذا مستحيل! الموت افضل !

وجيه — (مؤاسياً) انظري يا خالتي هدى (ينتشل علباً صغيرة مخملية من الصحاره)

مدام زعرور — (يكاد يغمى عليها) مصاغ ؟!!

وجيه — علب للمصاغ . (يقرأ عن الحائط) هـذه علبة لخاتم الخطبة (كلما أظهر علبـة تنظر مدام زعرور الى داخلهـا وتصيح « فارغة ! ») هذه لخاتم الزواج . هـذه لحلق الكوكتيل . هذه لدبّوس البلاتين . هـذه لاسوار الالماس . هذه للبندنطيف . اليوم عندنا علب وغداً

نشتري مجوهرات !!

(يدخل خادم اللحام)

مسعود — قبل ان تشتري مجوهرات ، ادفع ثمن اللحمات !

(يدخل اللحام توفيق ولهاثه يكاد يطير سقف الغرفة . يلبس لباس اللحامين، اذ يتدلى عن يمينه سكين اللحام الهائل وعن يساره المسن . يرتمي الى المقعد عيياً ، ويتلفظ بكلام ناري غير مفهوم. هيئته مخيفة . مدام زعرور ترتعب وتلوح بمنديلها . ام ظريف تهاجم مسعود بالمكنسة فينهزم . ام ظريف ومدام زعرور تختفيان في الباب الخلفي)

وجيه — (منفزاً) اهلاً وسهلاً بالعم توفيق . اسمح لي ان اتلفن. (يتقدم من التلفون بهدوء وبعد ان يطلب نمرة ٣٤ ـ ١٢ يتكلم هامساً) هلو ... امين ... اسمع امين ... تلفن لي مرة كل ربع ساعة . فهمت ؟ ان تلفنت ولم يجبك احد ، اخبر البوليس ان هنا قتيلاً . قتيل، فهمت ؟ اخبرهم ان الاسباب ماليّة . تلفن مرة كل ربع ساعة . بخاطرك (يقفل التلفون) كيف حال العم توفيق ؟

اللحّام — حالي بالويل. يا استاذ وجيه (يأخذ من جيبه دفتراً) في الثلاثة الاشهر الاخيرة اشتريت مني ٤٣ رطل لحم و ١٤ اوقية ثمنها ١٢٥ ليرا و١٤ قرشاً . (صائحاً) يا استاذ ! بالعربي الفصيح ، بالعربي الطويل ، بالعربي العريض ، بالعربي المبلطح ، ادفع الحساب !..

وجيه — بالطبع سأدفعه .

اللحّام – صاحب بنك انا ؟ أنا لست بصاحب بنك . مليونار انا ؟ ما انا مليونار . جعفر البرمكي انا ؟ ما انا بجعفر البرمكي !

وجيه – انكرت الحساب انا ؟ أنا ما انكرت الحساب .

اللحّام – نحن ندفع ثمن البقر والخرفان بالنقدي . اجرة الدكان بالنقدي . اجرة الخادم بالنقدي . حسابك عمره ثلاثة شهور .

وجيه – ثلاثة شهور ؟ ! ما اسرع مرور الايام ! كم عمرك الآن يا عمي توفيق ؟ !

اللحّام – (مفكراً) لما ماتت امراتي كان عمري ٤٧ . الآن (يعد على اصابعه) ٥١ . (حانقاً) لماذا تسألني هذا السؤال ؟

وجيه – لأني قلق عليك . ما سبب هذا اللهاث ؟

اللحّام – (مشيراً الى الخارج) الدرج . صار صعباً عليّ صعود الدرج . (متذكراً متألماً) راحت ايام الشباب !

وجيه – آه على ايام الشباب !

اللحّام – (كمن تذكر امراً) حسابك يا استاذ . حسابك لم يعد في ايام الشباب . (ضاربا الدفتر باصابعه) لقد هرم وطالت لحيته وابيضّت ...

وجيه – اتدري يا عمي توفيق ان الشيخوخة ليست بعدد الايام ؟! قل لي مثلاً ايّ شيء كنت تفعله في ايام الشباب وتعجز عن فعله اليوم ؟

اللحام — (مقهقهاً) ايّ سؤال خبيث ! امور كثيرة اعجز عن فعلها اليوم و كنت اقوى على فعلها في ايام الشباب!

وجيه — مثلاً ؟

اللحام — مثلاً ؟! (يقهقه من جديد) مثلاً ... درج هذه السلم في ايام الشباب ... كنت اقفزه كالارنبة ولا اتعب . اليوم اتسلقه كالبطة . انظر إليّ ... كيف الهث .

وجيه — (متمشيا مفكراً) انا لا اقصد الامور الجسدية. الفتوة في الروح . قل مثلاً في ايام شبابك كيف كنت تعامل الخادمات في بيع اللحم ؟

اللحام — (ضاحكاً متذكراً) في ايام الشباب ... ان كانت الخادمة حلوة اعطيتها احسن اللحم ...

وجيه — وان كانت بشعة ...

اللحام — ... اعطيتها الجلد والعظام .

وجيه — مثلاً في ايام الشباب ، لو عجز زبون عن دفع حسابه ، ماذا كنت تفعل معه ؟

اللحام — كنت اقول له بوجهه « الله يسامحك » ومتى أدار ظهره ، العن دين أب خال اخت عم جد خالة صهرامه . اما اليوم (متهدداً) فاني من اجل عشرة قروش اقتل ٢١ رجلاً .

وجيه — عمي توفيق ! سر الفتوة هو ان تفعل في كهولتك ما كنت تفعله في ايام شبابك . تقبر المال ان كان المال يقتل فتوتك ويجعل منك رجلاً شيخاً وانت في

الخمسين ، قل لي « الله يسامحك بالحساب » تر كيف تشتد عضلاتك وتلمع عيناك وتخضر الدنيا وتشع .

اللحام — (مشدوهاً) ها ؟!

وجيه — اخرج هذا السم من جهاز روحـــك . قل « الله يسامحك بالحساب » ... قلها لا تخف .

اللحام — (بصوت خافت) الله ... يسامحك بالحساب .

وجيه — اعدْها !

(اللحام يعيد العبارة وكل مرة بصوت أعلى من مرة ثم هو يجس عضلات ذراعيه ويعرض بصدره ويبتسم)

وجيه — ها انك اكتشفت سر الخلود . لقد صـار الانسان وحشاً يعبد نفسه وينسي الحب والتسامح والحلم . خذ هذه الرسالة وبشّر بها في هـــذا الوطن . ارجع الى دكانتك ، واعطِ اللحم للجميلات ، وبع العظم والجلد للقبيحات . قل للناس اعطوا ... سامحوا ... هكذا تبقون فتياناً . اعطوا ! سامحوا ! (يصفق كمعلم الرياضة واحد ... اثنين ... ثلاثة) اعطوا، سامحوا! واحد.. اثنين ... ثلاثة ... الله ... يسامحك ... بالحساب .

(اللحام في سكرة روحية يقوم بالعاب جيمناستيكية على وقـع تصفيق وجيه وتغنيه . التلفون يرن . حينما يدير هذا ظهره ، يمشي اللحام نحو الباب الأيسر ثم ينهال بالشتائم مطلقا اياها نحو وجيه ، بحيث لا تسمع النظارة تلك الشتـائم ولكنهم يفهمون انه يفوه بها. اللحام ينصرف)

وجيه — (على التلفون) لا يوجد قتيل بعد، انما داوم على التلفنة

مرة كل ربع ساعة . (الى ام ظريف ومدام زعرور وقد ظهرتا في الباب الخلفي) اين العم توفيق ؟

ام ظريف — سافر ...

(وجيه يسرع الى الباب الخلفي فيقفله بعنف)

وجيه (الى ام ظريف) — لا تفتحي لأحد حتى نعرف من هو . الحمد لله .. هذا حساب وفيناه ! (يتمدد على المقعد المثلث)

وجيه — (يخاطب ام ظريف بالاشارة ان تسأل من الطارق)

ام ظريف — من انت ؟

صوت من الخارج — انا الاستاذ الكعب بن الحميد الطهنشاوي .

وجيه — (يمثل ان مصيبة وقعت على رأسه ويشير الى ام ظريف ان تقول للطارق انه غير موجود)

ام ظريف — وجيه في البلد .

الصوت — هلاّ فتحتِ الباب سيدتي ؟ !

سكوت —

الصوت (بعد سماع قرع على الباب) هلاّ فتحتِ الباب سيدتي فاني لتاركٌ لوجيهٍ رسالة .

(وجيه يهرب من الباب الخلفي آخذاً معه السكين الكبير ومهدداً ام ظريف بانه يقتلها ان افشت سر وجوده في الداخل. ام ظريف تفتح الباب فيدخل الكعب)

الكعب — عمتا صباحاً يا سيدتيّ القعرّتين. (يدير نظره في الغرفة) يا بهجة العيد ! يا لها من حجرة ولا قصور الزهراء او الحمراء . واني يا سّيدتيّ في غدٍ الى بغدادَ ظاعن .

ام ظريف — لا تؤاخذني انا لا اعرف فرنساوي .

الكعب — (ضاحكاً) يا بهجة العيد ! وانه لزام عليّ ان أكلَ الى حضرتكما هـذه الاخطوطة — يجوز ان يقال مخطوطة انما الاصح ان يقال اخطوطة . لقـد وعدني الاستاذ وجيه بان يجد لها مموّلاً ينشرها ، يجوز ان يقال رأسمالي انما الاصح ان يقـــال مموّل . يا بهجة العيد ! (يضع نظارتيه على انفه ويتكلم فيما هو ينتشل مخطوطات هائلة) استقراء مخضوضر مزبطرّ . (يقلب المخطوطات) الجزء الاول : امرؤ القيس ، اسمه وكنيته . الجزء الثاني، في ان حقيقة امريء القيس هو « جيدح» . يا بهجة العيد ! الجزء الثالث « في ان امرأ القيس لم يكن اسمه جيدح بل حيدج » . الجزء الرابع « سر الاسرار ودهش الاخبار في حقيقة امرىء القيس» . سيدتي ، ان في هذه الاخطوطة مـا لم يره ابن بطوطه . هنـا سرّ الاسرار ، وسفر الاسفار . ان هذا المؤلّف يجيء ببرهان حنطفوش قاطع ان امرأ القيس لم يكن اسمه حيدج ولا جيدح . ان امرأ القيس كان اسمه امرأ القيس .

مدام زعرور } يا بهجة العيد !
ام ظريف }

الاستاذ — (يسلمها المخطوطات) سيدتي ! وهل لي ان اسألكما

عن فتى يافع غض الاهاب ، اسمه الشيخ نسيب وهتاب.
تراه مرّ بهذه الدار ؟!

مدام زعرور – (تريه الجريدة) تقدر ان تراه في هذه اللوكندة .

الاستاذ – يقال فندق ولا يجوز ان يقال لوكندة .
(يدخل حيمور) – نهاركم سعيد .

الاستاذ – عم صباساً سيّدي (مقدما يده) انا الاستاذ الكعب بن الحميد الطهنشاوي .

حيمور – انا نايف حيمور مهاجر عائد من غرانيلا .

الاستاذ – يجوز ان يقال مهاجر انما الاصح ان يقال مغترب. ألا روّى الغيث ضريح الشاعر اذ قال :

يمضي ولا حلية الا عزيمته
وينثني وحلاه المجد والمالُ

(يعيد « والمال »)

ام ظريف – يا حضرة الاستاذ ، لقد فلقتني !

الاستاذ – (على الباب منصرفا) يجوز ان يقال فلقتني ، انما الأصح ان يقال فججتني . لان فعل فجّ ورد في مقامات الحريري ؛ اما فعل «فلق» فانه ماورد في مقامات الحريري . عمتم صباحاً (ينصرف)

(يطل وجيه من الباب الخلفي فيتأكد ان الاستاذ رحل)

وجيه – أو ... و ... ف . [illegible] حضرتك ؟

نايف حيمور – ارسلني اليك صاحب جريدة « نهضة الفجر » .

وجيه – حضرتك نايف افندي حيمور ؟

نايف — سِيْ سنيور !

وجيه — رجعت من « غرانيلا » في الاسبوع الماضي .

نايف — سِيْ سنيور !

وجيه — بعد غياب ٣٤ سنة ؟

نايف — سِيْ سنيور !

وجيه — (بلهجة خطابية) ان المهاجرين هم سواعدنا ، وآمالنا ، والجزء المتمم لوطننا . فيهم قوانا وعليهم اعتمادنا .

« يمضي ولا حلية الا عزيمته وينثني وحلاه المجد والمالُ »

(يعيد « والمال »)

وجيه — سِيْ سنيور !

نايف — سِيْ سنيور !

وجيه — (يفتش بين اوراقه في منتصف الصحاره عن اوراق منها جريدة كلها بيضاء الا صورة وبضعة اسطر مطبوعة)

وجيه — هذه صورتك . ستظهر في الصفحة الاولى . وهذا ما سيظهر تحتها (يقرأ) « عاد من المهجر بعد نيّف وثلاثة عقود ، المهاجر الكبير نايف افندي حيمور مثقلاً بثمار جهاده . وسيستقرّ في مسقط رأسه بلدة « عين الحرّوب » . شي جميل هاه ؟! اعتقد ان ٣٠٠ ليرا تبرّع كافية . هنا مكتبي (مشيراً الى الغرفة) مكتب دعاية . كل شيء غالٍ ، هذه الايام . خذ اجار هذه الغرفة ، اتدري كم هو اجار هذه الغرفة ؟

نايف — نُو سنيور !

وجيه — لو اخبرتك لا تصدّق .

نايف — (متأملاً في الرسم) أحب ان يظهر اسمي في الاسبنيولية . نايف حيمور في العربي هو Nicola Hayme بالسبنيولي . هل يمكنكم الطبع بالسبنيولي ؟

وجيه — سي سنيور !

(صمت)

وجيه — مسألة الثلاثماية ليرا ...؟!

نايف — يا استاذ وجيه ، هذه الصورة ، وهذا الكلام — شيء جميل . انما هذا امرٌ عادي . كل مهاجر يعود ، تُنشر صورته ويقال عنه انه مهاجر كبير . الذي اريده هو لقب .

وجيه — نايف بك ؟

نايف — نو سنيور !

وجيه — الشيخ نايف ؟

نايف — نو سنيور !

وجيه — الامير نايف ؟!

نايف
وجيه } نو سنيور !

نايف — (يفتح حقيبته ويأخذ منها ورقة) اسمع ! في بلادنا (يقرأ من الورقة) ١٢٣٫٥١٤ امير ، ٨٧٫٦٤٣ بك ، ٢٢٤٫٥١١ شيخ . انا لا أريد مثل هذه الالقاب .

اريد لقباً - مثـــل امير الشعراء يعرف انه شوقي - شاعر القطرين ، يعرف انه خليل مطران . اريـــد هكذا لقباً .

وجيه — ما رأيك باسم « الحيمور الأكبر » ؟ (نايف يشمئز) بالطبع هـــذا لا يوافق . اسمع . انت تنظم الشعر بالطبع ؟ . اسمعني شيئاً من نظمك .

نايف (بدلال) - حينما أرسلت صورتي لخالتي شاهينة كتبت تحتها بيتين :

اهدي اليـــك صورتي يا خـالتي يا رجـــوتي
من بعـد هـذي الغربةِ قلبي يحن للرجعـــة

وجيه — جميل ! جميل ! جميل ! بديـــع . انت من « عين الحروب » واسمك بلبل « عين الحروب » !

نايف — لا بلبل ولا حسون (يقرأ من الورقة) يوجـــد في بلادنا ٨٤١١ بلبل و ٦٤١٥ حسون . اريد شيئاً غير اعتيادي . (بعد صمت وتفكير يتطلع الواحد بالثاني)

نايف
وجيه } نو سنيور !

وجيه — الم تشتغل بالامور الوطنية ؟

نايف — نعم وقعت برقية احتجاج على الصهيونية ، وتبرعت بثلاثة دولارات للمكتب العربي في نيويورك .

وجيه — لنسمّك « المجاهد الاكبر » او « ملك المحسنين » !

نايف
وجيه } نو سنيور !

(بعد تفكير وحك رأس وصمت)

وجيه — في « عين الحروب » يوجد مدرسة ؟

نايف — مدرسة عظيمة فيها ٥٦ تلميذاً .

وجيه — (كمن اكتشف امراً عظيما) نطلق على المدرسة اسم « الجامعة الحروبية » ،والجامعة الحروبية تمنحك لقب دكتوراه — دكتور حيمور ... اسمح لي ان اكون اول المهنئين .

نايف — اشكرك . اشكرك .

وجيه — دكتور حيمور !

نايف — اشكرك (ثم تتراخى ابتسامته الى عبوسة ويصيح) نو سنيور !

وجيه — ولماذا ؟

نايف — دكتور ؟! ربما يفتكروني طبيب بيطري ...

وجيه — لماذا لا ترشح نفسك للنيابة ؟

نايف — ما الفائدة ؟ سأخسر بدون ريب .

وجيه — ترشح نفسك للنيابة ثم تخسر ، ويصير لقبك « المرشح للنيابة سابقاً » .

(نايف يظهر اشمئزازه) .

وجيه — اسمع . ألم يولّع معك الغرام ولا مرة في حياتك ؟

نايف — (متذكراً ضاحكاً) بلى . ولّع الغرام معي مرة .

وجيه — وماذا كان اسمها ؟

نايف — تُوْماصا Tomasa .

وجيه — ما قولك بمجنون تُوْماصا Tomasa مثل « مجنون ليلى » ؟

نايف (يظهر اشمئزازه)

وجيه — نو سنيور !

وجيه (اشرق وجهه وانفعل حماساً كمن حل معضلة) وجدتها ! وجدتها ! نسميك « نابغة النوابغ » ...

نايف — (باباء وكبر وغضب) ما هذه الاهانة يا استاذ وجيه؟ هل دعوتني الى بيتك حتى تحقرني ؟! ابن عمي اسعد حيمور دكانه ببابين سمته جرائد المهجر « عبقر العباقرة » وانا دكاني بستة ابواب وتريد ان تسميني « نابغة النوابغ » فقط ؟!

وجيه — (مراضياً) لا تؤاخذني يا اخي . الذنب ذنبي . حين لا اشرب القهوة في الصباح تخمل قريحتي .

نايف — ولماذا لم تشرب القهوة ؟

وجيه — (مشيراً الى الداخل) لاني ممنوع عن القهوة ! طبعاً لقب « نابغة النوابغ » غير موافق ، ولكنك لو ذكرت لي سيرة غماراك في المهجر — في غرانيلا — ربما استوحيت لك لقباً موافقاً . ذكرت ان دكانك كان بستة ابواب . اخبرني كيف جمعت هذه الثروة ؟

نايف — والله يا استاذ وجيه ، لما وصلت الى غرانيلا كان

لي خال في العاصمة – سانْتَا كروز – عاصمة غرانيلا . فتح لي دكاناً في البرّ في بلدة اسمها « سانْتَا آنا » – وكان خالي يرسل لي مجوهرات ، صيغة . الكلام بيني وبينك كانت الصيغة مقلّدة . كنت جمعت ثروة عظيمة لولا غلطة . كان الشغل جيداً والارباح واهية . كان خالي يقيّد عليّ كروس الخواتم باربعة دولارات ، وكنا نبيع الخاتم الواحد باربعة دولارات .

وجيه – تشتري الكروس باربعة دولارات ، وتبيع الخاتم باربعة دولارات ؟ ! هذه تجارة غانمة .

نايف – تجارة غانمة لولا تلك المصيبة .

وجيه – اي مصيبة ؟

نايف – كنت ادفع لخالي على حساب الكروس ١٢ خاتماً ولم اعرف ان الكروس ١٢ دزينة خواتم .

وجيه – وخالك ، الم يحاسبك بالفرق ؟

نايف – يا استاذ وجيه – في التجارة الخال لا يعرف ابن اخته . بلى كانت طيبة تلك البلاد – كم بعنا من خواتم كذّابة ، ذهبها نحاس ، والماسها زجاج ، واساور وساعات مزيّفة . (متنهداً) التجارة يا استاذ وجيه تحتاج الى مقدرة .

وجيه – الظاهر هكذا .

نايف – ما كنت رجعت لهذه البلاد لولا حكومة غرانيلا . الله يلعن تلك الحكومة راحوا انتخبوا رئيساً

للجمهورية شاباً متحمساً . أتدري ماذا فعل ؟ الله يلعنه ! الله يلعنه !

وجيه — ماذا فعل ؟

نايف — فتح في كل بلد مدرسة .

وجيه
نايف } الله يلعنه !

نايف — فحملت مجوهراتي واقفلت دكاني ورجعت الى « عين الحرّوب » .

وجيه — يعني جلبت مجوهراتك معك ؟

نايف — نعم (يفتح الحقيبة ويناول وجيه الكثير من الحلق والساعات والخواتم)

وجيه — هل تقدر ان تبيعها هنا ؟

نايف — هنا لا يشتريها احد . لذلك انا افرقها هـدايا . تفضل يا استاذ خذ منها ما تشاء . هدية مني .

وجيه — اشكرك . اشكرك . سانتقي كم قطعة .

(كلما انتقى قطعة يسير بها نحو الحائط حيث كتبت قائمة المصاغ ثم يرجع ويأخذ سواها . نايف يقفل حقيبته ويتهيأ للرحيل . وجيه يرجع الى نايف) يلزمني ساعة يد نسائية .

نايف — تكرم . هذه كنا نشتريها بالكيلو (يعطيه ساعة) .

وجيه — يا نايف ، ان سيرة حياتك أوحت لي اللقب الذي يليق بك . انت عصامي . أتعرف ما هو لقبك ؟

نايف — صار لنا ساعة نفتش عليه .

وجيه — انت لا تريد لقباً عادياً . انا لا الومك . بلادنا كلها امير ، بك ، شيخ ، باشا ، مقدّم ، افندي ، خواجه ، امير الشعر ، امير الزجل ، عميد المهاجرين ، المجاهد الاكبر ، حسون ، بلبل ، بطل الابطال ، الوطني العظيم ، العبقري ، النابغة ، العلامة ، المهذب الاعظم ، لقبك انت هو اسمك المجرّد .

نايف — صحيح ؟

وجيه — .... هكذا تكون الشخص الوحيد في هذه البلاد الذي ليس له لقب . لقبك نايف حيمور .

نايف — (فرحاً) لقبي نايف حيمور !!

وجيه — اسمك نايف حيمور فقط لا غير .

نايف — اسمي نايف حيمور فقط لا غير .

وجيه — سنذيع هذا الخبر في الجرائد وعلى الراديو ...

(نايف يفتح حقيبته)

نايف — ثلاثماية ليرا تكفي ؟

(ام ظريف تظهر في الباب الخلفي)

وجيه — كل شيء غالٍ هذه الايام . اتعرف كم ادفع اجار هذه الغرفة ؟ اتدري كم ثمن كيلو اللحم ؟ اتعرف كم يكلف فنجان القهوة ؟

نايف — صحيح كل شيء غالٍ (يسحب دفتر الشكات ويكتب) هذا التشاك بخمسماية ليرا .

وجيه — كثر الله خيرك (نايف يناول التشاك لوجيه فيمد هذا

يده ليأخذه . نايف يسترجع التشاك بغضب و يمزقه)

نايف — نو سنيور . انت عملت معي معروفاً كبيراً ولن ادفع لك ثمنه . هكذا تصبح الشخص الوحيد في هذه البلاد الذي عمل معروفاً ولم يقبض ثمنه . بخاطرك .

(حينما يصبح على الباب) واشكرك جداً (Gracias Senôr) (ينصرف) .

وجيه — عبث . عبث . بدون قهوة كل شيء باطـــل .

(يتذكر امراً فيأخذ قطع الصيغة ويضع كل قطعـــة في علبة ضاحكا مترنماً — عاش تعساً .. ترجع ام ظريف ومدام زعرور فيتظاهر كأنه بوغت وهو في عمل سري)

ام ظريف — هل سافر النو سنيور ؟

مدام زعرور - ما هذا ؟

وجيه — آه يا خالتي ام هدى . كنت اريد ان اريك هذه الجواهر متى وصلت عايدة . فلماذا فاجأتني ؟

مدام زعرور — (تفتح علبة) يا ماما . الماس يا ماما (تفتح علبة ثانية) يا ماما ! بلاتين يا ماما ! (تفتح علبة ثالثة) يا ماما ذهب ! ذهب عيار ٢٤ (تهجم على وجيه فتقبله) يا ابـني عفوك عني . يا فخري . يا ولدي . يا صهري . عايدة ستجن بهذا المصاغ . (تخاطب ام ظريف التي اقتربت لترى) انت لا تعرفين بالصيغة . انا ابنة سوق المجوهرات . وجيـه لا تخبرني كم دفعت . اتركني لوحدي اثمن . المـاس ! هذا ازرق ابيض . قطعة نظيفـــة اللون ، بديعة . (متفرسة به) لا . لا . خالٍ من كل سقـــط . اربعة

قراريط الخاتم . الحلق والاسوار سبعة . سبعة واربعة = احد عشر . والساعة ؟! وجيه لقد دفعت ثمن هذا المصاغ اربعة عشر الف ليرا . مضبوط ؟

وجيه — الصائغ صاحبي . اعطاني اياها ارخص بكثير .

مدام زعرور — انا كل يوم في سوق الصياغ . افحص وادرس وأسأل عن الاسعار . بكم اشتريت هذا المصاغ ؟

وجيه — الصحيح ، خالتي هدى، دفعت ثمنه تسعة آلاف ليرا .

مدام زعرور — ما ارخصه !

ام ظريف — ما ارخصه ! ؟ كل جواهر الارض لا تسوى رطل بندوره .

مدام زعرور — انتِ يا ام ظريف لا تفهمين قيمة الصيغة ، ولا اهميّة المصاغ .

وجيه — ما رأيك بفنجان قهوة يا ام ظريف ؟

ام ظريف — تصرف الوف الليرات على .... على ... هذه الزبالة ، وتطلب مني فنجان قهوة ، واجار الغرفة نائم منذ خمسة عشر شهراً ؟

وجيه — هذه بصّة النار التي فجّرت مستودع الديناميت الآن - هذه الساعة — اعلن الثورة . ام ظريف : هذه الغرفة برسم الاجار . لقد خسرتِ مستأجراً .

(يكمل لبس ثيابه)

مدام زعرور — كيف تترك هذه الغرفة ؟ ألم تسمع بازمة البيوت يا ... يا ... مجنون ! ؟

وجيه — هذا عيبنا . كلّنا عقلاء . هذا الوطن لن يسعد الا متى كثرت مجانينه . ما انا بالرجل الشريف ان خضعت لاستبداد ام ظريف .

مدام زعرور — وعايدة ؟ عايدة ستكون هنا بعد قليل .

وجيه — قولي لها ان تنتظرني .

مدام زعرور — ولكن ، انت ذاهب الى اين ؟

وجيه — الى القصر ، أو الى الياخور . الى حيث يسكبون القهوة في الطناجر . الى حيث لا أرى ام ظريف .

(يريد الانصراف من النافذة التي الى يمين النظارة)

مدام زعرور — (مشيرة الى الباب الايسر) الدرج هناك .

وجيه — سأخرج من النافذة . كل عمري ادخل البيوت واخرج منها من طريق الباب . من الان فصاعداً سأدخل البيوت من نوافذها . سأمشي على رأسي واتفرس بالناس مغمض العينين . سأقبل البشر بقبضتي وأدغدغهم بقدمي . (قرب النافذة) سأتروق أطفالا مشوية والعب فوتبول بالقنابل الذرية (يقفز من النافذة.

ام ظريف ومدام زعرور تبقيان صامتتين . يرن التلفون فتنهض اليه ام ظريف متمتمة متثاقلة)

ام ظريف — (السماعة الى اذنها) هاه ...! هَلُو ؟؟ رجعت تحكي فرنساوي يا ملعون ؟! (تقتلع الشريط الذي يربط التلفون بالحائط وترمي بالتلفون والشريط الى الارض . ام ظريف صامتة غضبى . مدام زعرور تتطلع بالصيغة معجبة) .

مدام زعرور — (خلال هذه المحادثة تجرب الصيغة معجبة امام المرآة ، على

زندها ، واذنيها واصابعها) لقد كنتِ قاسية على وجيه . ربما لا يعود .

ام ظريف — لا يعود ؟ لا تخافي . هو يمثل هـذا الدور كل يوم . صدقت راح يفتش على غرفة ؟ راح يشرب قهوة عند « صالون جعفر » . الذي لا افهمه هو كيف قدر ان يدفع تسعة آلاف ليرا ؟

مدام زعرور — هذا الغرام . ألم تسمعي بالحب . سبحان من خلقك يا ام ظريف ، لا بالمجوهرات تفهمـــين ، ولا بالحب تؤمنين . حضّري لوجيه فنجـــان قهوة . أليس عندك بن ؟

ام ظريف — عندي بن . الذي ينقصني هو الفحم .

مدام زعرور — (مشيرة الى مخطوطة امريء القيس) عنـــدك ورق كثير ؟

ام ظريف — صدقتِ (تأخذ المخطوطات وتسير الى الباب الخلفي واذ تبلغه تخاطب مدام زعرور مقلدة الاستاذ) يجوز ان يقـــال مخطوطة ، انما الاصح ان يقـال اخطوطة ! (تختفي) .

(مدام زعرور تستمر في تقليبها المجوهرات والاعجاب بهـا . تتغنى باغنية افرنجية ، ثم تنتفض اذ تسمع نخنخة خلفها ، هي نخنخة نايف حيمور)

نايف — اريد ان اكلم الاستاذ وجيه بامر هام ، هام جداً .

مدام زعرور — (لم تسمع ما قال) رعبتني !

نايف — الاستاذ وجيه ، بالطبع تعرفينه ؟

مدام زعرور – الاستاذ وجيه سيصير صهري . هو مجنون بغرام ابنتي . لما سمع ان غيره يطلب يدها هدّدنا بالانتحار. انت تنظر الى هذه الغرفة الحقيرة ،فتظن ان وجيه هو فقير . وجيه متواضع . حينما قلت له اريد مصاغاً لابنتي (تطق باصبعيها) لبيك عبدك بين يديك – انظر ماذا اشترى . كل هذا المصاغ بتسعة الاف ليرا فقط . من يصدق ؟ من يصدق ؟

نايف – يا سنيوره ، انا صائغ . اسمحي لي ان افحص هذه الجواهر .

مدام زعرور – صحيح انك صائغ ؟ ما اكبر حظي ! ثمّنها لي .

(تعطيه قطعة قطعة ، وهي خلال ذاك مندفعة في الحديث ونايف يفحصها بتأن . اخيراً يأخذ من حقيبته منظار الصائغين، فيفحص الجواهر ،والمنظار على عينه اليمنى ثم اليسرى ، ويطيل النظر في العلب المخملية) . أرأيت حجر هذا الخاتم ألاحظت بياضه المزرقّ ؟ الساعة هل فتحتها ؟ هل عددت جواهرها الواحدة والعشرين ؟ والاسوار ! مثل هذا البلاتين لا يصنع الا في أمستردام . ألاحظت ان قصّ هذه الاحجار هو قصّ لندن ؟ كم ثمنها في رأيك ؟

نايف – يا سنيوره ، هذا المصاغ يساوي ثروة . اعتقد انه يساوي لا أقل من ثلاثين الف باسو peso !

مدام زعرور – باسو ؟ ما هو الـ peso؟عملة بطلت ان شاء الله ؟ !

نايف — (يحسب على اصابعه العشرة) نو سنيورة . ثلاثون الف باسو peso يعني خمسة واربعين الف ليرا .

مدام زعرور — وجيه دفع ثمنها تسعة ! تسعة آلاف ليرا فقط !

نايف — و كيف قدر يشتريها بهذا الرخص ؟

مدام زعرور — اشتراها من صديق له .

نايف — يا سنيوره ، في التجارة لا الصديق يعرف صديقه ، ولا الخال يعرف ابن اخته . الظاهر اشتراهـــا من ... من ... حمار لا يعرف قيمة الجواهر . (بعد الافتكار) يا سنيوره ، أنا رجل تاجر .

مدام زعرور — انت اكبر قدر .

نايف — لي اقتراح عليك . هذا المصاغ رأسماله تسعة آلاف . أنا اشتريه بخمسة عشر . أعطي وجيه التسعة ، وليذهب الى صديقه فيشتري المصاغ مرة ثانية ، هكذا تعملين صفقة تجارية .

مدام زعرور — أنا لا اريد عمل صفقة تجارية ، اريد مصاغاً لابنتي .

نايف — قلت لك ان وجيه يشتري المصاغ مرة ثانية .

مدام زعرور — لو فرضنا اشترينا المصاغ مرة ثانية فماذا نفعـــل بالصفقة التجارية ؟

نايف — الصفقة التجارية معناها انك تشترين المصـــاغ من جديد ، وتربحين ستة آلاف ليرا ، فيبقى المصاغ معك .

مدام زعرور — اذا كان هـــذا صحيحاً ، فاعطني ستة آلاف ليرا ، وابقِ المصاغ معي ، وخذ أنت الصفقة التجارية . نحن

لم ندخل المدارس ولم نهاجر ، ولكن يجب ان تفهم انني لست بامرأة جاهلة .

نايف — يا سنيوره . صدقت ! انك لا تفهمين بالتجـــارة . اعرض عليك ربح ستة آلاف ليرا فترفضين ، بخاطرك

(يدير ظهره لينصرف) .

مدام زعرور — على مهلك . أين الفلوس ؟

نايف — (يفتح الحقيبة) هنا . (يأخذ دفتر التشكات ويريها اياه)

مدام زعرور — أنا لا أرى الفلوس .

نايف — هذا دفتر التشكات . اعطيك تشـاك بخمسة عشر الف ليرا فيدفعه لك البنك .

مدام زعرور — واذا لم يدفع البنك ؟

نايف — البنك مجبور أن يدفع .

مدام زعرور — لماذا ؟

نايف — لان فلوسي عنده .

مدام زعرور — ولماذا تسلّم فلوسك للبنك ؟

نايف — كل الناس يضعون فلوسهم في البنك . حضرتـك يا سنيوره اين تضعين فلوسك ؟

مدام زعرور — اذا كان معي فلوس قليلة ، أضعها في جزداني . اذا كان معي فلوس كثيرة أضعها في كلساتي . امـا اذا كان معي فلوس كثيرة كثيرة ، — آ ، لن اخبرك أين أضعها ... خلاصة الحديث ، ادفع لي عملة ، فاعطيك المصاغ .

نايف — طيّب سأدفع لك عملة . كنت مهيئاً هذا المبلغ لآخذه معي للجبل لشراء كرم زيتون . (يأخذ كدسات فلوس من الحقيبة) تفضلي . انما ما دمت تصرّين على استلام نقد فاني أصرّ على ان تعطيني خصم عشرة بالمئـــة .

مدام زعرور — اذا اعطينك خصم عشرة بالمئة ، يا دلي، شو بيبقالي؟

نايف — يبقى لك ١٣،٥٠٠ ليرا ، مبلغ كبير .

مدام زعرور — صار معي وجع راس من هـذه الصفقة التجارية . الآن افهم لماذا بعض الاحيان التاجر ينتحر .

نايف — (يعطيها الفلوس ويأخذ المجوهرات) بخاطرك ياسنيوره . سازور الاستاذ وجيه بعد رجوعي من الجبـــل . (على الباب) الله يعوّض عليك (ينصرف) .

مدام زعزور — الله يبارك لك . (تخبىء قليلا من الفلوس في جزدانها وشيئاً في كلسلتها ، ثم تبدأ بحل حزامها اذ ترجع ام ظريف).

ام ظريف — القهوة ابتدأت بالغليان . ما هذا ؟ ما تفعلين ؟

مدام زعرور — هذه تجارة .. بعت المصاغ .

ام ظريف — يا ربي تنجينا !

مدام زعرور — علّمك يا ام ظريف انك لا تفهمين : لا بالمجوهرات ولا الغراميّات ، ولا التجارات .

(فيما هي تفك تنورتها، يباغتها اللحام، فتصرخ وترجـع باقي الفلوس الى جزدانها)

اللحّام — اين حبيب القلب وجيه ؟ هذه هدية له .

ام ظريف — من انت ؟

اللحّام — انا اللحام توفيق — أنسيتني ؟

ام ظريف — اين شواربك ؟

اللحّام — راحت مع ذنوبي. يا ام ظريف: صرت امرد. رجعت الى الصبا . طلعت الدرج بقفزتين. (يقوم بالعاب بهلوانية) آه ما أجمل الشباب !

مدام زعرور — كيف رجعت الى الصبا ؟

اللحّام — شربت دواء كريهاً .

ام ظريف — ذوّقني اياه، ولو كان اكره من زيت الخروع .

مدام زعرور — أعطني منه قنينة . اعطني خمس عشرة قنينة ، ادفع لك ثمن القنينة الف ليرا ، واعطيك عشرة بالمئة خصم وصفقة تجارية .

ام ظريف — هذا الدواء للرجال فقط ؟

اللحّام — هذا الدواء هو للرجال وللنساء . ليس له ثمن ولا يوضع بقناني (بلهجة خطابية) اغسلوا ارواحكم ترجعوا الى الصبا .

أم ظريف — (بدأت تفك اعالي ازرار فستانها) أنا أريد أن اغسل روحي وأرجع الى الصبا .

اللحّام — تريدين ان ترجعي الى الشباب ؟

ام ظريف — بالطبع .

اللحّام — هل لك على احد دين ؟

ام ظريف — اجار خمسة عشر شهراً على وجيه .

اللحّام – (يوقفها وقفة عسكرية عتليتية) افعلي كما افعل، وردّدي الكلام من بعدي: الله يسامحك بالحساب . واحد اثنين ثلاثة ...

(تردد هـذه التمارين بضع مرات ، فتبدأ في ضعف ثم تشتد عضلاتها شيئاً فشيئاً ، وتقوى لهجتها ، وفي آخر الامر ترقص في غنج ودلال وترتمي على المقعد مغنية « الهوى والشباب »)

مدام زعرور – الان دوري (تقف وقفة عسكرية) اعطني تمريناً .

اللحّام – هل لك دين على أحد ؟

مدام زعرور – لا

اللحّام – هل عملت عملا قبيحاً ؟

مدام زعرور – ن ... ع ... م .

اللحّام – قولي ما هو .

مدام زعرور – امام الناس ؟ لا أبوح بشيء امام الناس .

اللحّام – اذاً فابقي عجوزاً كل حياتك – عجوزاً شمطاء .

ام ظريف – صارحي الناس بما اقترفت يا مدام زعرور ! اخبريهم عن آثامك، ولو انها افظع الجرائم . آه ما اجمل الصبا ! اني اشعر بسحر الفتوّة ودبيب الغرام .

(تغني « يا حبيبي أكلما ضمنا للهوى مكان »)

مدام زعرور – لقد بعت مصاغ ابنتي .

اللحّام – واحد ... اثنين ... ثلاثة ... اربعة .

ألغي ... البيعة ... ردّي ... المصاغ .

(يعيدانها بضع مرات)

اللحّام – والآن كيف تشعرين ؟

مدام زعرور – اشعر كأنني عصفور في جنـــائن بعلبك . ولكني بدون جناحين .

اللحّام – هل اقترفت جريمة ثانية ؟

مدام زعرور – لا ...

اللحّام – هل انت متعصبة لعقيدة هوجاء ؟

مدام زعرور – لا ... انا لست متعصبة ، ولكني لن ازوج ابنتي بدون مصاغ .

اللحّام –آ..فهمنا.(يوقفها وقفة جمناستيكيةمرة ثانية) واحـد... اثنين ... ثلاثة ... اربعة

تزوج ... بنتي ... بدون ... مصاغ .

(يعيدانها بضع مرات وفي كل مرة تقوى لهجتهـــا ، وتتصلب عضلاتها ثم ترقص في غنج حتى ترتمي قرب ام ظريف)

ام ظريف – ما اجمل الصبا !

مدام زعرور– ما اجمل الشباب !

ام ظريف – انا احلم بـ ....

مدام زعرور – وانا احلم بنفس الموضوع .

(تدخل عايدة حاملة بضع علب كبيرة) .

عايدة – مَامَا .... ماما ....

مدام زعرور – عايده ، حبيبتي ! امك صارت اصغر منك !

ام ظريف – وانا صرت اصغر من امك !

عايدة – ما هذا الكلام ؟ ماذا جرى ؟ اين وجيه ؟

مدام زعرور – وجيه خرج يؤلف جيش الثورة !

عايدة — يا ربي انا مجنونه ، ام هم مجانين ؟ !

(مدام زعرور تختطف جزدان ابنتها فتفتحه وتتسابق هي وام ظريف ، الواحـــدة تبودر وجهها والثانية تحمر شفتيها ، ثم تتخاطفان المرآة الخ... عايدة تفتح احدى العلب وتري امها بعض فساطين وبرانيط)

عايدة — ماما. انظري ما اجمل هذا الفسطان! والبرنيطة..

(ام ظريف ومدام زعرور تتخاطفان الفساطين والـــبرانيط وتهرعان نحو الباب الخلفي) .

ام ظريف — (على الباب) من بعدِك . انا احترم العمر .

مدام زعرور — من بعدِك . انا احترم العمر (الثلاث ينصرفن)

(يدخل من الباب الايسر العواد لاهثا)

العوّاد — اين الاستاذ وجيه ؟

اللحّام — لا ادري . انا في انتظاره . ماذا تريـد منه ؟ اذا كان لك عليه دين ....

العوّاد — ليس لي عليه دين . ولكني اريد ان أراه . الدنيا تغيرت يا أخ . الدنيا انقلبت رأساً على عقب .

اللحّام — يا اخ انت غلطان! الدنيا انقلبت عقباً على رأس..

العوّاد — يا اخي اشفق علي ،ولا تهزأ بي . اتفقت على احياء ليلة غناء وطرب مع جمعيـة « السلام والتفاهم » .حينما سمعوا نشيدي رفضوه . يريدون شيئـــاً عصرياً — افهمت ؟ لا يعجبهم « ياليل والنهود واللمى واللعاب ». ضـــاعت المروءة والشرف . خلص . انتهى الامر . خربت بلادنا . اين الاستاذ وجيه ؟ ساشتري نشيده

بايّ سعر كان . (يدخل الشيخ نسيب مع ابنة اميركية لابسة قيصاً للسباحة مختزلا) .

الشيخ نسيب – (صارت لهجته متأمركة) اين مستر وجيه ؟

اللحام – كلنا في انتظاره . ماذا تريد منه ؟

الشيخ نسيب – اريد ان اعطيه (يسحب ورقة من جيبه) استعفائي من وظيفة الجمرك واشكره على نصيحته .

اللحام – ايّ نصيحة ؟

الشيخ نسيب – تبعت نصيحته ، والآن ظفرت بهذه الخطيبة الاميركية – مس جونسون .

اللحام – وكيف كان ذلك ؟

الشيخ نسيب – رحت الى الهوتال . قرعت باب غرفتها . أطلّت مس جونسون. قلت لها I love you ، انا أحبك. اجابتني I love you . انا احبك . بعد نصف ساعة نتزوّج .

اللحام – ولماذا تريد ان تستعفي من الجمرك ؟

الشيخ نسيب – بلادنا لاتحتاج الى موظفي حكومة . بلادنا تحتاج الى عمران . ما هي اهم حاجات العمران اليوم ؟ البناء . الى ماذا نحتاج في البناء ؟ الى مسامير . ابوها صاحب معمل مسامير .

اللحام – هل هي وحدها في الهوتال ، ام معها رفيقة ؟

الشيخ نسيب – معها رفيقة ابوها صاحب ٢٠٠ الف راس بقر .

اللحام – (يسن سكينه ويهرع نحو الباب) ما اسم الهوتال ؟

الشيخ نسيب — « زهرة بيروت » (اللحام ينصرف ثم يرجع)

اللحام — على فوقه ، رفيقتها لابسة قميص سباحة ؟

الشيخ نسيب — لا . لابسة بنطلون .

اللحام — بنطلون ؟ (يرتمي على المقعد ويمسح عرقه ويرجع سكينه الى قرابه)

اللحّام — خطر على بالي خاطر .

الشيخ نسيب — وهو ؟

اللحّام — كل زبائني لا يشترون الا لحم غنم .

(يدخل الاستاذ الكعب ومعه ابنة اميركية لابسة بنطلون)

(الفتاتان الاميركيتان تتعانقان ، فرحتين . هَلُوْ لِزي. هَلو نانسي (Hellow Lizzy. Hellow Nancy) ثم تخطف الواحدة طربوش خطيبها وتلبسه وتغنيان راقصين .

I am marrying an Arab

(العواد يرافقهما باللحن من نصفه الى آخره . كذلك اللحام والباقون يرقصون)

الاستاذ — قصدت الى الفندق وقرعت باب الخدر، فبرزت علي هـــذه الغادة الصنطفوشة البرهموسة المزبطرة ... (يعانقها) يا عذر بوجتي الصنطفوشه .... (يعانقها ثانية) ويا صنطفوشتي العذر بوجه . I love you

نانسي — (بعربية رطنة) با بهجة إلايد (العيد)

الاستاذ — واني قفلت الى هذا المكان استعيد مخطوطتي . عجباً ! كانت هنا . لعل السيدة خبأتها (تظهر ام ظريف في فسطان قصير ، عاري الصدر، وبرنيطة وحذاء عالي الكعب،

وجزدان يد) سيدتي اين العجوزالحـــيزبون، التي ام ظريف يدعون ؟

ام ظريف — عجوز حيزبون آ ؟ انا ام ظريف وانت العجوز الحيزبون .

الاستاذ — اريد مخطوطتي .

ام ظريف — يجوز ان تقول مخطوطـــة ، انما الاصح ان تقول اخطوطة . هاهاها .

الاستاذ — واين هي الاخطوطة ؟

ام ظريف — حيدج وجيدح (مشيرة الى الداخل) صاروا كلهم رماداً تحت غلاية القهوة .

الاستاذ — وامصيبتاه ! وارباه ! واأخطوطتاه ! واخريدتاه ! (نانسي تهرع اليه مؤآسية فتضع رأسه على كتفها فينشد مغازلا) واعذربوجتاه !

(يدخل حيمور ممزق الثياب ، بحذاء واحد ، منبوش الشعر ، والدم يسيل من انفه)

حيمور — اين السنيوره ؟

اللحام — السنيوره في صيدا! هذه مدينة البقلاوة !

حيمور — السنيوره — المرأة التي باعتني هـذه الصيغة — هذه الجواهر الكاذبة !

اللحام — وكيف تعرف ان الصيغة كاذبة ؟

حيمور — عرضتهـا في سوق الصياغ . نادوا على البوليس . صار لي ٣٢ سنة ابيع الناس صيغة كاذبـــة وفي آخر

العمر و امرأة ضحكت عليّ وباعتني صيغة كاذبة . انا نايف حيمور ، أمير الصاغة في غرانيلا.

اللحام — غرانيلا !! هذه بيروت يا حيمور !

ام ظريف - (تقترب منه مهددة) انت الغشاش الذي يخـــدع النساء الارامل ...هاه !؟ ألاتستحي ان تحرم فتاة من صيغتها في يوم عرسها ، يا خدّاع يا حرامي !

نايف حيمور — دفعت الوف الليرات ثمن صيغة كاذبة ، والآن تتهمينني باني خدّاع وحرامي ! بعد ان اخذتم فلوسي . فلوسي . فلوسي . فلوسي

ام ظريف — فلوس . فلوس . فلوس . الدنيا عندكم فلوس ... انت لن تستعيد شبابك ، فهمت ؟ فلوسك ترجع لك وأرجع لنا الصيغة . مدام زعرور ،رجع حيمور .

(تظهر مدام زعرور وقد استعادت شبابها ولبست ثياب فتاة عصرية متأنقة)

مدام زعرور — يا منافق !

حيمور — يا منافقة !

مدام زعرور — يا نصّاب !

حيمور — يا نصّابة !

مدام زعرور — ألا تستحي أن تخدع امرأة أرملة (تأخذ بنزع الفلوس من جزدانها وكلساتها ومحفظتها ووسطها وترميها بوجهـــه ، حزمة حزمة وشتيمة شتيمة)

مدام زعرور - يا خداع !

حيمور — ياخدّاعة !

مدام زعرور — يا كذّاب !

حيمور — يا كذّابة !

مدام زعرور — يا بومة . ياغراب . يا أزعر . أموال الدنيـــا لا تشتري جواهر ابنتي !

حيمور — (يرجع لها المصاغ) جواهر الدنيا تقبر عيونك . أنا راجع لغرانيلا .

مدام زعرور — ارجع لجهنم !

(يسمع صوت رجة من ناحية النافذة . يدخل وجيـه فيتحول المسرح الى غوغاء صاخبة ويفهم من الصياح : « فبركة مسامير... هذا المنافق ... واخرديتاه ... غرانيلا ... النشيد النشيد ... اللحم ... الصبايا ... »

وجيه — (مشدوهـاً) اخرسوا كلكم ! ام ظريف ! أين ام ظريف ؟ أنا تاركك هذه الغرفـة في اول يوم من أول شهر من السنة القادمة . (ام ظريف تدخل من البـــاب الخلفي . كذلك تظهر عايدة)

عايده — حبيبي وجيه . نتزوج بعد هذا الظهر . امي سمحت لنا بدون مصاغ .

اللحام — ألم تعرفني ؟! أنا توفيق اللحام . عملت بنصيحتك . أعطيت اللحمة الطيبة لصبية حلوة ، والعظمة لشمطاء بشعه . انظر إلي ! أنا شـاب ! (يعمـل بعض حركات جيمناستيكية).

الشيخ نسيب — هذه عريضة الاستعفاء من الوظيفة الجمركية .

(ام ظريف تأتي بفنجان قهوة هائل الكبر وتقدمه الى وجيه).

الاستاذ — حذار من نهلة من هذه القهوة ! انها لقهوة مسمومة! في هذه الطاسة دم امرىء القيس ! لقد طُبخت هذه القهوة بنار نبوغي ! واأخطوطتاه ! (نانسي توآسيه فيضع رأسه على كتفها ويتابع: I love you)

مدام زعرور — (تأخذ الجواهر فترمي بها الارض وتدوسها) كل جواهر الارض لا تساوي حفنة رمل ... انظر (تلتقط بعض الجواهر) كيف صارت قدمي تسحق الالماس !

وجيه — من أنتِ ؟

مدام زعرور — خالتك هدى (ترقص) تزوج بنتي بدون مصاغ .

ام ظريف — (راقصة) الله يسامحك بالاجار . الله يسامحك بالاجار . ابقَ في هذه الغرفة بدون دفع !

وجيه — مَن انتِ ؟

ام ظريف — انا ام ظريف .

(يتقدم وجيه الى حافة المسرح الامامية مشدوهاً ، مذعوراً يخاطب نفسه !)

وجيه — وجيه ... وجيه ... ولا ... وجيه ... بدون فلوس فهمنا ! بدون وظيفة فهمنا ... بدون عقل .؟!

وجيه .. وجيه .. وجيه ..!

(يدخل الصحافي غاضباً من الباب الأيسر ويصيح ..)

الصحافي — وجيه !!

وجيه — (مذعوراً) وجيه !!

الصحافي — هذه المرة تختتها . جورنالي أبيض ، وموعد الطبع

بعد ربع ساعة . خربت بيـــتي . ما هي العجائب الغرائب التي وعدت بها ؟

العوّاد — يا استاذ وجيه ، انا مستعجل. (يأخذ محفظتـــه) هذه مئة ليرا ، اعمل معروف اعطـــني النشيد .

(حينما تلتف اصابع وجيه على الفلوس يخطفها الصحافي)

الصحافي — هذه لي . خربت بيتي . هذه تعويض عن العجائب والغرائب .. ! اين التلفون ؟ (بعد التفتيش على التلفون يلتقطه عن الارض ويجرب ان يستعمله فيجده ميتاً) تلفونك ميت يا وجيه .(وجيه، مذعوراً ، يركض ويربط الشريط بالحائط) من قطع التلفون ؟

ام ظريف — انا قطعته . ما بيحكي الاّ فرنساوي!

وجيـــه — (يهجم ليستعمل التلفون فيرده الصحافي) قطعت التلفون أتركني أتلفن ، يا ربي . البوليس . البوليس . سأمسي أضحوكة بيروت .

الصحافي — لن اسمح لك بالتلفون . جورنالي . جورنالي . (الصحافي يطلب نمرة) هلو ... ماعندك اخبار ...؟ الجورنال ابيض. هاه! (خلال ذلك يتطلع بوجيه متوعداً) اسمع . في الصفحة الاولى ، أنقل عن ابن خلدون .. في الصفحة الثانية أنقـل عن ابن بطوطه .. في الصفحة الثالثة عن ابن خلّـكان .. أعرف اننا نقلنا عنهم . أنقل عنهم من جديد . الصفحة الرابعة : اين ابو العلاء المعرّي ؟ ابو العلاء المعرّي مات أعزب ؟ وابنـــه

علاء ؟ يا عيب ...

الاستاذ — هذا جناه ابي عليّ وما جنيت على احد .

الصحافي — (متطلعاً بوجيه) هذا جناه ...

وجيه — اسمع ! ارجع لي المئة ليرا ! انا وعدتك بأخبار وعندي اخبار

الصحافي — مثلاً ؟

وجيه — سقطت الوزارة .

الصحافي — سقطت الوزارة . حلّوا المجلس . كلما افلست من الاخبار ، تأتيني بهذه الكذبة . هذه المرة اريد حقائق. عجائب غرائب ! ؟ !

وجيه — (يشرب فنجان القهوة دفعة واحدة ، وينير وجهه كمن استفاق من حلم) اسمع هل تعتقد اني كذاب ؟

الصحافي — نعم .

وجيه — وعدتك بعجائب هذه هي : الاولى لحام يستعيد شبابه ! هذا توفيق اللحام ... اتذكره ؟

الصحافي — انت توفيق اللحام ؟

اللحام — (يلعب العاباً جيمناستيكية) انا توفيق اللحام .

الصحافي — (على التلفون) اقتل ابن خلكان ، وابن بطوطة ، وابن خلدون . اقتل جميع بني آدم . اطبع الجورنال اكسترا ملحق . ظهور عجائب في بيروت . العجيبة الاولى: لحام يستعيد شبابه . (الى وجيه) العجيبة الثانية ؟

وجيه — امرأتان تستعيدان الصبا .

الصحافي = (على التلفون) امرأتان تستعيدان ... لا . اقتل المرأتين . اقتل جميع النساء (لوجيه) رجعت تكذب علي ؟ ! هذه ليست عجيبة . المرأة دائماً تستعيد صباها !

وجيه (يتقدم منه الشيخ نسيب ويعطيه عريضة الاستعفاء) العجيبة الثانية . شاب يرفض وظيفة حكومية .

الصحافي = (على التلفون) العجيبة الثانية ، شاب يرفض وظيفة حكومية !

وجيه العجيبة الثالثـــة : ملاك يسامح مستأجراً بالاجر (ام ظريف ترقص باختصار)

الصحافي — (على التلفون) العجيبة الثالثة : ملاك يسامح مستأجراً بالاجار .

وجيه — هذه القهوة طبخت بنار مخطوطة ادبية . العجيبة الرابعة : مؤلف ادبي له نفع .

الصحافي — (على التلفون) العجيبة الرابعة : مؤلف ادبي نفـع البشرية .

وجيه — (مشيراً الى مدام زعرور) العجيبة الخامسة : أم تزوج ابنتها بدون مصاغ .

الصحافي — (على التلفون) العجيبة الخـامسة : ام تزوج ابنتها بدون مصاغ . (مدام زعرور ترجع الى دوس المصاغ)

وجيه — العجيبة السادسة : ظهر في لبنان ، رجل يلبس اسمه عارياً عن اي لقب (يغمز نايف حيمور)

نايف حيمور — نعم اسمي نايف حيمور . لا بيك ولا دكتور .

الصحافي (على التلفون) العجيبة السادسة : ظهر في لبنان رجل يلبس اسمه عاريا عن اي لقب .

الصحافي (لوجيه) — انتهت العجائب ؟

وجيه — انتهت . اليوم العجائب ،وغداً الغرائب .

الصحافي (على التلفون) اطبع هذه الاخبار باكبر حروف . واصدر اكسترا ، ملحق .(يقفل التلفون)

الصحافي (لوجيه) — وجيه انت نابغة ! لو قصدت ، لحملت الجبال على كتفيك .

وجيه — لو قدرت ان احمل كيس طحين كنت صرت عتال

الصحافي — هذه العجائب... كم ثمنها ؟

وجيه — ست عجائب ، احسب ثمن العجيبة ٢٥ ليرا ـ يكون المجموع ١٥٠ ليرا .

الصحافي يفتح محفظته ويبدأ بعد فلوسه ، وكأنما رشق بحجر فينتفض)

الصحافي — كم عجيبة قلت ؟

وجيه — ست عجائب .

الصحافي — (يركض الى التلفون)ياويلي !!يا خرابي (بعدان يطلب نمره) اقتل العجائب . انشر ابن بطوطة ... وابن خلكان . يا ربي ! خرب بيتي .

وجيه — لماذا ؟

الصحافي — اسمع . من يريد ست عجـــائب . عجائب الدنيا

سبع . ايام الاسبوع سبعة . المعلقات سبع . من يقرأ جورنالي ، اذا نشرت ست عجائب ؟

وجيه — قلت لك ان المرأتين ...

الصحافي — اتركني من النساء . امرأة تستعيد صباها . هذا خبر عادي يا مجنون !

وجيه — (بعد تفكير) احسب رفض الوظيفة عجيبتين ، اولاً لانها وظيفة حكومية وثانياً لانها وظيفة جمركية .

الصحافي — لا . لا ... شخص واحد ، عجيبة واحدة .

(يسمع صياح وضجة ، ويدخل عدد من البوليس قابضين على بائع كعك . اثنان يضرباته . وآخران يحملان الطبق والكعك . ضوضاء .)

ضابط البوليس — اين القتيل ؟

وجيه — اي قتيل !

ضابط البوليس — تلفن امين النابلسي ان في هذه الغرفة ، قتيلاً فجئنا . وقد عثرنا على هذا الشخص خارج البناية في حالة مريبة . والآن اعترف انه القاتل . اين ؟ اين القتيل ؟ (يقبض على عنق القاتل ويهزه) انت القاتل ؟

بياع الكعك — أنا القاتل !

ضابط البوليس — اتعترف !

بياع الكعك — اعترف .

وجيه — (للصحافي) هذه هي العجيبة السابعة : البوليس يقبض على القاتل والقتيل فار من وجه العدالة !!

الصحافي — (يركض الى التلفون) اقتل ابن بطوطة .. اقتل ابن خلكان .. اقتل علاء ابن ابي العلاء المعري ... اقتل كل عائلة المعري انشر العجائب السبع ... العجيبة السابعة : البوليس يقبض على القاتل ، والقتيل لا يزال فاراً من وجه العدالة . طيب سأخفض صوتي (يستمر بالكلام بحيث لا تسمعه النظارة)

العواد — يا استاذ وجيه ... صار لي ساعة انتظر .

وجيه يفتش على النشيد ويعطيه للعواد)

اللحّام — (لأم ظريف) ام ظريف ! انت ارملة وانا ارمل . انت شابة وانا شاب ، هل تريدين ان تكوني ملكة دكاني ، وذابحة اغنامي ، ومنظفة مصارين ذبائحي ؟

ام ظريف — بشرط ان استلم المبيع والميزان .

اللحّام — استلمي كل شيء .

(يشتبكان ذراعا بذراع)

مدام زعرور — (لحيمور بلهجة مغازلة) يا منافق !

حيمور — (بميعان) يا منافقة !

مدام زعرور — راجع الى غرانيلا ؟

حيمور — آ ...

مدام زعرور — وحدك ؟

حيمور — كيف اكون وحدي وانت معي .!

(يشتبكان) كروس الخواتم كم خاتم ؟

مدام زعرور = الكروس ١٢ دزينة والدزينة ١٢ خاتم ، فالكروس

١٤٤ خاتم .

حيمور — الله الله ما اذكاك . كيف تعلمت كل هذه العلوم؟

مدام زعرور — ابن اختي درس في الجامعة الاميركية .

حيمور — يا جواهري !

مدام زعرور — يا مصاغي !

(يتقدم اللحام ويفتح الصرة التي اهداهـا لوجيه فاذا هي لحم مقطع مفروم —)

وجيه — (لعايدة) أتحبين اللحم المشوي ؟

عايدة — دخان ناره كحل لعينيّ .

(العواد يدق ، والكل يغنون « عاش تعساً »
(وجيه وعايده يشكان اللحم بالاشياش . الشيخ نسيب والاستاذ يغازلان كل خطيبته . حيمور ومـدام زعرور ، كذلك ، ام ظريف واللحام في مواقف غرامية . الصحافي على التلفون هائجاً يصدر اوامر بصوت غير مسموع . رجـال البوليس يجمعون الكعك المبعثر على الارض، ويعيدونه الى الطبق . بعضهم يأكل بعضه . وفي هدأة بين الانشاد)

بائع الكعك — العدل أساس الملك . كعك سخن !

الستار

الى المخرج

هل تذكر عداءنا في « نخب العدوّ » ؟ لئن كنت مثلي حقوداً، فليهنأك هذا الظفر . أمَا تراني الآن بين قدميك ؟

لقد اخبرتك في « نخب العدو » اني امقتك وانك تمقتني ، وان رفقتنا في تلك السفرة المسرحية ، شركة فرضها علينا الفن . واني اصارحك الآن ان خيلائي كان سببها ثقتي ان « نخب العدو » ناجحة أياً كان مخرجها . اما هذه المسرحية « حفنة ريح » فجناحها ذو لون آخر . هي طائرة صغيرة محكمة البناء ، كل قطعة منها جيدة العنصر رُصّعت حيث يجب ان تُرصع . وهي ملأى بالوقود الجهنمي يتفجر قوة ، ففي استطاعتك ان تهبط بها الى الهاوية او تصعد بها الى المريخ . افهمت لماذا انا الآن بين قدميك ؟

انت وانا — المخرج والمؤلف — شريكان في كل جهد مسرحي . غير ان حصتك في هـــذه الرواية ، هي الكبرى ، حتى لأصبحت أنا كمية مهملة .

والآن هلاّ سمحت لي ان احدّثك بكل خضوع عنها ؟

وجيه

كنت اتزوّد من الحياة العبر لأؤلف منها مسرحية كبرى ، اذ ومضت « حفنة ريح » وتراقص اشخاصها امام عيني ، وتدافعت حوادثها قبالة بصيرتي ،وراحت تلح عليّ ان ادونها قبل المسرحية الكبرى . فلما حبكت تصميمها وجدتها كاملة الاوصاف الا ... الا ان « وجيه » بقي على المسرح منذ ان ارتفع الستار الى ان هبط . وغير خاف عليك ان النظارة تملّ من يحتكر المسرح ،وان الممثل يجهده مثل هذا الموقف المستمر . فرحت اتأمل . وما زلت أحتال على « وجيه » وافكر وادرس واشتغل ،حتى تيسر لي تنحيته عن المسرح بحادثتين معقولتين .

لقد افنيت في هذا الجهد – تنحية وجيه عن المسرح – تسعة شهور . أتفهم الآن ما يبرر نزق المسرحيين متى قرأوا نقداً يوحيه جهل الدرامة ؟ وهل تدري لمَ ينقمون على المخرجين ، إن تكاسل هؤلاء او اعوزهم الفن ؟

Peripety

هل تفهم معنى هذه اللفظة ؟ لماذا احمرّ وجهك ؟ اكثر الناس لا يعرفون معناها . كذلك لم يكن من سلامة الذوق ان أسألك ، ففي مقدور اي من الناس ان يفحم صديقه بان يسأله معنى لفظة ما. وانّ اغلظ اهل الارض من يسألك هل قرأت الكتاب الفلاني موقناً كل اليقين انك لم تقرأه . لا تهرع الى القاموس ،فلئن وجدت هذه اللفظة هناك فهي تهجي بالـ a لا بالـ e . والقاموس يربطها

بارسطاطاليس، وانت وأنا وشمدص جهجاه لايهمنا امر ارسطاطاليس، لانه ميت ، ونحن لا نهتم بغير الاحياء، اذن فلنشرح هذه اللفظة بلغة نفهمها - لغة اليوم .

لعلّ افضل تعريب لها هي « التأرجح » . وربما سَعْتقنا * « الحربأة » نسبة الى الحرباء لفظة اجمل لولا ما غلب عـــلى اذهان الناس من ان المداجاة ملازمة للحرباء .

في تاريخنا المعاصر نجد مثلين رائعين، يفسران هـــذه اللفظة . اتذكر في الحرب الكونية الاخيرة، كيف كان رومل Rommel القائد الالماني في شمالي افريقيا يحشد جنوده في دائرة، فهو في استطاعته ان يهاجم أي ناحية ، او ينسحب الى أي جهة؟...هذا كان بعض اسباب تفوقه ، اذ لم يفصح عن جهة مسيره بشكل ترتيب جيوشه . والمثل الثاني؟ هل تابعت الاخبار الانتخابية في لبنان ؟ هل لاحظت قائمة شمعون - جنبلاط قبيل الانتخاب ؟ ستكون القائمة دستورية. لن تكون دستورية . ستحتضن الكتائب . لن تحتضن الكتائب . سيكون فيها سليم الخوري . لن يكون فيها سليم الخوري . انشطر عنها اميل لحود. اشترك فيها اميل لحود . الحيرة والتأرجح والتردد واحتمال وقوع ايّ شيء -ضعْ كل هـــذا في قنينة وخضّها تَفُزْ بكوكتيل اسمه Peripety .

ما لك وسّعت احداقك واصفرّ وجهك ؟ ان ما لمح في فكرك صحيح . الادب العربي خلو من التـــأرجح ،اذ ان البدوي بطبيعة بيئته كان ولا يزال واضح المرمى ، فهو يقصد بئرا يرتوي منها ، او

(*) أي اخترعنا لفظة .

عدواً يقاتله ، او مرعى يشبع منه مواشيه ، فليس التردد ، والدوران والتأرجح ، مما ينسجم وطبيعة البادية . رومل كان يخاف الهجوم من الجو ، والبحر ، (الشمال) والشرق ، والجنوب . ثم جاءه الاميركان من الغرب. اما اخونا البدويّ فهدفه وعدوه وحبيبه وطلله ـ كلهم في نقاط معينة .

وفقدان التأرجح ليس هو في الادب العربي فقط ، بل هو ملحوظ كذلك في التفكير العربي ، صاح بي صديق اميركي بعد جدال ساعة في قضيـــة فلسطين « عجباً لعقولكم ايها العرب ، الا تبصرون من الالوان الا الاسود والابيض ؟ اليس عنـــدكم فجر رمادي اللون يذوب فيه الليل والنهار ؟ »

بلى لقد ثاب اليك وعيك ، فذكرت ان التأرجح على اروعه هو في سورة يوسف من القرآن الكريم ، وهو كذلك هنالك مقتضب في بعض نوادر العرب . اما فيما عدا ذلك ، فدلني عليه في العربية !

وما نحن في بحث اجتماعي لنتبسط في هذا الموضوع ، بل يكفي ان نذكر ان وضوح المرمى ، ومعرفـــة الدرب اليه ، ليسا من العناصر الدراماتية .

كل ما اريد ان ازعم ، يا حضرة المخرج ، ان بين يديك في « حفنة ريح » التأرجح في اكمل اشكاله ، من اللحظة التي يرتفع بها الستار ، الى « كعك سخن » . ولم يقتصر التأرجح على الكلام الملفوظ ، بـــل انك لتراه صامتاً في المشاهـــد الصامتة حين يفحص « حيمور » الجواهر ، عليـــه ان يتأرجح بالنظارة ، فيوهمها انـــه اكتشف حلاه ، ثم يتردد ، ثم يعجب بالحلي ، ويظهر جهله لمصدرها ،

ثم ينفعل ... ثم ... كل هذا بتغيير سحنة او قلب شفة ، أو .. ما انا بمخرج هذه الرواية، لاعرف كيف يكون الابداع في تمثيلها . كذلك بين « نو سنيور » و « سي سنيور » دنيا للتأرجح فسيحة .

تقي الدين الصلح والكعب بن الحميد الطهنشاوي

الاستاذ الكعب ليس هو بالشخصية الجديدة . لقد خلقته منذ ٢٣ سنة لتقي الدين الصلح ، الذي اوحاه ، في رواية سخيفة الفتها اسمها « قضي الامر » .لقد نجت تلك المسرحية من عار الخيبة بسبب تمثيل تقي الدين الصلح . كاد الضحك والتصفيق يهـــدمان حيطان القاعة كلما ظهر الاستاذ . لئن اجتمعت بتقي الدين الصلح فليشرح لك دور « الكعب » . ولقد ابحت لنفسي ان اسرق من انتـــاج صباي عبارة يجوز ان يقال « فلقتني » انما الاصح ان يقال « فججتني » . هذه العبارة رعدلها التصفيق منذ ٢٣ سنة . واعتقد انه سيرعد. وان لم تصحّ هذه النبوءة، فما الذنب ذنبي ولا ذنب تقي الدين الصلح ولا ذنب شمدص جهجاه !

رأسي اعريه

يني، وأضعها الى قلبي، وانحني الى الارض، برغم ضخامة وسطي ، امام الفتيات اللواتي مثلن ادوار النساء في « نخب العدو » . واني مسرّ اليك انني توقعت هـذا الامر ، لسبب بسيط هو انني بنيت الادوار النسائية بحيث لا تأنف امرأة شريفة ان تمثل احدها ، لا قبلات ، ولا عناق ، ولا اشتباك اكفّ . وقد

كنت اسائل نفسي، وانا أؤلف « نخب العدو » : هل ارضى ان تمثل هذا الدور زوجتي او ابنتي ؟ وكنت اسمع الجواب « نعم » ! فلا عجب ان مثلت ادوار تلك الرواية فتيات هنّ من « بنات العائلات » . ترى اهذه هي المرة الوحيدة التي ظهرت بها الفتاة العربية والفتى العربي على المسرح في مسرحية ؟ انت تعلم انني اعني من الفتيات ابنة العائلة لا تلك التي امها عزباء وأبوها مجهول محل الاقامة ، واني ولوع بلفظة « وحيد » حتى لقد أوصيت ان يُنقش على قبري « هذا ضريح الرجل الوحيد الذي اعجب بسعيد تقي الدين » .

استشهدت بما سبق ، لاثبت لك انني رجل عملي يواجه الحقائق . حينما كنت أكّاراً ، كانت دابتي في معظم الاحيان محمّلة سائرة في الطريق لا مربوطة الى معلف . وهذه الرواية « حفنة ريح » ، لم اكتبها لتحفظ في متحف بل لتمثل . وستمثل بنجاح على الرغم من انك مخرجها - بسبب انني تفرّست فيها بوقائع الحياة ، فنحن ليس عندنا من المسرح حتى ولا أخشابه . وانت ترى في « حفنة ريح » انها ذات مشهد واحد ، من السهل إعداده ، فلا رياش ثمين ولا مناظر غير عادية ، ولا تغيير مشاهد تتطلب السرعة والاستعانة بالالات الميكانيكية او الانوار الكهربائية الملونة ، او تزييف الضوء و تغييره بين سطوع وسواد وما بينهما من الف لون .

كذلك اعرف ان منظماتنا غير محترفة ، لذلك جاءت « حفنة ريح » قصيرة تفسح المجال لرئيس جمعية « الفلاح والكفاح » ان يرش على النظارة شيئاً من اللعاب ، خلال ممتع الخطاب ، او لقائمقام القضاء ان يظهر افتتانه باعضاء الجمعية النبهاء الذين يمثلون

الرواية ، او لفرقة التلامذة ان يغنوا (نظم الاستاذ محروس بك النابه) نشيد الجمعية :

كلنا نبغي الفلاح في مساء او صباح

ولكن اذكر ان كل هذه الحوادث الجسام تجري قبل الرواية لا بعدها . وان كل ما يسبق الرواية ، يجب ان لا يستغرق اكثر من ٢٩ دقيقة . تسعاً وعشرين دقيقة ، لا ثلاثين ، افهمت ؟

حين مثلوا روايتي « لولا المحامي » في بغداد للمرة الاولى ، نهض شاعر لم يظهر اسمه على البرنامج ليلقي بضعة ابيات ، فلما فتح فمه وقع ميتاً بطعنة خنجر ، ولم تهتد الحكومة حتى اليوم الى معرفة القاتل . اريد ان اعترف لك بانني انا الذي قتلتـــه . ان لي شبحاً يرافق رواياتي في ليالي التمثيل ، وهو يطعن بخنجر مميت كل من يخالف وصاياي .

اغلاط طفيفة

أحذّرك من اقترافها . مثل ان يجلس احد الممثلين بين الجمهور بعد ان ينتهي من تمثيل دوره على المسرح . هذه عادة سمجة تقتل الرواية . في تلك الليلة ، انت جادّ في ان تظهر على المسرح قطعة من الحياة تحاول ان تجعلها حقيقة واقعة . فيأتي احد ممثليك ، فريد اسعد معزور ، وبعد ان ينتهي من ابداعه يرجع الى القاعـــة ، فيجلس بين افراد عائلته ، وهم عادة في المقاعـد الامامية . ائن فعل ذلك فاقبض على رقبتـه وارم به خارجاً ، وبعـــد ان تدغدغ مشفريه بلطمة ساحقة بلغه سلامي وقل له : رويداً حتى ترجع الى بيتك فستعانقك الماما فرحـة بنجاحك ، وستخف اليك في صباح

الغد ابنة الجيران بعبارات التهنئة والمديح . اما الآن فابتعد عن الجمهور، اذ اننا لا نريد ان نقتل « حفنة ريح » .

« ترابة افرنجية » ، « سمنت » ، « شمنتو »

ليس في الادب العربي كتاب يفوق « الحواشة السخفولية » قيمة . إذا وقعت بين يديك نسخة منها، فانت ترى، في باب المسرحيات ان الممثل يتمتع بجميع الحقوق التي ينعم بها الشاعر ، مثل تسكين اواخر حروف الكلمات، وصرف ما لا ينصرف . فلتكن لهجة ممثليك، ونطقهم الكلمات، اقرب ما يكونان الى اللهجة العادية في المحادثات . لاحظ قولي « اللهجة العادية » لا « اللهجة العامية » . ولئن اقتتل الفن وعلم النحو — النحو والصرف ، فلا تنس ان هذه التي في يمينك هي راية الفن . واذكر انني اول من اقترح اقامة تمثال للاستاذ اسعاف النشاشيبي ، وكنت البادىء بافتتاح الاكتتاب اذ تبرعت بدينار مزيف !... ولكن لكل موقف رجل ، وانت اذن تكشف امام جمهور ناحية من نواحي الحياة ، تريد ان تحدثهم بكلمات يفهمونها ، والا كان الامر حمّاماً بدون مياه . إذ فلك انت ان تستعيض عن « سمنت » بـ « شمنتو » او « ترابة افرنجية » — ايّ منها اكثر شيوعاً واقرب الى قلوب الجمهور . وهذا ما ينطبق على « ياخور » او « اسطبل » . لا تقتل النكتة او الرواية ، رغبة بارضاء الاستاذ اسعاف . الحكومة اللبنانية ارضته، منحته وساماً ، سأخترع يوماً من الايام شيئاً هو عكس الوسام . خذ عبارة « لو كان دماغك ترابة افرنجية ، لكان رأسك اكبر

من معامل شكا » : هذه العبارة تكون ناجحة في بيروت . اما في بغداد مثلا ، فانهم لا يعرفون معامل « شكا » . واني افوضك بان تستبدلها بما يفهمه الجمهور العراقي . في بغداد التمر كثير ، فيها بالطبع تاجر كبير له عنابر هائلة . لنفرض ان اسمه « جاد الله » . اذن فالعبارة تصبح « لو كان دماغك تمرة ، لكان رأسك اكبر من عنابر جاد الله » . هكذا يفهمها الجمهور البغدادي .

انت مخرج ولك ان تخلق وتتفنن . من يمنع ام ظريف من حكّ مؤخرتها كلما ارادت التفكير او عرتها حيرة ؟ من قال لك اني اغضب عليك ان وضعت تحت سرير وجيه آلة عتلتة* يخرجها ليتروض بها ويهتم برفع اثقالها ، اذ يرجعها بحركة مضحكة سريعة ولا يتروض .

اليمين واليسار

متى وقعت عيناك على هاتين اللفظتين في هذه الرواية ، فهما تعنيان يمين النظارة ويسارها . و « خلف » : معناها ذلك الجزء من المسرح الابعد عن الجمهور . و « امام » : معناها ما قرب من المسرح الى الجمهور .

على الباب

الانصراف من المشهد ، هو موقف مسرحي رائع . وانت لاريب تلاحظ ان كلا من اشخاص هذه الرواية يفوه بكلام فخم او مضحك حينما ينصرف . فلا تدعنّ ممثليك يتركون المسرح جارّين

(*) تعريب Athletic وهي ما كانوا يسمونه في القديم « رياضة » .

ارجلهم . بل لتكن وقفة كل واحد منهم « على الباب » وقفة مسرحية ، فيطلق العبارة الاخيرة قبل انصرافه بحماس وحياة . هذه الوقفات « على الباب » هي من عناصر قوة « حفنة ريح » . وهي يجب ان تستثير تصفيق الامتحان . على ان جماهيرنا تجهل انه من « اللياقة » ان يصفقوا للممثل حين ينصرف ، وبعضهم لايدري ان كان ادب الفن يسمح بالتصفيق عند الانصراف . فعليك ان تثقف الجماهير بان تزرع بين النظارة من يبدأ بالتصفيق عند مشاهد « على الباب » ، واترك للجمهور امر اظهار الاستحسان ضئيلاً كان ام هائلا .

السطر

هذا تعبير اميركي . يقولون فلان له « سطر » ، ويعنون بذلك ان له طريقة في الكلام ، أو عبارة يرددها . في « حفنة ريح » ترى «السطر» على لسان العوّاد — «صار لي نصف ساعة انتظر» . فليرددها ،واعتبر في غرابة عقلية الجماهير التي يضحكها امر بسيط هو ترداد عبارة مشهداً بعد مشهد . وليس لي ان اشير عليك بأن تقوّي هذا « السطر » بان تحمل الممثل ساعةً يظهرها حين ينطق بسطره ، واحيانا يظهر الساعة من غير ان ينطق بالسطر .

من مبررات الاعدام

حدثتك عن شبح يحمل خنجراً يطعن به من خالف وصاياي . ولقد فاتني ان احدثك انه كذلك يحمل رشاشاً يصبّ رصاصه على

كل مخرج يعطي لشخص واحد، اكثر من دور واحد في اي رواية . فحذار حذار .

افرنجيتان

في هذه الرواية فتاتان اميركيتان لا تنطقان الا ببضعة الفاظ . واحدة تلبس قميص سباحة ، والثانية تلبس البنطلون . لن يصعب عليك ان تقنع فتاة بلبس البنطلون . ولئن خانتك ذرابة اللسان عن الاقناع ، فأت بفتاة افرنجية تلبس قميص السباحة . غير انه ما زال همنا — انت وانا وشمدص جهجاه — ان نخرج بالفتاة العربية من خدرها ، فاقبل بفتاة تلبس الفسطان العادي ، وضع على لسان الاستاذ عبارة « ان حلة الانغماس بالبحر التي يسمونها قميص السباحة لمقدّر وجودها — تحت الفسطان » .

والآن وقد سمعت اوامري ، انهض من بين قدمي ، فاني اريد ان اعانقك .

فنحن بدأنا الحديث وانا على قدميك ، وانهيناه وانت بين قدميّ . ثم ختمناه بعناق . أفهمت الآن معنى « التأرجح أو « الحربأة » اي الـ peripety ؟

٢٧ اكتوبر سنة ١٩٤٧ ، مانيلا ، الجمهورية الفلبينية .

موجة نار

مجموعة قصص

موجهٔ نار

حينما شدّت « نوتيلوس » الغوّاصة الاميركية حبالها الى مرفأ « مانيلا » ، كنتُ اول من قفز منها إلى الشاطىء .

ولم يكن حافزي جوعي الى النساء، أو شوقي الى أكل الخضار والفواكه ، ولا حدا بي الى الاسراع تلك الاحلام التي تراود البحّار في اسفاره من قناني وسكي ، ويابسة صلبة تحت قدميه ، وقامة ميّاسة بين ذراعيه . بل ان عواطفي كانت متوترة تواقة الى لقاء جميل السغبيني .

فجميل هذا هو مواطن لي، سكن « مانيلا » ويعرف كل شيء عن لبنان حيث شبّبت، حتى ليسرد من امور بلدتي « بعلبك » اكثر مما أعرف ، فهو يذكر شوارعها ، وراس عينها ، وقلعتها ، وساستها وبساتينها ، وخيولها ، ويعرف كذلك « ابو علي » ملحم قاسم ، واولاد دندش ، وقائمقام بعلبك صلاح اللبابيدي .

وكان سبيل تعرّفي الى المواطن جميل السغبيني ، النجمة السينمائية « غريتاغاربو »، اذ ظهرت على الشاشة البيضاء ذات مساء

فافلتت من شفتي لفظة اعجاب عربية، فلم اشعر الاّ ويدان قويتان تهزّان كتفيّ ، وفتى يصيح من المقعد الخلفيّ في دار تلك السينما « ابن عرب ؟ » أجبت « ...وبعلبكي » ! .

ومنذ تلك الليلة نشأت بيني وبين جميل مودّة أنمتها الايام، وشدّت قلبي الى قلبه حبال امتن من حبال غوّاصتنا « نوتيلوس »، فكنت كلما رجعنا من سفرة تمارين حربية ، او من زيارة الى مرفأ مجاور ، هرعتُ الى جميل وفي يديّ هدية له أو لزوجته وطفلته — تلك الصغيرة التي كانت تدعوني « عمّو » . وكانت زوجته تغتفر لجميل تأخره عن الرجعة الى البيت في المساء ، ما دام « اسطول بعلبك » في الميناء .

ولعلّ ما جذبني الى جميل السغبيني ، تنوّع شخصيته ، فما اعاد عليّ سرد قصة ، ولا ردّد نكتة . وقد اتركُ « مانيلا » وجميل مستخدم في مصرف ، فارجع اليها وهو مدير شركة اوتوموبيلات ، ولعله بين الوظيفتين كان قد غامر بصفقة بورصة ، وفتح ثم أقفل معمل بوظة . وكان يعجبني منه ثقته بنفسه الى درجة عجيبة . فهو يروي لك كيف سيبني الخزانات لنهري دجلة والفرات ، وينشىء معامل الفخار والقرميد والخزف في شرقي الاردن ، ويجعل من احدى قرى « عكار » مزرعة عصرية مثالاً أعلى للزراعة العلمية ، ويؤسس المدارس العربية في « جاوى » . وحين ينتهي من خطابه يسألني اقتراض خمسة دولارات .

وان مثل هذا السلوك ، من غير جميل ، يوحي الهزء . ولكنّ الاثر الذي يتركه في النفس حديث جميل ان هذا الفتى سائر الى

مبتغى سيدركه ولا ريب ، وان هذه الحاجة الوقتيـــة ، وتنوّع اعماله ، هما محطتان لا بدّ من الوقوف بهما في الطريق الى النجاح .

هكذا كانت « مانيلا » قاعدة « نوتيلوس » البحرية ، تعبّىء منها زيوتها ومؤنها وذخائرها ، وكان جميل السغبيني قاعدتي الروحيّة استمدّ منه الوحي والقوة والايمان ، وادّخر من ظرفه ونكاتـــه وحكاياته ما يؤنس نفسي في اسفاري الموحشة .

لذلك كان قلقي عليه شديداً ، حينما احتلّ اليابانيون مانيلا ، وحينما دمّرت تلك المدينة اساطيلنا الهوائية ومدافعنـــا البرّية . وكنت كلما قرأت انباء القتل والدمار التي نزلت بمانيلا ، اسائل نفسي خائفاً : ترى ما حلّ بجميل وعائلته ؟ وفي صيف ١٩٤٣ أغرقنا باخرة يابانية شمالي الفيلبين ، واسرنا منها ثلاثة فيليبينيين من موظفي الحكومة ، اخبرني احدهم انه يعرف جميلاً ، وان جميلاً في سجن ياباني كثر من يدخله ، وندر من يخرج منه .

وهأنذا في خريف ١٩٤٥ وقد استعادت قواتنـــا الاميركية « الفيلبين » منذ شهور أجول « مانيلا » اسأل عن جميل ، فلا القى من يعرفه ، واقصد الى البيت الذي كان يسكنه ، فلا أجد هناك الاّ السور وقد اسودّ من دخان الحرائق ، فسألت نفسي هلعاً : ترى اين كان جميل وعائلته ، اذ استحال منزله الى دخان ورماد ؟ واقتربت الى رتاج البوابة — لا ، ليس في الامر من شك فالنمرة الـتي اختبأت تحت حجاب من دخان ، وغبار واقذار — هي هي نمرة ٧٢٢ .

ولقد أتعبني التجوال وأغمّ قلبي ألم الخيبة ، فجررت قدمين ثقيلتين ودخلت الى أقرب خمّارة ، وطلبت مشروباً ، فجاءوني بزجاجة

سكبت منها كأساً لها طعم دم الابالسة ، ولون الزنا ، ورائحة الانتخابات النيابية في لبنان... ورحت أفكّر في جميل، واتذكّر — بلى تذكرت ليلة اشتدّ المرض على زوجته ، وكان بها شغوفاً، وكنت الى جانبه في المستشفى، اذ خرج الاطباء الثلاثة من غرفتها فتقدم منه عريفهم، وهزّ رأسه معزياً قائلاً: «ان الزوجة ستموت بعد ساعات .» وتذكرت كيف انتفض جميل وصاح : « ان علمكم كاذب . ان زوجتي ستشفى، فلو انها في طريقها الى الموت، لكان ارتعب قلبي ، وقلبي ساكن غير خائف . » وذكرت كيف سلمت الزوجة ، بسبب ان قلب جميل لم يرتعب . قلت لنفسي :

« وانا كذلك شغوف بجميل وقلبي غير مروّع . ترى هل تفوز الصوفية مرة ثانية ؟ » .

وضربت بقبضتي على الطاولة صائحاً : « ان جميلاً حيّ » وكأنما أجفل من صيحتي رجل كان واقفاً حذاء الباب ، يقلّب صفحات دفتر التلفون، فوقع الدفتر من يده، وانحنى يلتقطه، فومضت اذ ذاك في ذاكرتي عبارة سمعتها من جميل: « ان اعسر الامور على الانسان ان يراها ، هي الامور الواضحة » . بلى — ان من الامور الواضحة التي لم ارها، ان افتش على اسم جميل في دفتر التلفون . فوثبت الى الرجل الذي أجفلته صيحتي، واختطفت الدفتر منه، ورحت اقلّب صفحاته : سين ... سين ... سابنسكا ... سادولي ... سغبيني، جميل نمرو ٥٠٢ ، بناية دافيس . فاقفلت الدفتر وارجعته للرجل الذي كان يقلبه ، منحنياً امامه معتذراً ، ورجعت الى طاولتي راقصاً على اللحن السماوي الذي كانت تصدح به تلك الموسيقى

العلوية ، وافرغت بين شفتيّ الرحيق الكوثريّ الذي ملأ كأسي ، ونقدت عشرة دولارات الى الحوريّة الفتانة التي كانت تجالسني . كذلك قبلتها في شفتيها وعنقها ، ووضعت تحت ابطي تلك الصرّة من سواكير ، وصابون ، وشفرات حلاقة ، التي اتيت بها هدية لجميل. وأحسست ان بين ساقيّ الفاً من الخيول البعلبكية اهمزها لترمح بي الى بناية دافيس .

ووقف بنا المصعد الكهربائي في الطابق الخامس ، فانطلقت منه ، فاذا الطابق كله مكتب واحد انتشرت فيه عشرات الطاولات ، جلس خلفها رجال وفتيان وفتيات في كل الاعمار والالوان . وفيما انا ادير عيني ، افتش عن جميل فلا اراه ، اقتربت مني احدى كاتبات المحل ، وسألتني مغازلة : «هل لك من أمر؟» قلت : «اني افتش عن جميل سغبيني . أخبرتُ انه يشتغل هنا». قالت مداعبة : « انه لا يشتغل هنا ، ولكنه صاحب المحل . أعطِ اسمك هناك الى سكرتيرته ، وهي تسهّل لك سبيل مقابلته ». ودارت تسير الى طاولتها ، فلم ألاحظ انها فتانة في اقبالها وادبارها ، بل سرت الى حيث السكرتيرة التي سألتني عن حاجتي في مقابلة « الرئيس » ، قلت : « ابغي ان أقدم تقريراً عن اسطول بعلبك . »

وانفتح الباب وبان جميل .

وجمدت في مكاني واقفاً تهتزّ الكلمات على شفتيّ ولا تنطلق ، ويغشى الضباب عينيّ ولا تندى دموعاً ، بل رحت اتطلّع اليه واضحك . أما هو فبقي كذلك في كرسيّه مبهوتاً ، لم ينهض ولم يقبلني ، ولم يهزّ يدي ، بل مكث ينظر اليّ باسماً ، الى ان نطق

اخيراً فقال : « ان كنت بحّار بعلبك ،لا طيفه، فارم بنفسك على ذلك الكرسي .»

فقعدت ، وطفقنا نتحدث . بلى لقـــد عانى اهوال السجن والتعذيب ، والجوع ، والخوف ، وخرج من جهنم حكم اليابانيين نحيلًا فقيراً . اخبار الوطن ؟ كثيرة ! القلعة لم تبرح بعلبـــك ، «ورأس العين » لا تزال مياهها تجري .

وسألني بدوره اخباري ، فقلت : انها مختصرة – سماء ، وماء ، وبضعة بوابير يابانية ومدرعتان . فضحك وسرد لي اخبار غمـــار غواصتنا ، اذ انه كان قرأ الكتاب الذي ألفـــه قبطان الغواصة « نوتيلوس » وعنوانه « ثماني ساعات في جوار الشيطان » ، حـين انسحبنا بعد معركة « سوريفاو » الى مياه ظنناها امينة ، ففوجئنا بعشرات من قطع الاسطول الياباني ، فغطسنا الى قعر البحر ، ولبثنا هناك ثماني ساعات ، واليابانيون يرموننا بالقنابل من طياراتهم ومن بواخرهم المقاتلة .

وهدأ فوران نفسي ، بعد انقضاء الوهلة الاولى ، وانكشف الضباب عن عيني ، فاخذت انظر الى جميل من جديد ، فلم اجده الفتى الذي عهدت . فقد ضخم وجهه وترهل ، وعرض جبينه في صلعة ، ولقد اغتفرت له انه لم ينهض للقائي ولم يمد يده لمصافحتي ، ولكنني لم اغتفر له ذلك الطنين الخفي في صوته الذي يقصيني عنه . كان فيما مضى في صوته نبرة ثورة ، وحدة ايمان استحالت الان الى هدوء مائع ساخر ، وكنت قبل اليوم تشعر اذ تحـادثه انك في حضرة مقاتل يجاهد في تحقيق امر نبيل ، وها هو يصـدر الاوامر ويقضي

الحاجات ، كانه عامل في مصنع ينزع المسمار من هنا ليضعه هنا ، يفعل هذا في حذق ودقة ، ولكن بغير حماس . وكنت من قبل ارى حول رأسه هالة ، كانما هو قديس او ولي . فاذا بتلك الهالة امست ضباباً من كآبة ، اذ تسرّق الى صوته حزن عميق ، ورنة يأس لم افقه معناها .

وصمت وصمتّ .

ورحت الاعب الصرة التي اردتها هدية له ، واضحك من نفسي اذ ان محادثتنا قاطعها ظهور بعض مستخدمي المكتب ، واحداً اثر واحد ، ولم يسعني الا ان افهم من شظايا كلماتهم انهم يمارسون التجارة بارقام ضخمة : « ارسل ستين الف دولار الى نيويورك ... اطلب عشرة صناديق ذهب من المكسيك ... ادفع حوالة الـ٦٨ الف دولار ... ثمانية الاف صندوق سواكير ... اربعة الاف صندوق صابون ... لا نقبل طلبية بأقل من خمسة الاف دولار .. مليون شفرة .. »

وحالا ذكرت ان قنينة الوسكي التي دفعت ثمنها ، لم اشربها كلها ، وان في شفتي تلك الفتاة شهوة مسكرة . وكنت حينما جلست قبالة جميل ، اجد مقعدي ناعماً كأنه مليء باشعار فوزي المعلوف ، فشعرت بعدان تطلعت الى جميل ثانية ، ان الكرسي صار وخّازاً كأن حشوه خطابات المطران مبارك ... فتهيأت للنهوض والانصراف ، ولكن عينيّ اذ ذاك التقتا بعيني جميل .

سبحان الله ! اليد تصافح العدو مخادعة ، واللسان ينطق بالكذب ، والشفتان تنفرجان عن ابتسامة ختل . اما روح الانسان

الصادقة فقد صبّها الله في العينين فلا تكذبان . وقد التقت روحانا خلال عينينا فاغتصب جميل ضحكة ، وقال : « ان في نفسك معركة يا بحّار، وكدت ان تنهزم منها » ودخل اذ ذاك احد مستخدمي المحل فامره جميل بان يقفل الباب وينصرف،وان لا يسمح لاحد ان يدخل علينا . ثم تابع جميل حديثه : « تريد ان تسألني سؤالا ولا تجسر . وجدتني ممسوخاً . تريد ان تعرف لماذا ؟ اني مخبرك . لقد عرفت اسراري كلها في زمن فقري، فلمَ اخفيها عنك اليوم؟ ولكني اقول لك انه ليس في وسعك اسعافي ! ان بي مرضاً لا يشفى . انت تذكر آلامي في ايام القلة . لقد رويت لك اي مهانة ملكت نفسي يوم ذهبت وزوجتي الى كلية الراهبات لنسجل اسم ابنتنا في ذلك المعهد، وكيف اعرضت عنا الراهبات ، ورفضن قبول ابنتي لولا توسل زوجتي . وما كان ذنبنا الا ان حقارة اثوابنا اعلنت قلة دراهمنا . تذكر كيف كنت ، حين انصرافنا بعد ظهر يوم ماطر ، اقبع في مدخل البناية منتظراً انقطاع المطر ، وكيف كان يمر امامي الاوتوموبيل خلف الاوتوموبيل ، ترش عليّ الوحول ، وتحمل الكثيرين من اجلاف الناس . انت تذكر حين جاءت الجوقة الاميركية ولم نقدر ان نشهد اياً من رواياتها،اذ كان ثمن التذكرة خمسة دولارات . تذكر اني كنت اقترض منك الدولار،والاثنين والخمسة . انت تذكر مرارتي وثورتي وآلامي . هذا ليس عليك بجديد .

« وجاءت الحرب فطوّحت بنا الفاقة . وكاد سجن اليابانيين يطحن روحي وجسمي .

« الى ان حرّرتنا جيوش الاميركان .

« وكنت آمل ان تمطر الدنيا دولارات ، ولكني لم احلم بمثل هذا الطوفان . لقد كانت لي علاقات وثيقة ببعض فبارك اميركا، كما تعرف ، وكان اسمي في « السوق » محترماً ، والبلاد خالية من البضائع . اجمع هذا الى ذاك واضربه بشيء من الحظ، تفهم كيف اسبح الآن هذا الاوقيانوس من الاموال .

« وحين هبط عليّ الغنى لم اصبح مقتراً، بل اني ابتنيت شبه قصر في ضاحية المدينة فرشته بافخم الرياش . وصارت ابنتي تذهب الى كلية الراهبات — تلك التي ارادت رفضها بسبب فقرنا — باكبر سيارة في المدينة .

« ولكن شيئاً من عناصر نفسي خشن وتصلب وآلم .

« فحين مرضت زوجتي قبل الحرب كنت اسهر الليل احدثها وأواسيها ، واذ تغفو اكبّ على قراءة كتاب، وربما ألفت قصة أو قطعة من رواية . اما بعد الغنى، فاني اكتري لها ممرضتين، واحدة لليل واخرى للنهار، ثم انام ملء عيني. كنت في زمن الفقر ، اذ يقبل العيد، آتي بدمية رخيصة الثمن واعطيها لابنتي والاعبها واضاحكها. اما اليوم، فاوصي من نيويورك على اثمن الدمى ، ولكني لا اضاحك ابنتي ولا الاعبها . في زمن العدم ، كنت ادخل وعائلتي الى دار السينما فنضحك او نبكي مهما كانت الصورة سخيفة . اما منذ حين فقد اقاموا حفلة خيرية وعرضوا فيها صورة « سلم الى السماء » وباعوني ثلاث تذاكر الواحدة بخمسين دولاراً، فبقيت زهاء ساعتين اتطلع الى الشاشة البيضاء ، فلا ارى الا الشاك الذي امضيته لهم

— ١٥٠ دولار — ١٥٠ دولار — ١٥٠ دولار . اتذكر يا بحار يوم جاءتني من لبنان علبة الزيتون، وجئت انت ونسيب ويوسف وسليم وداود معي الى البيت، وفي طريقنا اشترينا بستين سنتيما خبزاً و ٤٠ سنتيما خياراً، واكلنا واكلنا واكلنا وضحكنا وضحكنا وضحكنا.. اما اليوم فان وجوه المدينة يأتون الى العشاء في بيتي ، ولا نتبادل الا المداجاة ، واني اعدّ عليهم حبوب العنب اذ يأكلون — كيلو العنب ثمنه ثلاثة دولارات يا بحار ...

وذات يوم جاءني بريد بيروت فاذا فيه رسالة من رفيق الصبا، وعشير الدراسة كنت ادعوه « المكاري »، اذ ان معظم رجال ضيعته أكارون ، وكان يدعوني « المعّاز » لكثرة رعاة الماعز في ضيعتي . كانت رسالة المكاري الي كلها عواطف ، وقد ارفقها بنسخة من مجلة يصدرها ، فذاب قلبي حنواً وتذكاراً ، وقطعت له حوالة بـ ١٠٠ دولار اشتراكاً بمجلته المتواضعة . وحين رجع الاجير من البنك بالحوالة تصفحت المجلة فوجدت ان اشتراكها عشرة دولارات . لماذا ارسل له مئة ؟ من وهبني خلال ايامي كلها تسعين دولاراً ، حتى ارمي بهذه التسعين ؟ فارجعت الاجير الى البنك ، واستبدل الحوالة بثانية قيمتها عشرة دولارات.

«وبعد ظهر ذلك اليوم، انصرفنا وكان المطر شديداً، فركبت اوتوموبيلي الفخم، امرّ بالناس تقي رؤوسها من الامطار بالجرائد ، كما كنت افعل في ايام الحاجة . اما أنا فكان كل تفكيري ان هذا الوحل الذي يخوضه اوتوموبيلي سيضطرني الى غسله وتشحيمه في اليوم الثاني — اربعة دولارات ... اربعة دولارات ... اربعة

دولارات ... وأرى الناس في مداخـــل البنايات تنتظر انقطاع المطر ، فاذكر يوم كنت اقف بينهم موجعاً ،فاغسل روحي بصلاة خاشعة طالبة السعة ، او شتيمة رأسبيروتية تلعن الفقر . اما الآن، اربعة دولارات ... اربعة دولارات ...

« وبلغت البيت وجلست الى العشاء ، واتفق ان زلّت القدم بالخادمة ،فوقعت و كسر الصحن الذي كانت تحمله،فنظرت الى القطع تنتشر على الارض ، وتألمت كأنها كسرات من أضلعي .

« ثم آويت الى مضجعي ،وما ان غفوت حتى حلمت كأني أرى « المكاري » يأتيه موزع البريد في مكتبه الحقير في بيروت فيدفع اليه برسالتي ،فيأخذها « المكاري » فرحاً ويفضها نشوان ، ثم يرى الحوالة بعشرة دولارات فيبهت وجهه ويتطلع بي – كأننا ما برحنا غلامين في زمن الدراسة ،ويبتسم عاتباً « – لا تكفي يا معـاز . لا تكفي يا معاز» .وعزّ النوم فأرقت الليل كله ، وفي مطلع الفجر هيأت قهوتي ولبست ثيابي، وفيما أنا أهم بالانصراف استفاقت زوجتي فسألتني :« شممت رائحة القهوة في الليل. ما هي ؟ قصـة، رواية ، ام مشروع تجاري؟» .قلت:«ان امامنا افراحاً كثيرة، وأياماً سعيدة فحين ارجع هذا المساء سنعود فقراء .»فشع وجهها وتنهدت قائلة : « ايمكن هذا ، أيمكن ؟ » قلت « سترين ! »

«ونزلت الى المكتب انتظر مجيء المستخدمين. وما ان ظهر امين الصندوق حتى سألته « هُوْسَا- كم رصيدنا في البنك؟ » ففتح هُوْسا الدفتر واجاب ١٩٤،٣١٢ دولاراً و١١ سنتيما» قلت:«اعمل بها تشاك بالمبلغ كله – وارسله تبرعاً للمعهد العربي الاميركي في نيويورك .

« – تبرّع ؟ »

« – تبرّع ! »

« وفيما هو يحضّر التشاك، شعرت بان ما يضطرب في احشائي قد استحال الى موجة من نار، غمرتني ثم تراجعت عني، ثم عادت الي، فوقفت عليها، وراحت تندفع بي صعداً، صعداً، الى مكان بعيد بعيد لاح كأنه جنة ربيع دائم. وتطلعت الي يميني فابصرت ملايين – اقول ملايين – البشر وقفت تصفق لي، عرفت بينها وجوهاً كثيرة، منها وجه المكاري وقد سمعته ينادي « برافو يا معاز ! برافو يا معاز ! » ورأيتك يابحار تحت ابطك غواصتك «نوتيلّوس» في حجم هذه الصرة التي هي الآن بين يديك تلوّح لي بقبعتك هذه البيضاء. ونشقت الهواء شذياً كنسيم صيدا في ابان ازدهار بساتين ليمونها، وسمعت الصنوج والطبول تقرعها قبائل البدو، والوفاً من المؤذنين ينشدون « الله اكبر »، وعمالقة تقرع اجراس الكنائس. ورأيت أبي نهض من ضريحه وتلفلف بعباءته الشتوية، وصاح بالناس: « هذا ابني ! هذا ابني ! ». وكذلك انتفض عمي الشاعر من قبره، وكان يتكلم العربية بلهجة مصرية، فتغنى: « دا كويس خالص ! دا كويس خالص ! ». ولاح قصرٌ تبينته، فاذا هو قلعة بعلبك وقد غطت حيطانها الازاهير الملونة من ورود وقرنفل وياسمين وزنابق، وقد وقف في مدخلها على أعالي الدرج، تحت قوس النصر، رجل قصير، كبير الانف، عبقري المظهر، تفرست به، فاذا هو خليل مطران في كهولته ينشد قصيدة ترحيبية، وقد اصطف خلفه ابو علي ملحم قاسم واولاد دندش باثوابهم العربية واسلحتهم الالمانية

يتوسطهم صلاح اللبابيدي ، تعلو رأسه برنيطة عالية سوداء .

واذا بهوسا امين الصندوق يوقظني من تلك الرؤيا ويدفع الي التشاك لأمضيه ويصيح : «سيدي! التشاك حاضر» .

ووقف جميل هائجاً صائحاً : « انظر. الآن تفهم لماذا لم اصافحك حين دخلت . جسّها ! جسّها ! » .

فتطلعت الى يده التي مدها نحو وجهي فاذا اصابعها الخمسة قد تكورت ، وجسستها فاذا هي صلبة جافة عديمة الحياة ، كقضبان حديد النافذة . وسَرت بسلسلتي الفقرية رعشة أوجعتني .

اخيراً سألت متلجلجاً : — « والطبيب ... ألمْ ... »

فضحك جميل ضحكة دامية وأجاب : « زرت كل اطباء المدينة ومشاهير الجيش والبحرية ، وطرت الى اميركا فتعهدني كبار الاخصائيين ، وقد جربوا الكهرباء والتمسيد والمراهم والسوائل ، ولم اعفّ عن المشعوذين فكتبوا لي الطلاسم ، والبسوني الحجاب ، وتوسّط لي عميلنا في نيويورك لدى الحكومة الاميركية ، فسهلوا لي الطيران الى همبورغ ، حيث كان بين الاسرى الالمانيين شيخ اطباء الاعصاب « هَرْد كتر شمت » ، وجيء بالدكتور الالماني في ثيابه المقلمة الزرقاء يحرسه جندي اميركي . وقدمني الضابط اليه بقوله : اني السيد سغبيني ، ومددت يدي نحوه فنظر اليها نظرة سريعة ، وضحك وتكلم هازئاً « هل خلق الله اناساً اشد بلهاً من الاميركان ؟ من غير ان تخبرني ان اسم هذا المخلوق سغبيني ، أفهم انه من صبيان موسوليني » . ثم تطلع بي من فوق قامته الجبارة ، وخاطبني كأني غلام دون العاشرة « كانت المعركة حامية يا بني . وكانت المدافع تقصف كالرعد .

وكان بين يديك بارودة تلك التي حملك اياها الدوتشي . وقال لك انك صرت جندياً . ولكنك لم تطلق البارودة يا بني ! » وشد ذقني شأن من يدلل طفلاً وقال : « يا حبيب امك ! » وتطلع الى الضابط : « قلت لكم ان لا تأتوني بمثل هؤلاء المرضى . نحن الالمان اخترعنا كل شيء ، ولكننا لم نخترع دواء يشفي من الجبن . لو كنا اخترعناه لاحتل حلفاؤنا قنال السويس ، ونشروا بيارقهم على ذروة « ألمبوس » ولكنت انتَ تلبس ردائي الازرق المقلم ، ولكانت تحيتـــك لي « هَيْل هتلر ! » ...

ورمقني الطبيب بنظرة ازدراء ، لو ان النظرات تقتل ، لكانت طحنتني هباء . وادار ظهره وانصرف .

*

وزفر جميل زفرة خِلتُ انه زفر معها روحه وتابع : « اني تعيس يا بحار ! اشعر اني ساكن ، كما ذكر قبطانكم في كتابه ، في جوار الشيطان ، في قعر بحر موحش بارد ، ولكني في الغواصة وحيد ، ليس لي رفاق . ان نفسي جفت وتصلبت وانطوت على نفسها مثل هذه الاصابع الميتة ! » .

وحملق في الزجاج السميك الذي يغطي طاولته ، وجحظت عيناه ، فتبعته بنظري ، فاذا هو محدق بالتشاك الذي تمدد تحت الزجاج — ذلك التشاك الذي جبن جميل أن يوقعه .

آلامُ الذِكرى

لم يبق من ذلك الصرح إلاّ درجاته الرخامية السبع، اما القصر فقد احرقته قنابل الطيارات، وذرّت رماده الرياح .

هنـــاك وقفت وصديقي «مخيبر كيروز» الفتى البشرّاوي الصّلب ، نُدير النظر فيما حولنا حيث تبعثرت الذكريات .

في سفح تلك الهضبة، حفرنا بايدينا النفق الذي كنا نهرع اليـه كلما ظهرت الطائرات القاتلة . انظر! فالفوهة لاتزال بادية. كم من يوم لبثنا ونساءنا واطفالنا قابعين في تلك الظلمة، وشظايا القنابـل تصفر من حوالينا ، والرعب يرجف قلوبنا . كم ضرعنا الى الله ان يبقي ولو واحداً منا حيّا ، يخـبرهم في لبنان كيف قضوا نحبهم ، اولئك الذين لن يعودوا . لقد ملأنا ذلك النفق صلوات ، ونحيباً وشتائم ،تلك هي الشجرة التي تفيأناها، كلما غابت الطائرات وانقطع هديرها . ألا ترى الشجرة يابسة مقصوفة ؟ اتذكر يوم هصرتهـــا الشظية ؟ الى يميننا في الجهـــة المقابلة ، حطام مخفر اليابانيين حيث اعتقلنا متهمين بالجاسوسية للأميركان . من كان يحسب حين وضع

الجاويش السنكة في صدر مخيبر ، وشدّ رفيقه بالمسدس على صدغي أننا سنخرج من ذلك المخفر سالمين ؟ أدِر عينك الى القمة المحاذية ، ألا ترى خراب الدّير حيث احتمينا اسبوعاً ، ظناً بان الطيارات لن تهتك حرمة المعبد؟ من ينسى تلك الظهيرة، اذ حوّمت الطيارات المزدوجة الجسد، وانهالت على الدير بصوب من الرصاص ، فقتلت الفتى الاسبنيولي في ساحة الدير ؟... صدق العرب ! ليس اشجع من امرأة ! كنا رجالاً يربو عـلى المئتين عددنا . فمن جسر على ان يخرج من مخبئه في البناية الحجرية الى الساحـة ، حيث صرع الفتى الاسبنيولي ؟ من قفز الى الخارج اذ كانت الطيارات تحوم وتصب الرصاص عـلى الساحة الاّ ام الفتى المقتول ! ها هي راكعة الى جانب ولدها ، ناحبة جافة العينين . لقد جسّت نبضه وتحققت من موته . تطلعْ اليها وقد شخصت الى السماء وهزّت قبضتها في وجه الطيار . ترى ما نطقت به تلك الثكلى في تلك الساعة ؟ من سمع ؟ من يدري ؟ من يأبه ؟

لبثنا في اسفل البناية ، شجاعنا يهديء روع النساء ، وسائرنا في بَلَه ، او هستيريا ، او غارق في صلاة ...

أجِلْ طرفك في البناية التي تلاصق الدير ... بلى ، تلك الدار المتهدمة ، المشوهة السوداء ، ألا ترى أربـع راهبات قتيلات في الممر ؟ هنا رأس ، وهناك رئتان ومصارين ، وعين التصقت بحائط الغرفة الخارجي ، حيث خبأنا مؤونتنا. كيف تراكضنا قافزين فوق جثث الراهبات نختطف اكياس مؤونتنا وحقائب ثيابنا . وعلام نبتعد بانظارنا ؟ — هنـــا حيث تقف عتبة قصر « اركوس » —

الكهل الاسبنيولي المرح ، كم اتينا اليه في العشيّات ، فما ان ندنو من بوابة الحديقة، حتى يتراكض اولاده الثلاثة ، طفلته « كرمن » في السابعة من العمر ، ترحب بنا ووراءها كلبها « برنس » يبصبص بذيله وينبح متأهلا ، وابناه التوأمان « رمون » يصيح بالخادمة ان هيئي القهوة للمواطنين ، « وهوان » ينادي أباه اننا اتينا . ويوم عيد ميلاد « اركوس » ، كم افرغنا من زجاجة ، وحلمنا بسعادة . كم غنى لنا « اركوس » بصوته الفخم الهدّار وزوجته ترافقه موّقعة على البيانو :

« اوّاه ما ابعدك يا ارض اسبانيا !
آه ما اقسى الغربة عن ربوعك !
اني لاعجب ان ابقى حياً وانا مغترب عنكِ
غير ان قلبي ومشاعري
لا تزال هناك
هناك حيث ولدت — في ارض اسبانيا »

وليلة أقمنا جمعية « بوكر » صخابة . « واركوس » في يده اربع « بنات » وفي يدي اربعة « ملوك » ، وطفقنا نتزايد ، فلما دفع بكل ما امامه الى الصحن ، انتزع بنطلونه ووضعه على الطاولة ، وحين رأى الاربعة « الملوك » في يدي ، دار بوجهه الى الغابة خاطبا « الا اشهدي يا باسقات الاشجار ، ودوّني يا طيورها ، ان « اركوس » ما عرّى جسده عن بنطلونه لو عرف انه في حضرة ملوك أربعة ! »

ويوم انتثرنا وهجرنا البلدة الى الاحراج ، كيف جاء

« اركوس » يودعنا باكيا ، وكيف فر الى « مانيلا » واختبأ في احد بيوتها ، وكيف جاءه اليابانيون فاقفلوا الابواب عليه ، وعلى عائلته وكلبه ، وكيف رشوا الزيت واشعلوا النار ، فلم يظهر بعدئذ في رماد تلك العائلة الا سن « اركوس » الذهبية .

وها انا ومخيبر على الدرجات الرخامية السبع نتذكر ! وايام الجوع ، حينما نغلي اوراق البطاطا البرّية ، ونحسوها شوربا ؟ وحين طاردنا ذلك الديك اربعة كيلومترات حتى ظفرنا به؟ وكيف عشنا على الرز المسلوق طوال شهرين ، لا قهوة ، ولا سكر ، ولا دخان ، ولا شيء نأكله ، الا الخوف والجوع والرز المسلوق وبعض الاعشاب ؟ !

ومخيبر كيروز ، هذا الواقف الى جانبي ، من ينسى إقدامه اذ سمع صياح جارة له عجوز تستغيث من منزل اشتعلت فيه النيران ، كيف قحم السّعير ، واحتمل العجوز وقفز بها من النافذه فلما هنأوه على شجاعته ، اجاب متواضعاً :

— ظننتها صبية !

وقفت على تلك الدرجات استعرض الماضي المروّع ، فلا اشعر بغصة ، وأصغي الى قلبي فلا اسمع خفقانه ، والمس عيني فلا دموع . هل حجرت المآسي عواطفي ، حتى لأقف على اطلال منزل الصديق الحبيب الذي مات وعائلته حريقاً فلا اتأثر ؟ لقد مضى عام على تلك الفواجع ، فمتى تمتصها مشاعري وترسب في قلبي وتطفو على احساسي؟ متى احدّث الناس بهذه الحكايات ، ان لم إحدثهم بها اليوم؟ ولئن لم تملك الاحزان نفسي ، فلم لايهزها زهو الظفر ؟ — فهؤلاء

اليابانيون القتلة الطغاة هم يعضون التراب ، وها نحن ننعم بالحرية نفعل ما نشاء ونصيح بما نريد . ولقد اتخمنا اكل الدجاج حتى اذا رأيت دجاجة هربت منها . وها هي سيارتي ذات الثمانية سلندرات تلمع على جانب الطريق ، مذيعة ان ايام فقري تولت . فمـــا بالي لايهزني الفرح ؟ احقاً ان عذاب الاماني تبقى عذاباً حتى تتحقق فتفسد؟ هل انقلبت عاطفتي الى جماد ، فلا ذكرى الاوجاع تهزها ، ولا نشوة الفوز تسكرها ؟ ربّ يسّر لي دمعة اذرفها او خفقة في قلبي ، تثبت لي اني لا ازال حياً !

ولقد تاهت بي التأملات فغفلت ان مخيبر لايزال هناك قريباً مني ، فايقظني صوته مخاطباً :

— سعيد !

« نعم » اجبت . وتطلعت اليه فاذا هو غير الفتى الذي عرفته لدقائق خلت .

يمرّ على الانسان في حياته لحظات ، يبدو فيها اكبر من الدنيا . هكذا ظهر في تلك اللمحة مخيبر كيروز ، فقد طغى على محيّاه نور سماويّ ، وتنهد فاشرأب صدره الفسيح ، وتاهت نظراته كأنـه نبيٌ يسمع وحياً .

— سعيد ... لو انّ « اركوس » حي !

شكراً لك ربي ! ان الكلمة الكبرى التي خرست عنها سينطق بها رفيقي . هذا مخيبر ابن « ارز الرب »؟ابن « بشراي » ، مواطن جبران خليل جبران . هذا فتى الفطرة الذي لم تفسده الثقافة . انه ليفوه بكلمة اكبر من هذه الهضبة التي نحن عليها .

وومضت اذ ذاك في سريرتي فكرة تمرّ بخاطر كل من تطبع كلماته ـ سأظفر بعبارة استحلّها في مقالة او رواية .

« لو ان اركوس حيّ » ! هذه شطرة شعر ، بل مطلع اغنية .

ففتحت عينيّ واصغيت باذنيّ الاثنتين :

ـ اجل يا مخيبر « لو ان اركوس حيّ ! »

فشع ذلك النور السماويّ على وجهه من جديـــد ، وسطعت عيناه وقال :

ـ لو ان اركوس حيّ ، لكنّا ركّبنا الليلة طاولة بوكر! ...

لعنة كتاب

قعدت الى كأس الوسكي اتجرّعها كريهة ، كأني ابلع كذبة صهيونية .

وقد كنت يقظاً متوتّر الانتباه، كمن هو في بحران رؤيا، تزخر في عروقه قهوة عدنية ، وتعمم رأسه ثلوج من قمة « جبل الشيخ » في أصقع ليالي زمهريره .

ففي تلك الحانة جلست، اسمع التاريخ وأراه — التاريخ حياً ، صخابا ، فتاكا ، مضحكا ، مريعاً ، متهتكا ، خليعاً ، كما لم تعلّمني اياه الكتب واساتذة الجامعات ، وكما لم يصوّره خيالي .

فهذه الحانة حيث الوسكي ردىء، والخادمات بغيّات ، والزبائن غوغاء، من بحارة وجنود ، هي في اطراف شمالي مدينة « مانيلا » . وفيما نحن نحتسي الوسكي، والبغايا يقتعدن احضان الزبائن ، وآلات الموسيقى تزفر ، وتلهث ، وتطبّل — كانت المعركة - معركة مانيلا — على اشدّ احتدامها . هـــذه سيارات الجيش وكميوناته ترمح من امامنا مثقلة جنوداً وعتاداً . هذه هي الطيارات تحوم فوق

مراكز اليابانيين وترميهم بالموت المتفجر ، وهـــذه هي المدافع الاميركية تبصق الف قذيفة كلما ازّت من الجبهة اليابانية قذيفة واحدة . ولو ان احداً مشى بضع مئات من الخطوات جنوبا ، لرأى اليابانيين المحـــاصرين ، ذوي العيون الكلبة ، والوجوه الحيوانية ، ولسمع حيناً بعد حين هجمات شرذماتهم تحدوهم شجاعة بهيميّة يصرخون صرخات الوحوش الجريحة الكاسرة .

وكان كلما انفتح باب الخمّارة، ظهر لي مشهد جديد، فهـــذا بحري يقاتل بحرياً ، وهذا جندي سكران يفترش القناة ، وهذه فتاة اميركية من الملتحقـــات بالجيش تريد ان تبادل معجون الاسنان وقنينة الكولونيا بمصنوعات « مانيلا » من زنانير قش ، واحذية خشبية . وذاك غليظ يترصّدك ليروي لك للمرة العاشرة انباء غماره في هـــذه الحرب ، وخسائره فيها . ومرّ بائع جرائد فابتعت منه صحيفة الجيش، فاذا فيها ان كل شمالي «مانيلا» اصبحت في ايدي الاميركان ، وان اليـــابانيين في تراجعهم نسفوا الجسور الثلاثة التي تصل شمالي المدينة بجنوبها فوق نهر « الباسغ » ، وان الجسر الرابع سليم ، اذ ان اليابانيين ابقوه خشية ان تنقطع المياه عنهم ، وهي تمرّ بقسطل فوق الجسر ، وان القيادة العامة الاميركية في حيرة ، اذ لو قذفوا الجسر بالمتفجرات ، فقد ينقطع الماء عن الاهالي الذين لايزالون في المنطقة اليابانية ، وان اليابانيين يستميتون في الدفاع عن الجسر ، فكلما قتل منهم جنديّ ، ظهر جندي يجعل من جثة رفيقه متراساً للدفاع .

اما أنا فلم تهزّني هذه المشاهد ، ولم يرعبني قصف المدافع ، ولم

اكن بالناظر الى هذا التاريخ الذي يهدر حولي نظرة الفيلسوف ، بل ان افكاري ومشاعري وقلقي كانت متوثبة يقظة ،اتساءل عن ابراهيم جوهر ، ترى أسليم هو ام ... أم ... كلمة كلما تخيلتها طلبت كأساً من الوسكي من جديد .

وكيف لا اقلق على ابراهيم جوهر ، وهو عشيري ، وشريبي ، ومساكني خلال خمسة عشر عاماً ، وقد افترقنا لاسبوع خلا ، في الجبال ، اذ يمّم هو سراديب معادن الذهب للاختباء فيها ، وقصدت انا الى الاحراج . وهذه جيوش الاميركان قد حرّرتنا واتت بنا الى « مانيلا » ، واليوم قيل لنا ان الجيش احتلّ مناجم الذهب ، وان كميونات الانقاذ ستأتي بالاجانب الاحياء الى « مانيلا » ، وقد دفنت القتلى منهم — وهم كثيرون — حيث وجدتهم .

حقاً اننا لانفهم كم هو شغفنا بشخص ما حتى نفقده ، او نخشى ان نفقده .

ونهضت من مقعدي ، وعبرت الطريق الى المخفر حيث انتصب الخفير الاميركي ، فسألته للمرة العشرين ،متى تصل كميونات الانقاذ؟ فابتسم وداعب بارودته قائلاً : « لئن سألتني مرة ثانيـــة لاطلقن عليك الرصاص! قلت لك تصل الكميونات الساعة الثامنة عشرة ». وهذه الساعة العسكرية في لغة المدنيين تعني الساعة السادسة بعـد الظهر اي قبيل الغروب بساعة ، اي بعد دقائق .

فوقفتُ امام المخفر وما طال انتظـاري ، حتى اقبلت كميونات الانقاذ ، تحرس مقدّمتها ومؤخرتها سيارتان مصفحتان ، وهدأت امام المخفر ، وراح ركابها يثبون منها فرحين ، وكان كلما قفز شخص من

كميون ، قفز قلبي من بين اضلاعي، وطفقت اتفرّس بمن ترجّل من الكميون علّه يكون ابرهيم .

وابتدأت الكميونات تسير وقد خلت من ركابها ، منصرفة من امام المخفر ، واحسست بالخوف واليأس يشلان ركبتيّ ، وقد بردت يداي ، وشعرت بظمأ الى الوسكي شديد ، وتماوجت الابنية والشارع في نظري ، وكادت السيارة التي تخفر مؤخرة القافلة تلطمني، اذ امتدّت منها يد امسكت بكتفي ، وصاح منها صوت باسمي ،ففركت عيني،وتثبتّ ان الجالس الى يمين السائق في الثوب العسكريّ الاخضر هو ابرهيم .

وانحدر ابرهيم من السيارة متمهلاً لم يثب ، وسلّم عليّ سلاماً عادياً غير حارّ ، وتمعنته فلم أبصر في عينيه تلك النار المشعة التي عهدتها ، ولم اسمع في صوته تلك النبرة المتوثبة الحارّة التي اشتقت الى صداها ، وحقاً لقد تنكر عليّ ، ونحن ما افترقنا الا منذ اسبوع ، حتى لوجدت فيه كل شيء تغيّر ، الا ذلك الكتاب الاحمر الذي تأبطه « بحاني الادب» ، وكان يسمّيه انجيله وقرآنه وتلموده. وعرّفني الى رفيقه الفتى الاميركي الضابط – ماجور اندرسون ، وراح يناديه باسمه « هري » عاريـاً عن اللقب ، ومشى بنا الى الخمارة في دعوة توهمت انها شبه امر .

وحقاً لقد شعرت بالخيبة في لقاء ابرهيم ، ولكني لست من الذين يطّرحون جواهر الامور لفشل في ظواهرها ، فابرهيم جوهر هو خليلي وصفيي لخمسة عشر عاماً ، وها هو قد نجا من الموت والمخاطر ، وما عليه إن كان فاتراً في سلامه وهذه الحرب قد صيّرت من

العقلاء مجانين ، ومن الاذكياء بلهاء او قلقين . هي بادرة عارضة . فلنشرب هذه الوسكي، فسيصبح طعمها الآن مسكراً لذيذاً .

وجلسنا الى طاولة فغمز ابرهيم احـــدى البنات ، ودعاها الى مجالسة الماجور بقوله : « عليك بهذا الاميركي . انـــه فتى جندي عطشان جائع » . والتفت الى الماجور وقال : « فيما انت يا هري تتصابى،اسمح لي ان احدّث مواطني هذا بلغتنا الغجرية» . فرجفت مشمئزاً .متى كان ابرهيم وسيط البغايا ، وكيف يدعوني بـ«مواطن» وهو ما قدّمني الى الناس الا مداعباً « اكبر اعدائي »، « وريثي » « ابن عمي » ، « اعظم مصـــائبي » ؟ وكيف يقول ان لغتنا هي « الغجرية » ، وهو ما تكلم عن العربية الا بصوت مرتجف وصدر بارز فخور ؟

وبلعت كأس الوسكي جرعة واحدة ، اذ اخذ ابرهيم جوهر يخطب بي :

— اولا (قال ابرهيم واضعاً سبابته بين عينيّ) سأحرق هـذا الكتاب « مجاني الادب » . اتذكر راجي الراعي ؟

— نعم اذكره .

— اتذكر ما كنا نقرأ من كتاباته — ما عنوانها ؟

— قطرات ندى .

— مضبوط . اتذكر قوله « العقل جنون هادىء ؟» لقد كنت انا خلال هذه الخمس عشرة سنة في جنون هادىء . ولقد ايقظتني من هذياني الجنوني كهربائية هزات هذه الحرب . ما كان اغباني !. لقد نزلت الى سوق التجارة متسلحاً بـ « مجاني الادب » . ما هي هـذه

العادات البدوية التي استعبدتنا : الوفاء ، الشهامة ، الكرم ، العفو الضيافة ، العطاء - ما هـــذا الدستور الملائكي الذي حاولت تنفيذه في عالم الشياطين؟ وقبل ان انسى - لئن رجعت الى لبنان قبلي، فتش عن ضريح المعلم عباس . هل لك ان توليني منّة وتبول عليه ؟

وقهقهه ابرهيم ونادى الغلام ان يملأ كؤوس الوسكي من جديد . ثمّ عاد الى الكلام :

« إصغ الى هذه المدافع التي تقصف حولنا . لعلك تحسب انها حرب هذه التي نشهد ونسمع ! ما هي بحرب . هي تجارة . الحرب والسلم ، والدين ، والعلم كلها تجارات . هكذا قال لي رفيقي هذا هَري الاميركي. تراك هل عرفت من هو ؟ هو بطل « جواد الكنال» على صدره شارة اعظم نيشان . المجلة الاميركية التي نشرت خبر بطولته دفعت له خمسة وعشرين الف دولار ، وباعت اربعة ملايين نسخة من ذلك العدد الذي روى انباء غماره . هوليوود دعته الى صنع صورة . اتدري ما قال لي ؟ قال لي انه يحارب ويتاجر معاً ! يبيع من بضاعة الجيش . لعلك تحسبها سرقـــة ؟ ما ابلهك ! بيع بضاعة الجيش هي سرقة في عرفك وعرف « مجاني الادب » والمعلم عباس . أما هؤلاء الاذكياء مثل ميجور اندرسون فيحسبونهـــا تجارة . انا من الآن وصاعداً تاجر . أفهمت ؟

وكانت الحمرة قد دارت في رأسه، فانتزع علبة الكبريت من جيبه، واولع عودة فادناها الى كتاب « مجاني الادب » يريد احراقـــه ، فاختطفته منه وقلت: «اعطني اياه . مكتبتي احترقت واريـــد ان

احتفظ به فيكون عندي ولو كتاب عربي واحد . »فضحك ابرهيم وقال : « عجباً !هل فرغت من نهب اللغات الافرنجيـــة حتى تبدأ بسرقة الكتب العربية ؟ لا بأس فالكتابة تجارة. لئن كانت بضاعة الجيش حلالا ، فحلالٌ بضائع المؤلفين . هاك « مجاني الادب ».

وقبل ان تمكن من الرد عليه مشمئزاً ، اسرع الى طاولتنا جندي،فأدى التحية العسكرية الى الماجور اندرسون، وناوله كتاباً مختوماً بالشمع الأحمر،فابتسم اندرسون وصرف الرسول بهزة رأس بعد ان شكره . وصرف الانثى التي كانت على ركبته بان دسّ في يدها دولارين . وفتح الغلاف وقرأ الرسالة ، ثم همس باذن ابرهيم بحيث اسمع : « هل لي ان ائتمن صديقك هـذا ؟ » أجاب ابرهيم: « يمكنك » . فقرأ الماجور في الرسالة ان قيادة الجبهة قد وافقت على الخطة التي اقترحتها » : تجدامام مخفر المنكوبين اربعة كميونات ، وخمسة قوارب ، و٨٤جندياً ، وعتاداً من القذائف اليدوية . هاجم حال استلامك هذه الرسالة،وعليك ان تحتله بسرعة فتكون مع رجالك في الجبهة المقابلة من الجسر قبل ان تظلم الدنيا ، بحيث تتمكن قواتنا من عبور الجسر قبل العتمة . افهم جنودك ان هـــذه العملية هي فدائية ، فخيّر اياً اراد منهم بين الاشتراك بها او العدول عنها »

وابتسم الماجور فرحاً وراح يهزأ « قلت لـــك يا ابرهيم ان الجنرال غبي . صار له اسبوعان يهاجم الجسر من الامام . خطتي ان نركب هذه القوارب في اعلى النهر،وننساب مع التيار حتى نبتعد خمسين متراً شرقي الجسر ونهاجم اليابانيين من هناك . فبعد ان نمزق اجسامهم بالقذائف اليدوية،نقرفص على جنوبي الجسر ونرسل

دعوة لجنرالنا الابله ان يشرفنا بزيارة » .

وفيما كان الماجور يتكلم ، دفع الي ابرهيم باوراق صغيرة طبع اسم الخمارة عليها مرفقاً بأرقام وقال: «ادفع أنت عن نفسك، وأنا أدفع عني وعن هَري لانه ضيفي » .

وخرجنا نحن الثلاثة الى حيث الكميونات، وحولها الجنود فوقف فيهم اندرسون خاطباً بلهجة عادية وصوت منخفض : « ايها الغلمان ! في جيبي امر بان نعصف بالجسر الرابع فنحتله بعد ان نرسل الى جهنم كل ابن قحبة يابابي يحرسه . حين تشع الانوار هذه الليلة ، قليلون منا من يمسي راقصاً في هذه الحانة، اذ ان اكثرنا يكون إما طائفاً على مياه « الباسغ » نحو اسماك البحر ، او مفترشاً بقعة قرب الجسر في راحة ابدية . على انكم غير مرغمين على المساهمة في هذه النزهة . أي سعدان منكم اراد ان يتخلف، فليفتح فمه ولينطق بكلمة، فاستبدل به قرداً ثانياً من معسكرنا !» . ولبث يردد العبارة الاخيرة بضع مرات فلم يجبه احد ، حتى تنطّع فتى امرد فخاطب رفاقه « الظاهر ان ضابطنا الماجور اندرسون لا يحب وجوهنا ولا يستطيب مرافقتنا . ما قولكم لو سألنا الجنرال ان يرسل لنا ضابطاً آخر ؟ » فقهقه الجميع وطفقوا يقفزون الى الكميونات . اما الماجور فاعطى ابرهيم صورة زوجته وابنه وهمس باذنه « هذا عنوان بيتي في كاليفورنيا . لئن رجعت اليك، فلك حمل كميوني بضاعة بالفي دولار ، ولئن بقيت هناك فزر زوجتي وردّ لها هذه الصورة واخبرها انك اجتمعت بي. »

ووقفت اتطلع الى الكميونات تسير كأنما ركابها جماعة عمال في

طريقهم الى مصنع ، او تلامذة قاصدون الى نزهة ، أو مسافرون ينتقلون من مدينة الى مدينة . اين ذلك مما طبع في مخيلتي عن زيد الهلالي وعنترة العبسي وسلطان الاطرش وعوده ابو تايه ، وما رسمته في خاطري تلغرافات الحرب عن الفروسية في الحروب ؟

وحين غابت الكميونات مشيت وابرهيم الى « مخيم اللاجئين » ، حيث كانت خيمتي نمرو٢٧،وقصدنا مكتب المخيم،فسجل ابرهيم اسمه وتناول بطاقة تخصيصاته ، ثم دلفنا الى العنبر ، فتناول منه سريره وحرامه، وبعض البسة ومعدات وذهبنا الى خيمته – نمرو ٧٨،فمد سريره وقعدنا صامتين .

من المؤلم ان تجالس شخصاً ، كتفـــه الى كتفك ، وبينكما صحارى الدنيا وبحارها ، وان تكون بالقرب منه بحيث يستطيع ان يسمع همسك ولا تتكلمان . ولقد قعدت ازاء ابرهيم على حافة سريره صامتاً يقتتل شعوري وتفكيري . اريد ان اكره نفسي على بغض صديقي فلا اقوى . اذ كلما ثرت على مجونه الوقح ، وتهافته على المال ، ولهجته الشرسة ، ذكرته لاسبوع مضى ، كيف كان خلاّ حبيباً مرحاً يحتقر المال ، ويستشهد بحكايات « مجاني الادب » ويعبد المكرمات . ثم أدور على نفسي فاجد في الحرب واهوالهـا عذراً لتغير فيه أردت ان احسبه عارضاً . واني فيما أهمّ بان ابغضه كنت معجباً بحرارة الايمان فيه ، فنفس المرء تبقى ميتة حتى يملأها الايمان فتتكهرب وتحيا وتثير الخضوع في الناس وان يكن ايمانهـا بمعبود مرذول .

وصرخت بعد حين صفارة المخيم تدعونا الى العشاء ، فهززت عني

افكاري ، والتقطت صحوني المعدنية ، ومشيت وابرهيم الى حيث الطعام ، فوقفنا في صف طويل نسمع المدافع وازيز الرصاص ، والى القرب منا مجهر المخيم الصوتي ينطلق منه صوت نسائي باغنية قديمة :

« تراك تحبني في شتاء العمر
مثلما احببتني في نوّاره »

وحين جاء دورنا ملأنا الصحون وقفلنا راجعين نحو الخيمة ، وما عادت نفسي تصبر على هذا الصمت الذي ضيّق عليها فقلت ، متعمداً فتح المحادثة : « هل لاحظت الرجل الذي كان امامي في الصف ؟ هو مدير بنك الناشيونال سيتي ، وان الصيني الذي يحاذيه كان خادماً في مقهى « الكلوب » قبل الحرب . سبحان الله ! الاميركان يهوننا الطعام ويساوون بين مواطنهم الذي يرأس مصرفاً ، والغريب عنهم الذي يخدم في مطعم » فتقززت نفس صديقي وصرخ بي : « هل لاحظت ان فلسفاتك غليظة ، وان لعنة كتاب « مجاني الادب » التي ركبتني قبل الحرب تثقل الان رقبتك ؟... اسمع »

وجمدنا كلانا اذ انقطعت اغنية « تراك تحبني ... » وخرج من المجهر صوت عسكري : « إن القيادة العامة في جبهة « مانيلا » تذيع ان الجسر الاخير الذي يربط شمالي المدينة بجنوبها هو في ايدينا منذ ربع ساعة ، ولقد خسرنا في القتال حوله ٣٨ رجلاً ، بينهم الماجور هري اندرسون بطل « جواد الكنال » الذي قاد الهجوم . هذا كل شيء » .

ورجع الصوت النسائي يغني :

« تراك تحبني في شتاء العمر
مثلما أحببتني في نوّاره »

وجثمنا كلانا في خيمتي والصحون ملأى بالطعام ، لا نمد اليها ايدينا ، غارقين في التفكير ، وفجأة انتفض ابرهيم جوهر وانتزع صورة الماجور وطفله من جيبه فمزّقها وداسها وصاح شبه مجنون : « لعن الله اندرسون . بقي في الجيش ثلاث سنين يقاتل . اما انتقى ساعة يُقتل فيها الا قبل ان يسلمني حمل الكميونين بضاعة ؟! » . ومشى من خيمتي فرحت اتطلع الى قامته المبتعدة احمد الله ان ليس قربي مسدس او بارودة ، واحدث نفسي : « حبذا لو لم يرجع ابرهيم جعفر مع قافلة اللاجئين . حبّذا لو انه دفن شريفاً حبيباً في سراديب معادن الذهب ! »

وحين غاب عن عيني تمنيت ان يبقى غائباً عني ، ما حييت .

أخيراً خضع الحيوان الياباني للعلم الاميركي ، فسكنت المتفجرات وانقطع أزيز الرصاص ، وقلّت في شوارع « مانيلا » وجوه الاميركيين الباسمة ، وابتدأت كوم الدمار من حجارة وحديد تختفي ، وصارت البنايات تنهض هنا وهناك ، وانا خلال ذلك دائب في اعمالي المتواضعة ، اشتري من هنا وابيع هناك ، وارجع في المساء الى غرفتي حيث اعيش وحيداً تؤنسني احلامي وذكرياتي ، وقد اقنعتُ نفسي ان ابرهيم جوهر مات على الرغم من اني كنت ارى صورته في الجرائد احياناً واقرأ فيها انباء حفلات اقامها او دعي اليها ، وانظر الى صورته في الصحف صاعداً الى طائرة او مترجلاً منها ، فلقد امسى من الواضح ان الرجل قد

صاب في الحياة نجاحاً واصبح ممن يسمّونهم علية القوم .

اسابيع . شهور . سنة . سنتان .

الى ان جاء صباح يوم فيما انا اذرع الطريق قاصداً اسواق البلدة حيث أصطاد قوتي ، واذا بسيارة ذات ١٢ سيلندر خضراء فخمة لماعة حاذتني متمهلة ووقفت ونزل منها من ناداني باسمي ، ومدّ ابرهيم يده اليّ وصاح : « ضعها هنا ، وقل لي انك غفرت لي » . فوضعت يدي في يده البضة المترهلة وصافحته كأني اصافح شبحاً ، ونظرت اليه فاذا هو قد بدن وتراخى وظهر لاول وهلة متخنثاً او كممثلي هوليوود ، على رأسه برنيطة خضراء شكّ في شريطتها ريشة حمراء ، يعلو شفته شارب قصير ثائر ، ويلفلف بدينَ جسمه طقمٌ خمري ، ويتدلى من جيب سترته منديل احمر ، تجاوره زهرة من القرنفل ، وشدت الى رسغه ساعة شفافة ، ودار حول وسطه الضخم زنار ابيض ينتهي ببكلة ذهبية حفر عليها اسمه ، وتختبيء قدماه في حذاء مثلث الالوان .

« اما غفرت لي ؟ » صاح ابرهيم « أدخل الاوتوموبيل فانا في حاجة اليك . لم يكن اجتماعي بك صدفة فانا جادٌ في طلبك منذ حين . اني في حاجة الى مساعدتك » فتبسمت وتطلعت الى تلك السيارة واجبت مستغرباً : « انت في حاجة الى مساعدتي انا ؟ دعني وشأني . اني احب رياضة المشي » . قال متضرعاً : « لا تكن حقوداً » . وما زال بي حتى ادخلني سيارته وركضت بنا الى بناية عرفت مما كتب على رتاجها انها « مكتب مخلفات الجيش الاميركي » ، وسار ابرهيم متأبطاً رزمة صغيرة ، فتبعته وشعرت حينما صرنا في داخل البناية

ان رفيقي ذو شأن ، اذ رأيت كل من مرّ به يحييه تحيـة تواضع ، او خشية ، او دعابة . كذلك سمعت بعضهم يدعوه « الجـنرال » فسألته ما معنى ذلك اللقب ، فضحك ابرهيم واجاب: « ان اعلى موظف في هذا المكتب هو في رتبة كولونيل . ويسمونني جنرالا اعتقاداً منهم اني اعظم شأناً من عريفهم ! »

وفيما هو يشرح لي هذا ، اطلّت امرأة اميركيـة شقراء ، من الملتحقات بالجيش فعانقها صاحبي ، وبعد مطر من القبلات ناولهـا الرزمة وهنأها بعيد ميلادها ، ونزع زهرة القرنفل من عروة سترته وشكّها في صدر صاحبة العيد ، وإخالُني رأيته قد كبس باصابعه أعلى ثديهـا .

وكأنما ظهور الجنرال في ذلك المكتب كهربه وقد كان ناعساً ، فتحرك الضباط من وراء الطاولات ، وراح الكتبة يقلبون الدفاتر . وكان في الرواق جمع من التجار الصينيين فاقبلوا على ابرهيم ودار الهمس والغمز ، وتبادل الاوراق ، والعروض ، وابرهيم المحور الذي يدور حوله كل شيء . وقد اشتد الجدل حول طاولة جلس خلفهـا ضابط برتبة كبتن ، عديم شعر الرأس ، ناداه ابرهـيم « يا اقرع » فهرع هذا يتبعه تاجر صيني اعرف انـــه من اكـبر مستوردي المأكولات في المدينة . وبعد ان اشتد الجدل والتاجر الصيني يعترض بقوله « هذا كثير . هذا كثير » صرخ ابرهيم « طيب خمسون الفـاً . اقبلها او ارفضها » ونادى بي فخرجنا الى السيارة . وفيما نحن نفتح بابها لحق بنا الصيني باسماً فرمى بصرّة الى داخل الاوتوموبيل وقال: « طيب . هاك الخمسين ربحك . سلمني ورقة البيع » فناوله ابرهـيم

بعض صكوك وصاح بالسائق: «الى المكتب.»

وحينما صرنا في داخل المكتب عجبت لخلوّه من المستخدمين، ولحقارة شأنه وصغره. وكأنما قرأ ابرهيم افكاري فاوضح: «اني لا استخدم احداً اذ اني لا اريد اثنان احد.»

وفتل الزر الكهربائي فانتشر النور، وفتح ابرهيم الصندوق الحديدي الهائل الذي كاد يملأ المكتب. ثم احكم المفتاح في اسفله ودار به فانفرجت دفة عن رزم الاموال فرمى بالصرة التى اعطاه اياها الصيني، واقفل اسفل الصندوق الداخلي، وسلمني سائر مفاتيح الصندوق والمكتب قائلا: «اسمع. ليس في هذه البلدة من اثق به سواك. انا مسافر في الغد الى جبال «ايلوكوس» — اربع ساعات في الاوتوموبيل، وعشرون كيلومتراً مشياً. هناك سأثبت حقي بمعدن ذهب اعطاني خارطته ذلك الايرلندي «اوهارا»، هل تذكره؟ لقد اخبرتك انه مات في سراديب معادن الذهب، قتلته الزنطاريا. واعطاني هذه الخارطة فيما هو يحتضر، رحمه الله». وقهقه مرحاً: «سأبكر في المسير بعد منتصف الليل فنبلغ الجبل عند شروق الشمس. ونزرع العواميد، واسمي محفور عليها، في حدود تلك الارض. ثم ننحدر الى «سانتاماريا» قاعدة تلك المنطقة فنسجل الارض بعد ظهر الغد او صباح بعد غد. كل هذه السفرة لن تستغرق الا ثلاثة ايام. اما انت فاجلس وراء هذه الطاولة. ستأتيك مني اوراق كثيرة فاقبض وادفع بحسب الطلبات التي تحمل توقيعي. كل تجارتي ومعاملاتي هي باسم «مكحش وشركاهم».

قلت :«من اين لي ان ادفع واراك قد احتفظت بالمفتاح حيث المال ؟ فقهقه ثانية وقال : ستفهم كل شيء في الغد . ان التجارة هي في ان تقبض اكثر مما تدفع .» قلت :« وما معنى «مكحش وشركاهم»؟فعاد يضحك واجاب : « الا ترى الاميركان يخترعون الكلمات بأن يؤلفوا من اول حرف من عدة كلمات – كلمة جديدة واحدة ؟ « مكحش » هي اختصار « ما – اكثر – الحمير – وشركاهم » . مضحكة هاه ؟ ورجع يضحك من جديد .

وحينما ودعني رجع يتضرع من جديد : «اني في حاجة اليك » وقد اضاف هذه المرة:«ان حصتك من الربح هي خمسة الاف دولار في هذه الايام الثلاثة » .

في صباح اليوم التالي فتحت باب مكتب ابرهيم جوهر ،فشعرت كأني داخل قبراً ، فاسرعت الى النافذة ففتحتها على مصراعيها ، وانرت كل المصابيح الكهربائية وجلست وراء المكتب حائراً فيما افعل . وسرعان ما دخل عليّ زنجي اميركي متدلي الشفتين ، احمر العينين ،ضخم الاجفان ، فبادرني بالسلام قائلاً : « نهارك سعيد يا دوكتور » قلت:«ما انا بدكتور . من انت وما تريد ؟ » اجاب: « ايحرم على الانسان ان يتأدب بالقـــاء التحية ؟ انا عمّك جو ، جئتك بالمخمل . هذه شورباء العظام المباركة ، وهـــذه رغوة دم الملائكة » . ولقد سرت بي رعشة خوف وتطلعت الى الباب اقصد الفرار ، ولكني رأيت الزنجي بيني وبين المهرب .

وارسل الزنجي زفرة وصاح :« يا للبقرة المقدسة ! ان الازرار النحاسية غلا ثمنها »وكأن محدثي لحظ الرعب الذي حل بي، وعرف من

بلاهة نظراتي اني لم افهم ما يقول ،فزاد : « اخالك تجهل اللغة الاميركية . المخمل هو صافي الربح . العظام المباركة هي « الزهر » المزيف .» وانتزع من جيبه مكعبين من عظم ابيض ، واحد يحمل علامة الصفر على وجوهه الستة ،وآخر عليه ست نقاط في كل وجه . ثم تابع الزنجي شرحه القاموسي : « دم الملائكة » هو الخمور . الازرار النحاسية هي البوليس . يعني ان هاتين الصرتين تحتويان على الارباح الصافية ، في الليلة البارحة ، من طاولة الزهر ، وبيع الخمور ، بعد ان دفعنا للبوليس حصتهم التي ضخموها . وبعبارة ثانية ، هذه غلة النادي الاجتماعي الذى اديره انا ويملكه مواطنك ابرهيم . الى هناك هو يسوق الضباط الذين يرشوهم في النهار ، ونحن ننهبهم في الليل . » ورجع يضحك . ثم سلمني ورقة عليها بالعربية : « استلم من هذا اللص ذي الوجه العاجي ما يعطيكه من غلة النادي – ابرهيم » . وحين انصرف زائري وصار في الباب التفت إليّ متهكماً : « بخاطرك يا دوكتور » وغمزني مشيراً الى الفتاة الشقراء التي أقبلت عليّ في خطوات خفيفة ووجه صبوح وعاجلتني بتحية « صباح الخير » بصوت عالٍ شأن الاميركيات . فقد كانت تلك الفتاة صاحبة العيد امس ، وناولتني حالا ورقة من ابرهيم : « ادفع لهذه الشقراء مئتي دولار واقبض منها قبلتين او اكثر ». فدفعت لها المئتي دولار حالا فشكرتني مبتسمة سائلة : « أفي وسعي ان اقضي لك حاجة؟» فشكرتها واجبتها سلباً ، وخرجت كما اقبلت رشيقة ، تمشي على قدمين قويتين ، مرفوعة الرأس واسعة الخطى . وكرّ ذلك الشريط السينمائي امام عيني ، وصار الباب كالشاشة

البيضاء ، اتطلع اليه منتظرا ظهور كل غريبة. ولم يطل انتظاري حتى جاءني اميركي زريّ الثياب ،مشعث الشعر ، وناولني فاتورة ببيع من « مكتب مخلفات الجيش - الى مكحش وشركاهم » خمسة اطنان طحين فاسد لا تصلح للاستهلاك البشري. وهمس الاميركي في اذني :« ان كميونات السكر هنا » قلت : « ما تعني بكميونات السكر ؟ هذه فاتورة طحين فاسد » . قال مستغرباً : « ألا تفهم ؟ اشترينا الطحين الفاسد . ورشونا القائم على المستودع فسلمنا سكراً. ودفع اليّ بورقة ؟ « تلفن الى ٧٢ — ٢٤ وحينما يدفعون لك ٨٢ الف دولار سلمهم السكر - ابرهيم » .

وتلفنت وقبضت وسلّمت ،وقعدت في ذلك الكرسي الهث تعباً كأني اركض وعلى ظهري كيس من حجارة . ودار الشريط فاذا على الشاشة البيضاء صاحبنا الكبتن الاقرع يصافحني في مرح وظرف ويسألني عن القنبلة الذرية اين مكانها ، فكان جوابي ان فتحت فمي ووسعت حدقات عينيّ ، فمدّ يده الى جرّار في طاولتي قائلاً : « كانت هنا » وانتزع قنينة وسكي وكأسين فارغتين ملأهما واعطاني احداهما ، ثم مضى يقصّ عليّ تاريخ حياته من يوم خلق الى ان تخرّج من جامعة هرفرد الى ان تطوع في الجيش ، وجرح في « ايوجيما » ومنحوه رتبة كبتن والنيشان الفضي ، وجاء « مانيلا » مسرّحاً من خدمة الجيش ، غير أنه لمح في « مكتب مخلفات الجيش » ميداناً للتجارة ،وها هو يتعاون مع صديقي جعفر في الاتجار وكلاهما ناجح. فالكبتن في يده فضّ غلافات المزايدة .وهو بدلاً من ان يفضها في المكتب وعلى مشهد من التجار ، يأخذها الى غرفته ويطلع ابرهيم

عليها ، واي صفقة أعجبت ابرهيم زاد هذا عليها عشرة سنتيمات فاشتراها وانتهى الامر .

ولم يكن الكبتن في سرده اخبار المعارك التي خاضها متباهياً بل كان كغيره من الاميركان يهزأ بنفسه ويبالغ بوصف رعبه في المعركة . كذلك لم يكن في تحداثه عن « تجارته » مع ابرهيم حييّاً فقد كان يعتقد ان اشغاله تلك كانت اموراً مشروعة كانها تجارة عادية . وحينما فرغت الزجاجة فرغ الكبتن من احاديثه وناولني ورقة من ابرهيم تأمرني ان ادفع لحاملها ستة آلاف دولار ففعلت.

واستمر عقربا الساعة في بطء دبيبهما نحو الساعة الثانية عشرة اذ غمرت المكتب موجة من العطر فاسقة ، ورنّ في اذني طقطقة كعبين عاليين ، وابصرت برقعة من البودرة ، والحمرة ، والاهداب المكحلة فوق فسطان من الحرير يتماوج ضيّقاً على قامة هيفاء شهيّة وصوتاً يقول « هَلو » واصابع حمراء الاظافر تدفع لي ورقة : « ادفع لحاملها ثلاثمائة دولار – ابرهيم » وقد رسم ابرهيم تحت توقيعه رسم قرنين . وبعد ان عدّت الدولارات ، شكرتني ، بغمزة زانية ، ورددتُ عليها بنظرة بلهاء . وانصرفت ، واقفلت المكتب شاعراً كأنني خارج من كهف جناة ، او قطّاع طرق .

*

لن اروى لك حوادث الاربعة الايام التي تلت الصباح ، اذ انها كانت مشابهة لما قصصت – حيلة اثر حيلة ، ورشوة تتلو رشوة . وكذب وتزوير ، ورجال ونساء يدفعون ويقبضون ، والصندوق تتكدّس فيه اوراق المال حتى كاد يضيق بها ، وانا مفكر متبرم

بهذا الدور الذي ارغمني على لعبه ، حانق عليه ، متوعّد له ، أحاول أن أفهم لمَ ابطأ ابراهيم في عودتـــه وكيف زلقت انا الى قبول الاشتراك معه في هذه اللعبة الذميمة .

وقرأت التلغراف :

« صديقك ابرهيم في مستشفى سانتاماريا في خطر شديد يصرّ عليك ان تحضر حالاً .

الاب جورج هتكنسن »

*

غريبة عواطف الانسان كيف تسرع في تقلباتها بين المـــدّ والجزر . فمنذ هنيهات كنت ناقماً على ابرهيم مزدرياً لاعماله ، وهـا انا حين مرّ نظري عـلى ذلك التلغراف ذائب حنانـاً ، لا أذكر من صديقي إلا كل ما كان فيه من نبيل وجميل ، وكانما الخطر الذي هو فيه انا سببته ، فرحت اوبخ نفسي على خيانتي لصديقي واشجعهـــا « لا لن يموت ابرهيم . ساهرع اليه وادفع عنه الخطر . ساداعبـه واضحكه . سأريه كتاب « مجاني الادب » واسأله ان يتبرك به . ساذكره بكل ما مضى بنا من حوادث فكهة . سأشجعه بقولي : ان ان من نجا من اليابانيين والمدافع وقذائف الطيارات لن يصرعـه مرض في مستشفى . وركبت قطار الليل الى سانتاماريا متفائـلاً متحفزاً الى القتال كبدوي يهرع الى مخيم قبيلتـه اذ قيل له ان عدواً هاجمها .

وقفزت من القطار قبل ان يقف ، وطفقت امشي واركض الى المستشفى في ضاحية « سانتاماريا » . وفيما انا في منتصف الطريق

أطلت اشعة الشمس فبدّدت ما في نفسي من مخاوف ورحت اقترب من المستشفى والكنيسة بقلب مفعم بالرجاء .

حين دخلت الباحة التي تفصل الكنيسة عن المستشفى تقدم اليّ رجل الدين يلبس الثوب الاسود متمتماً صلاة ، وبين يديه الكتاب المقدس وتمعّن بي لحظة وسأل :

– انت صديقه يا بني ؟

– نعم يا ابتِ !

– لقد تأخرت يابني . جاءت النهاية منذ ساعة في مطلع الفجر . أنظر الى هاتين اليدين المجرمتين . لقد قتلته انا بيديّ . ربّ عفوك عن عبدك الخاطىء الضعيف ! ان صديقك جاءنا في الدير هناك في اعلى تلك الهضبة ، وقد كان منهوكاً اذ لم يستطع ان يقطع كل الطريق باوتوموبيله ، فالجسر خرّبه اليابانيون قبل ان ينسحبوا ، فاضطرّ صديقك لأن يمشي ورفاقه نحواً من اربعين كيلومتراً . ووصل مستر جوهر متعباً في اول الليل يغتسل بعرقه . لقد نام عندنا في تلك الليلة . ربّ عفوك عن معاصيّ . انت ترى ان الدير في أعلى الهضبة والبرد في الليل قارس ، وليس عندنا حرامات ، وحين دخلت غرفته في الصباح وجدته محموماً يهذي . داء الجنب في رئتيه الاثنتين . ان ديري فقير يا بني . لقد جهدت في جمع المال وحرثنا وزرعنا وبعنا محصول اراضينا . لقد حاولت ان اشتري حرامات لنا ولجيراننا ففشلت . أنظر ! وانتزع رجل الدين ورقة من بين صفحات الكتاب المقدس قرأت فيها :

«ان عرضك اربعة آلاف دولار ثمن الفي حرام مرفوض ، اذ

ان شركة « مكحش وشركاهم » عرضت عشرة سنتيمات زيادة بالحرام اي اربعة آلاف ومئتي دولار . المخلصون

مكتب مخلفات الجيش »

وفيا الأب يتضرّع الى الله من جديد ان يعفو عن خطيئاته ويتهم نفسه بجريمة قتل صديقي ، لخلوّ الدير من الحرامات ، أقبل دكتور المستشفى فعرّفني الكاهن اليه وسأله ان يسير بي الى غرفة الميت — نمرو ٨ . وقبل ان أدير ظهري سألني الاب :

— « مسألة الصلاة عليه — هل كان صديقك يؤمن بالكتاب الاحمر الذي تتأبطه ؟ »

اجبت :

— لقد آمن به ثم كفر يا ابتاه .

وماشيت الدكتور نحو غرفة ابرهيم ، استمع لذلك الطبيب يتكلم عن المريض الذي خسره غير آبهٍ كتاجر تعوّد أن يفرّ منه زبون حيناً بعد حين . وقبل ان نصل الى باب الغرفة اوقفني وقال : « كان من المؤكد نجاة صديقك لو ان عندنا « بناسلين » . في الشهر الماضي حاولت شراء ٥٠٠ زجاجة من مخلفات الجيش فخسرتها في المزايدة . شركة « مكحش وشركاهم » دفعت اكثر مني عشرة سنتيمات بالزجاجة . من هي هذه الشركة « مكحش » التي تشتري كل شيء ؟ »

*

وكشفت الشرشف الابيض عن وجه ابرهيم ، فبان وجهه المتضخم في لون الشمع ، وقد تراخى شارباه الثائران الى خطين مائعين ، ونبت الشعر في وجهه طويلاً بشعاً ، وشخصت عيناه

باهتتين كعيني سمكة . وتطلّعت الى خلفه فرأيت سترته معلقة ، معروكة ، في عروتها زهرة قرنفل يابسة ، وقد استوت فوق السترة برنيطته الموحلة وليس في شريطتها ريشة ، وتحتها حذاؤه وقد وحّدت الوحول ألوانه .

وبقيت وابرهيم وحيدين في تلك الغرفة المظلمة ، وليس معنا الا كتاب « مجاني الادب » يتأرجح في يدي وقد قبضت عليه بابهامي وسبابتي ، في المكان المحروق ، حيث أراد ابرهيم ان يولعه ويتلف لعنته .

الدّواة

جلستْ في تلك الغرفة المقفلة النوافذ خائفة ، حيّة ، وقد سكن كل ما حولها إلا نور سراج ضئيل يهتز شعاعه الباهت فتتراقص معه أخيلة بعض رياش الغرفة . وقد كانت الفتاة في وحشة ذلك الليل وحيدة على مقعد حريري أزرق مطرقة كأن تلك الورود التي زانت رأسها ثقلت عليه فحنته . وقد تماوجت العطور من حولها وانتثرت الازهار وتدلت برديات الدمقس ، وامتـــد السرير العريض ذو الوسادتين المتجاورتين يعلوه اللحاف المطرز . وكانت قدماها قلقتين بالحذاء الجديد الابيض اللماع ، تكثر من تقليبهما ، واظافرها برمة بالطلاء الاحمر الذي لم تعرفه قبل صباح ذلك اليوم ، فهي تتفرس بهـــا ثم تطبق يديها وتبسطهما ، وتهم بان تقرض اظافرها باسنانها فلا تفعل . وقد استقام خصرها النحيل تحت صدر نَمِرَ وتوثب جانباه ، وتصلب جيدها في عقد من اللؤلؤ المزيف ، وتنقب وجهها في طوفـة النور البهي الذي يغمر وجوه العذارى .

وأرهفت فتاتنا سمعها وجلة فلم تسمع إلا ضربات فؤادهـــا .

واصغت فاذا بصدى خافت يتسرق من خلال النوافذ المقفلة علمت منه ان الموسيقى لا تزال تعزف في الطابق الاسفل . وعبثاً حاولت ان تطرد عن اذنيها صدى مواعظ خالتها « ام عمر » التي ألقتها عليها والفتاة تستحم في فجر ذلك اليوم . وكانت تلك المواعظ خليطاً من الانذار والتشويق ووصفاً للذة الجنسية وألمها لو لم تطهر الفاظه لتبذّل . وكانت الفتاة تشعر بالدوار اذ ذعرت لسماع نحنحة خفيفة في الخارج ، وبان ظل فدخل الباب محترساً واقترب منها متمهلاً ملقياً في صوت ناعم مضطرب « مساء الخير !». ثم وقف الظل امامها وامتدت يده الى ذقنها ، وعاد الظل الى الكلام : « لماذا لا تنظرين اليّ يا رئيفة ؟ » فرفعت نظرها خجلة متمهلة وابصرت لاول مرّة وجه محمد الكرار — الزوج الذي انتقوه لها ، وابتسمت نشوى وقد فر الخوف من نفسها ، وانبسطت اسارير وجهها وطيات روحها في لذة الضعف الانوثي ، اذ يستسلم للرجل القوي فليس في الدنيا مايبعث في نفس المرأة غريزة الاستسلام مثل قوةٍ لفلفها الحنان .

يقولون لك ان اقتياد فتاة الى فراش زوج تجهله عادةٌ همجية بهيمية ، بل يسرفون في القول فيذكرون ان الهمج والبهائم تتعارف وتتآلف قبل ان تتزاوج . اما انت يا قارئي فانك مثلي محافظ رجعي ترى السفه في ذلك الافتراء ، اذ أنه في وسعك ان تستشهد بمئات من الازواج والزوجات الذين قطعوا مراحل العيش هانئين وهم لم يبدأ تعارفهم الا في ليالي الزواج . ومن أظهر هؤلاء الازواج الفتى محمد الكرار وعروسه رئيفة عبدالمجيد . فان رئيفة صيّرها محمد سيّدة منزل وكانت في دار أبويها ابنة بين جمهور من اخوة وأخوات لا

قيمة لها . ونعمت معه باللذة الجنسية المشروعة فالتهبت بين يديه نزوات غرامها فاشعل تلك النيران برفق وأطفأها بلين وحنان . واما محمد الكرار فقد وجد في رئيفة عطف الام التي فقدها طفلاً ووفاء الممرضة وهيام الحبيبة التي تغزل بهـــا شاعراً يحس بالغرام ولا يمارسه .

وهكذا مرت عِسال الشهور وهما في غمرة من سعادة لايفترقان الا ساعات المداومة التي يقضيها محمـــد في المدرسة الابتدائية إذ كان يدرّس فيها ويديرها. وكانت رئيفة في غيابه تطالع الكثير ، وتختص بالقراءة من مكتبتها العامرة رواية « الغراب الشائب » لمؤلفها محمد الكرّار ، فما من يوم مضى إلا وأعـــادت قراءة تلك الرواية أو بعضها ، وما من مساء عاد محمد من عمله في المدرسة إلا ولاقته رئيفة ضاحكة تقبله وتعيد عليه شيئاً من نكات « الغراب الشائب » أو حوادثها ، أو مقاطعها الرائعـــة ، ثم تسأله فخوراً : « هذا ما كتبت وأنت دون العشرين ، ترى ما الذي تؤلف قبل أن تبلغ الاربعين ؟ »

وكانت تعيد هذا السؤال في النهار مراراً ، متئدة في أول الامر ، حتى إذا مرّت الشهور ولم ينتج محمـــد شيئاً صار السؤال يحمل رنة العتاب . وفي العام الثاني من زواجهما أمست رئيفـــة تلقي السؤال على زوجها بشيء من مرارة وقساوة . ثم تشير اليه باسماء رفاقه في الدراسة وهم دونه مقدرة كيف نبـــه ذكرهم وكثر انتاجهم الادبي وكيف لهجت الصحف بانبائهم وقـد صار بعضهم في اعلى مراكز الدولة ، في حين انه ـ محمد الكرار ـ لا يزال معلم

مدرسة في احدى ضواحي دمشق .

اما محمد فكان يداعبها قائلاً : « اني لا اطلب العظمة بل السعادة . وها اني في جنة الدنيا دمشق ، ظافر بملاك هذه الجنة رئيفة ، ومهنتي اشرف المهن ، التعليم . من يطلب العظمة الا الابله ؟ ولئن كنت تصرّين عليّ بطلب العظمة فاعلمي انه كلما سما احد من رفاقي شعرت ان قد نبتت ريشة في جناحي وان جناحي قوي واستطال . ما صاغني الله غازياً وما انا بالطامح الى الفتوحات . والآن هات قبلة وابسمي فانك بشعة حين تبسمين ! » .

وهكذا ركضت الايام ورئيفة تتحرّقها آلام الخيبة في زوجها الذي سمن ونعم ، وبدأ الشعر يتراجع الى مؤخرة رأسه في صلعة برّاقة ، واستدار بطنه في بروز هائل ، وراح ضميرها يؤنبها ان تلك السعادة التي غمرته بها اطفأت نار نبوغه فقد كان في اول العهد ، على رغم انقطاعه عن الكتابة ، تنطلق من شفتيه كلمات لاذعة وهاجة . اما اليوم فقد ترهلت نكاته فهو يشير الى صلعته ويسميها « بيضة الرخ العاجيّة » ويضع يده على بطنه ويقول : « كل العظمة التي أصبتها في الحياة التفّت حول وسطي » . وشعرت رئيفة بما يشبه الاحتقار والكره نحو محمد ، ولكن ذلك الشعور كان يذيبه منظر محمد او تصهره قبلاته .

وغير مستغرب ان من خمل شأنه قلّ اصدقاؤه ... ولقد نسي الناس « الغراب الشائب » . وما كان محمد بالمثري او الزعيم السياسي ولا هو تطلب عشرة الناس فانقطعت الاقدام عن داره ، وما دخلها من غريب الاّ جيولوجي اميركي طاعن في السن كان

ينقب في الصحراء السورية على دمن مدينة غابرة ، ويؤمُ دمشق مرّة كل شهرين لشراء بعض الحاجات فيتناول وقعة على مائدة تلميذه القديم محمد الكرار . وكان الاستاذ ورئيفة يتعاونان على محاولة قدح الشرار في نفس محمد فيجيب هذا ضاحكاً: « تريدني يا استاذي ان انقّب عن مدينتي مثلما انت منقب عن مدينتك ؟ لكنتَ انت اسعد حالاً لو انك مكثت مستريحاً في الغوطة تمتع نظرك بجمال دمشق العامرة لا متعباً تنقب عن دمار مدينة غيبتها الرمال » .

وكان من عادة محمد حين يرجع إلى البيت في المساء ان يفاجيء زوجته بهديّة صغيرة من اثمار أو حلويات ، وربما ابتاع لها حلية مزيفة جذّابة شأن من ضؤل راتبه وكبر قلبه . لذلك لم تستغرب ذات عشية ان تسمع منه حين آب « في جيبي شيء لك » ثم ناولها بدلاً من الهدية ورقة دعوة لحضور الاستعراض السنوي في اليوم الثاني واخبرها ان مكانها سيكون على الدكة الكبرى المعدة للنساء. أما هو فسيمشي خلف الجيش . وزاد انه سيحمل العلم السوري فيهزه مرتين: واحدة لرئيس الجمهورية، وثانية لرئيسة قلبه. بلى — فقد دبّ الى حديث محمد شيء من السماجة .

فابتهجت رئيفة ان تصبح ، ولو مرة في العمر ، على دكّة الاستعراض وان ترى محمداً بين المتظاهرين يهزّ العلم ، وبكرت في صباح اليوم التالي فارتدت أجمل اثوابها وبالغت في التجمّل وهرولت الى دكة الاستعراض ، في المكان المعدّ للنساء فرأت ان الحاضرات اللواتي سبقنها قليلات ،وان معظم الكراسي شاغرة،فامّت واحدة

منها وهمّت تقتعدها اذ اقترب منها شرطي سائلا : « يا سيدة، اين بطاقتك ؟ » فارته البطاقة ، فاشار اليها ان تذهب الى المقاعد الخلفية القصوى، فهذه الكراسي هي لعقيلات كبار الموظفين. وقرأت بعض الاسماء على تلك الكراسي – حرم حسين باشا العساف ، عقيلة عبد المجيد بك السوقي ، مدام جورج بك الديراني زوجات رجال كانوا بالامس رفاقاً لمحمد .

وتراجعت خجلة ميمّمة ناحية الدكة الخلفية فاذا بعجوز تصيح بصوت عال : « بعض نساء هذه البلدة طموحات » وعلت قهقهة من الحاضرات ، وتطايرت العبارات الساخرة ولم يهدأ الضحك الا حين وصل رئيس الجمهورية بين الهتاف والتصفيق، فاعتلى مكانه وصدحت الموسيقى بلحن الرئيس ، وتكامل عدد الحاضرين من رجال ونساء ، وبدأ الاستعراض .

وكأن الطبيعة ارادت ان تشترك في الاحتفال فارسلت نسيما بارداً فاذا الاجسام مفولذة ، والوجوه مستبشرة فرحة ، والاعلام خفاقة . يا له من يوم مفعم بالروائع ويا لها من مظاهرة ! فقد استمر الاستعراض ساعة وربعاً مشى فيه الجيش بترتيبه البديع واسلحته الصقيلة ، ومشت الجماهير والوفود من حضر وبدو . وكان احد خطباء دمشق يذيع ما يجري فيتكلم في ميكروفون يتصل بمحطة اذاعة الراديو ، ويخلط روايته بالحماس او المجون حسب ما تقتضيه المشاهد فتسر رئيفة لما تسمع اذ ان المذياع كان واقفاً خلف كرسيها. وفيما هي مصغية الى فصاحته علا التصفيق من الجماهير واشتد الضحك وثارت زوبعة من التصفير وسمعت رئيفة المذياع يحدث :

« اني اسمع التصفير والضحك والتصفيق ولا ادري السبب . رويدكم ايها السامعون ! اظنني اهتديت الى سبب الهرج . اني ارى تحت هذه الشمس صلعة تبرق يسميها صاحبها « بيضة الرخّ »، وارى كومة من الشحم تمشي ، وبالوناً منفوخاً يتوسط تلك الهضبة الشحمية . هذا صديقنا محمد الفرار . اظنكم تعرفون لماذا نناديه « الفرار » وكان يدعى « الكرار » ؟ لأنه كرّ في « الغراب الشائب » مرة ثم ظل يفر . ها هو يهز العلم السوري لفخامة الرئيس . اتسمعون الهتاف ؟ هو يهز العلم مرة ثانية نحوي . سلامات يا استاذ ! اسمعوا ! اصبروا ! ان استاذنا محمداً لم يعد كراراً ولا فراراً . ها هو قد سلم العلم لاحد تلامذته وربض على الارض يلهث . اسمعوا الضحك والصياح . ها.ها.ها. هاتوا ليموناضة لاستاذنا المنهوك . تقدم ضابط فمسح بمنديله « بيضة الرخ » المباركة . برافو !! نهض الاستاذ من جديد وتناول العلم . الى الامام يا فرار ! ها هو يستأنف السير . ان كتلة الشحم تتدحرج من جديد ...

واختل النظام هنيهة وساد الهرج وراح الكل يضحكون وغفلوا عن رؤية امرأة ناحلة قفزت من دكة الاستعراض ورحت بين صفوف الجماهير واسرعت ماشية راكضة نحو بيتها تلهث باكية ثائرة تود لو أن الارض تنفتح فتدفنها وتدفن معها خجلها وخزيها والمهانة التي لحقت بها في ذلك الصباح . وحين وصلت رئيفة الى البيت صعدت توّاً الى غرفتها ففتحت النوافذ المقفلة وراحت تبترد في ذلك النسيم ، وارتمت على كرسيها الحريري الباهت اللون تسبح عيناها بالدموع ويغتسل جسدها بعرق الاعياء . ومرّت عليها ساعات ثلاث

يدور حولها نسيم دمشق البارد فلا تشعر به ، ورفق بها عقلها فخدر عن التفكير فلم تفقه احية هي ام ميتة .

وفجأة ظهر محمد فاهوى عليها يقبلها ضاحكاً ، ثم حملها الى السرير وأتاها بثياب ، وأصر عليها ان تبدل اثوابها واغلق النوافذ وانصرف .

لم تنهض رئيفة في صباح اليوم التالي لتهيء القهوة لمحمد على عادتها ، بل انها كانت تئن وتتقلب وتهذي . وجس محمد جبهتها بشفتيه فاذا هي حارة . ووضع انامله على نبضها فاذا هو قلق ، متقطع ، مسرع . وكان تنفسها مجهداً وفي اعلى وجهها شبه دائرتين متجمرتين — كل عوارض ذات الرئة ، تشخيص حققه الطبيب حين لبى الدعوة مسرعاً .

« حسبتني اداوي مريضاً واحداً فاذا بين يدي عليلان » .

عبارة طالما ردّدها الطبيب في غرفة رئيفة ، فمذ لازمت الفراش عاف محمد مدرسته ، وبقي يحوم حول سرير زوجته يثب لكل نأمة في الليل او في النهار ، متوتر الاعصاب ، حانقاً ، خائفاً ، يغير وسادتها ويمسّد لحافها ويتعهد امورها مسرعاً بالقاء الكلمة الناعمة الحنون ، مشجعاً اياها ، حاسراً عن زنديه يتخطى الغرفة كمن يتحدى عدواً يريد مقاتلته . ولقد زهد بالطعام ، فلئن جيء له بما يأكله فعل متأففاً متعففاً . اما النوم فما عرفه الا كما تعرفه الهرر — غفوة ثم انتفاضة ، ثم وثبة ، ثم غفوة من جديد .

وجاء صباح اليوم السادس عشر ورئيفة غاطسة في نومها تتنفس تنفساً هادئاً متسقاً عميقاً ، صافية الوجه ، فجسها الطبيب وابتسم وهمس في اذن محمد : « ربحنا المعركة . إرجع الى مدرستك » .

وودّ محمد ان يرقص ويغني أو يهتف ولكنه كبح ثورة طربه مخافة ان تستفيق رئيفة من راحة غفوتها ، فراح يتفرس بذلك الوجه الذي أحبه وما درى إلا وقلمه في يده ، ينظم بضعة ابيات من الشعر في الانكليزية يخطها على بياض الوسادة ، واحكم وضع الوسادة بحيث تقع عليها عينا رئيفة متى استفاقت . وكانت الابيات انشودة مطلعها :

« صرعت الموت إذ دانى حبيبي ! »

وحينا وضع محمد ساقيه في بنطلونه وجد ان بطنه ضمر قيراطين!

*

تلك النوافذ التي لبثت مقفلة اسبوعين عادت تنفتح ، وذلك الوجد الذي شحب عاد إليه الرواء . وذانك القيراطان اللذان ذابا استردهما وسط محمد الكرار قراريط . وكذلك رجعت المرارة تتأكل نفس رئيفة إذ عادت اليها الحياة . غير ان حبها لمحمد عمق وزها صفاؤه فليس من شيء يجعل النفس تتماسك مع نفس اخرى مثل ان تترافقا في سفرة خطرة .

وفيما تتمطى الحياة في منزل هذين الزوجين فاجأهما البريد بحوالة منه دولار ثمن « صرعت الموت » ، واعترفت حينذاك رئيفة بانها أرسلت الابيات الى عنوان نقلته عن مجلة أميركية ، فتسلم محمد الحوالة ووقع على صك طويل عريض مطبوع بحروف صغيرة ، مبتسماً ابتسامته الهادئة غير مكترث ، شأنه في جميع أمور الحياة ، حتى انه لم يقرأ الصك الذي وقعه ، كذلك غفلت رئيفة عن قراءة الصك ، فقد اصبحت فوّارة المرح بهذا الظفر فلا تطيق قراءة .

*

في خريف عام ١٩٤٦ كان في دمشق موضوع واحد للمجون : محمد الكرار . فقد اكتسحت الدنيا اغنية «صرعت الموت» وترجمت الى كل اللغات ، وانشدت في المراقص والحانات ، وحينما جهرت رئيفة بان زوجها هو ناظمها تجاوب الضحك في انحاء المدينة . فأي يصدق ان محمد الكرار نظم قصيدة قبض عليها مئة دولار ووقع صكاً يتنازل به عن كل حقوقه ، صكاً طبع باحرف صغيرة تكاسل عن قراءته قبل ان يمضيه ؟ ومتى عرف عن « الفرار » انه شكسبير اللغة الانكليزية؟

وكأن ربّة المجون لم تكتف بهذا لتشبع بالهزء عابديها ، فجاءتهم بشيء اضحك . فقد هرع تلامذة الاستاذ محمد اليه ذات صباح اذ ابصروا به ووجهه الى الجدار يعالج بطنه بيد ، وسبّابة اليد الاخرى في فمه يحاول ان يتقيأ فلما سألوا عن حاله اجاب :

— ما من امر خطير . زوجتي في وحامها ، وفي بعض الاحيان تصيبها اعراضها .

فسرت في المدينة اشاعة ان الاستاذ حامل ، وايّ شيء من دلائل الحمل اوضح من ذلك البطن الضخم البارز ؟ وذات يوم طلعت جريدة « النخوة » بالخبر التالي تطوّقه دائرة ضخمة حمراء :

« يسوءنا ان نعلم ان اجهاضاً جرى في منزل الاستاذ محمد الكرار ، وقد انقطع الاستاذ عن المداومة في مدرسته . ونحن فيما نذيع هذا الخبر آسفين نتساءل ترى اي الزوجين اجهض ؟ »

*

بين الحيوانات الناطقة فئة سادية لاتستطيب الحياة الا حين

تدوس على الضعيف، فان السقط في نفوسها يتطلب التفوق فلا يظفر به الا في اظهار القوّة على من ضؤل شأنه . هم في بعض الاحيان يسرفون في الاجرام حتى ليقتلوا ، واحياناً تقصر جناياتهم على ترويج الاكاذيب . وكانت من ضحايا هذه الشيمة الصفراء رئيفة ، اذ أنها بعد ان فقدت جنينها ضجرت بمنزلها فصارت تبتعد عنه فاوسعها ذلك ، وهي قد فهمت من الطبيب انها حين فجعت بالجنين فقدت امومتها الى الابد . ولقد ارادت ذلك الجنين املاً يحقق ما وعد به محمد من فوز واخفق بتحقيقه في الحياة . فها هي الآن وزوجها ميت حيّ ، وآمالها بطفل قد تلاشت ، وغريزة الامومة فيها مكبوحة ، فلا عجب ان نبذت القعود في البيت ، وصارت تنزل الى السوق تبتاع حاجاتها بنفسها من خضار ولحم وثياب وعطور وغيرها ، تبتغي بذلك التسلية وقتل الوقت . وامست تطيل الوقوف في الحوانيت لا تنعماً بالوقوف بل اتقاء لشر المكوث في البيت . هذا وقد بدأت اسعار الحاجات تتصاعد بحيث صار راتب زوجها يقصر عن شراء كل شيء تحتاجه ، فاصبح من الحكمة التروّي في الشراء والانتقاء والمساومة .

لذلك ارتجفت الالسنة السوداء بسم الاقاويل : « هل بلغك ان رئيفة تطيل الوقوف في دكان اللحام ؟... هل سمعت انها تتهامس مع ذلك العطار ؟... هل قيل لك ان رئيفة والبقال في مغازلة ؟ »

وكان من حسن حظ رئيفة ان لم يبق لها عشراء ، فلم يترام اليها ما يقال عنها .

وكأن آلامها من الاجهاض ، ونكبة الخيبة بمحمد ، وفشلها

في امل يعيضها عن محمد ، واوجاعها من رؤية ذلك الفتى الذي عشقته وما تزال تهواه ، والذي سمعت من شفتيه اولى كلمات الحب في ليلة الزفاف ، وها هي تراه قد مسخ كاريكاتوراً ، وكأن شقاءها في عزلتها عن الناس — كل هذه تكالبت عليها فنحلت وتهدمت فما عادت تستطيع الخروج عن البيت في بادىء الامر ، ثم عيّت عن الحركة فلازمت الفراش وبدأت تتلاشى .

أما الاطباء فقد جاؤوها فرادى وبعثات ، واما الادوية فقد استحالت دار الكرّار الى صيدلية . ونزلت بمحمد الحيرة فلم يدر ماذا يفعل . فقد دعا الاخصائيين من دمشق ، وبيروت ، والقاهرة ، وكل يصف علاجاً ، ويذكر اسم علة ، ولم يتفق اثنان على تسمية الداء . غير انهم اجمعوا على ان رئيفة ان لم تكن مسلولة فهي على أبواب السل ، وان هواء الصحراء الجاف يفيدها . لذلك تهافت محمد على قبول وظيفة معاون لاستاذه الجيولوجي في الصحراء السورية . وانتقل برئيفة وأدويتها الى خيمة في البادية تحاذي خيمة الاميركي البحاثة . وقطع علاقاته مع المدرسة في ضاحية دمشق .

وهكذا مرت الشهور على تلك الخيمة يظللها شبح الموت ، ولا يسمع فيها إلا أنات رئيفة وشظايا من كلامها ، اذ هي تحرض محمداً على الاعتناء بصحته وتضرع اليه ان يأكل وأن ينام ، وتبكي اذ ترى نحوله وشحوبه ونظراته التائهة . اما محمد فقد يئس من الطب وغمر الحزن قلبه فكرهَ الكلام ، فما عاد يرى إلا في بحران من التفكير ، اللهم إلا حين يفتح القرآن ويجوّد آياته ، فان قلبه ينعم بالايمان فما تتبدّد آلام نفسه ولا يسكن قلقه إلا في نشوة ترتيل سور

المصحف الكريم .

وراحت الحياة تجمد حول تلك الخيمة ، وكثف ظـــل الموت واسودّ ، ورئيفة تهبط نحو الفناء ببطء وألم ، ومحمد يتهدّم ويحزن ويجوّد القرآن .

وذات ظهيرة ، اذ كان المخيم ينتظر عودة الاستاذ الاميركي من دمشق ، ظهرت سيارته القديمة تتبعها قافلة من سيارات ، وسرعان ما نزل منها جمع من صحافيين ومصورين ، يترفه بينهم في الوطء على الثرى بعض كبار موظفي الدولة السورية ، واقبلوا على محمد يهنئونه ويهزّون يده بحماس . وفي الوهلة الاولى ظن محمد انه انتقل الى عالم المجانين ، أو أن أحد مجّاني دمشق قسا عليه باضحوكة جـــديدة . ولكن الاستاذ الاميركي تقدم ووضع يـده برفق على كتف محمد وقال : « لقد اقترفت نحوك اثم السرقة ، فاني كنت ابصر بك قرب هذا السراج في الليالي واراك جاداً في الكتابة . وصرت اترقب انصرافك فاسرق ، على علم من رئيفة ، ماتكتبه ، فانسخه حتى اكتملت روايتك « عنترة والنفط » . لقد ارسلتها الى هوليوود فاشتروها . انما احدثوا فيها تغيـــيراً . لا ادري ان كنت تذكر ما الفت فانا اعيده عليك – كبير مهندسي شركة نفط اميركية – وهو كذلك أعظم مساهم فيها – يستضيف شيخ قبيلة عربيـــة في الصحراء . يكتشف الزيت ويشتري ، بـل يكاد يستوهب الشيخ امتياز استغلال الزيت لقاء ثمن بخس . تأتي الوف العمال ، وترسل الوف المعدات ، وبعد الحفر يجدون اوقيانوساً من نفط فيفرزون القساطل ، وفيما هم يهمون باستخراج النفط يظهر طيف عنترة فيجوّف رحمه

ويشكه بالبئر فينتزع كل النفط ويفرغه بظرف صغـــير ، ويضع الظرف وراءه على حصانه وينصرف كما اتى شبحاً لا يراه الا رئيس المهندسين الاميركي .

وهكذا كلما حفر المهندس بئراً وظفر بالنفط جاء عنـــترة فامتصّ النفط برمحه الى ظرفه ، واحتمله على جواده ومضى .

وطبيعيّ ان تضطرب امور الشركة الاميركية المستثمرة وتهتز ماليتها ويدب الذعر في قلوب مساهميها ، وتستبدل المهندس بآخر ثم بغيره وغيره ، فما افاد التبديل بل استمرت الابار تطفو بالنفط ثم تجف. وكان ان توفي الشيخ وتولى زعامة القبيلة ابنه ، وهو فـتى عالي الدراسة ، ففتش بين اغراض ابيه عن نسخة من اتفاقية النفط فلم يجدها ، وطلبها من الشركة ففتحوا صندوقهم وانتزعوهـا فاذا هي بيضاء الاّ آخر ورقة منها كانت خالية من الكلمات ولم يظهر عليها الا صورة عنترة وحصانه ورمحه وظرفه.

وليس الاميركان من الذين يؤمنون بالسحر او الاعاجيب ولا هم من الذين يفرّون من مواجهة الحقائق ، فادركوا ان كل ما في الامر انهم يملكون معدات ثمنها ملايين نثروها في ارض نائية غريبة، وانهم انفقوا الملايين في محاولة استغلال مشروع لا تحمي حقوقهم فيه عقود مقاولة . فاسرع رئيس الشركة الى ابن شيخ القبيلة ونفحه اتفاقية سخت شروطهـا على ابن الشيخ ، فصار الاميركان متى ظفروا بالزيت قدروا على استخراجه من غير ان يسبقهم اليـــه عنترة . وكان خلال ذلك – وهنا ظهرت اصابع هوليوود – قـد اشتبكت عواطف ابن الشيخ في معركة غرامية ، احب ابنة رئيس

الشركة ، وزهد في النفط والخيام والثقافـــة ، بـل ترك أمور القبيلة لاخيه الاصغر ، ووثب مع فتاته الى خلف عنـــترة وراح جواد هذا يعدو بالثلاثة وبالظرف الفارغ الى الواحة الكبرى في قلب الصحراء تلك التي يحجبها السراب ولا يسكنها إلاّ كل من رضي عنه عنترة » .

وفيما كان الاستاذ الاميركي يروي مختصر رواية « عنترة والنفط» كان الصحافيون يدوّنون الملاحظات ، والمصورون يلتقطون الصور . وعاد الاستاذ الى الكلام :

« هذه المرة لم نقترف غلطة « صرعت الموت » ، فسلطنا عدسة المكرسكوب على كل حرف من سطور الاتفاقية ولم نوقع من غير أن نقرأ . في الاسبوع القادم ستحتفل هوليوود بعرض فلم «عنترة» وسيكون محمد الفرّار هناك ليساهم بالحفلة وليتسلم مئة الف دولار ثمن روايته » .

اما محمد فكان يسمع ويرى ولا يدري ما الذي يجري حوله . غير انه استفاق عند سماع خبر سفرتـه الى هوليوود وعلق بصره بتلك المضطجعة على السرير فآلمه ان يرى ذلك الوجـه الشاحب ، وقد تهدل جلد ساعدها فبانت عظامه ، حتى ليحسب الناظر اليهـا انها ميتة لو لم تكن عيناها نجمتين بالحياة تسطعان .

وعبثاً تضرع الاستاذ الاميركي ، وتشفعت رئيفة ، ورجـــا صحافيو دمشق ان في ظهوره شرفاً للعرب ، فكان محمد يجيب ان ما يشده الى سرير رئيفة هو شيء أثمن من الشرف ، وأحب من الشهرة ، وليس من شيء يغريه بترك الخيمة .

ولكن محمداً في نهاية الامر سلخ نفسه عن تلك الخيمة حين ظهر له ان سفرته قد تيسر الفوز بطبيب عـــالمي الشهرة يصطحبه في اوبته فيصف لرئيفة ما يشفيها .

*

حينما حوّمت الطائرة فوق مطار دمشق كاد محمد الفرّار ان يقفز منها ليعدو نحو خيمة رئيفة . وما ان وقفت وفتح الباب حـــتى أمسك بذراع الدكتور « ماديسون » وصاح به: «وصلنا ! وصلنا !» وسمع محمد هتاف الجماهير متبرماً وتقبّل التهاني والوسام حانقـــاً ، وأصغى الى القصائد والخطب في ضيق صدر ، وما تنفس الصعداء الا حين ركب الاوتوموبيـل مع الدكتور « ماديسون » يرافقها بعض مشاهير اطباء دمشق الذين عالجوا رئيفة وقصدوا جميعاً الى المخيم في الصحراء .

وكطائر عاد الى عشه وفراخه بعـــد سفرة منهكة خطرة ، هكذا ترامى محمد على سرير رئيفة يقبلها ضاحكاً باكيا ، تهتز نفسه بين تيارات العواطف . ثم افسح المجال للطبيب « ماديسون » فتقدم الى المريضة وقال: « اراك فتية ! يجب ان تستثيري كل ما في قواك من عزم ، وتتعاوني معي على صرع هذا المرض . ان محمداً في حاجة الى رفيق في سفرة هذه الحياة » .

فاجابت باسمة :

— « ان محمداً بلغ الذروة ، ومن صار في القمة لا يحتـاج الى رفيق » !

فهز الطبيب رأسه وطفق يتفحصها ويسأل زمـــلاءه عن

العلاجات التي وصفوها ، ووقف حائراً يخاطب الاطباء بقوله :

– كل ما فعلتموه ووصفتموه كان صحيحاً .

ووقف « ماديسون » حائراً ثم اقترب من العليلة ثانية يجس صدرها ، فارتطمت اصابعه بشيء صلب خيطَ طيّ قميصها فانتزعه بعنف ، وإذ رآه انتفض صائحاً : « سم البنغال » ! هذا السائل هو السم الهندي الذي يقتل ببطء وليس له من علاج !

وتطلع إلى الاطباء هائجاً :

– من منكم وصف هذا العلاج السامّ ؟

وصاح محمد هلعاً :

– رئيفة ! من اعطاك هذه الزجاجة ؟

فابتسمت رئيفة وتكلمت بهدوء الظافر :

– لا تتهم احداً . لقد فتشت عن هذه الزجاجة طويلا حتى وجدتها اخيراً في سوق العطارين . ما هي بزجاجة تلك ، وما سائلها بسمّ ، بل هي الدواة التي بحبرها كتبت رائعتك « عنترة والنفط » . والآن اقترب مني وخذ بيدي وحدثني عن الحفلة الافتتاحية في كاليفورنيا وكيف استقبلتك دمشق في المطار . . .

وشعت الحياة على وجهها ومضة ثم اضمحلت .

الخِطابُ المبتور

وقعدنا في ديوانه نتحدث صامتين ، انا والباشا .

اصغي انا الى افكاره فاسمعه يقول : « انا الوزير وهذا ديواني . ان صحف بيروت تطبع صورتي وتنشر اخباري كل يوم. بين يديّ سيف السلطة ، وجاه الحكم ، وابهة السلطان . انا عشير الملوك وخليل السفراء . ايماءة من اصبعي على هذا الزر ، تسّير جيشاً . من هذا الشبح الجالس امامي، الطافر من ظلمة ماضٍ بعيد ؟ بلى عرفته في الجامعة ، ولكن ذلك كان منذ ربع قرن . وليكن اسمها جامعة فهي مدرسة على كل حال . وماذا يهم ان كان هذا الرجل ذا شأن في ايام التلمذة ومتفوقاً عليّ ؟ ! هذه مدرسة الحياة وانا فيها وزير. أما هو من هو هذا العائد من مهجر يجهل موقعه اساطين الجغرافية ؟ ومن يأبه لتلك التسعة الدولارات والثلث من الدولار التي قيل انه جاء بها من غربته ؟ ! وماله يقتعد ذلك الكرسي مثقلاً بثقة النفس ؟ ! وما هذه البسمة الساخرة على شفتيه ؟ ! تراه تحدثه نفسه انه احق بمقعدي مني والله ...

وانصت هو الى صمتي فراعته رعود تفكيري وبروقه : «الله، الله ! هذا نديم بعينه . رحم الله عهد التلمذة ، يوم كان مسعود يتبع خطواتي مبصبصاً بذنبه، متوددا اليّ، يستكتبني خطاباً او يرجوني ان اصلح له مقالاً ، ثم يستعطفني ان انوسط له صحافياً ينشر له ذلك المقال . بلى كان مسعود موسراً فابوه يغدق عليه الحوالات من اوستراليا . وكان مسعود انيق الثياب . ولقد اوحت اناقته وفخامة مظهره الاجوف الى احد مجان الجامعة « سمير ملّوك» ان يطلق عليه لقب « الباشا » .وهذه خمس وعشرون سنة مرّت ، تقلب خلالها مسعود على كراسي الحكومة حتى منحه ملك عربي لقب باشا .

فصار « الباشا » باشا من صحيح . هل انتقمت الايام منا أم انصفت مسعوداً ؟ وكدت اقهقه هزءاً بنفسي وبسمير ملوك ، ام هزءاً بمسعود - لم ادرِ . . .

ولبثنا في صمت يشق دويه الآذان ، حتى التقت عيوننا فابتعد اللؤم عن نفسينا ، وذبنا نحن الاثنين في ضحكة طاهرة ، هي سكرة الروح اذ تستل من ذكريات صباح العمر اشعة تنفذ إلى كوى النفس فتثير ظلمة كهولتها وتبخر ما فيها من قذارة ، فنسينا الخصام والتفوق والحسد . ومضت ساعة انس ودعابة . فلما هممت بالانصراف صاح بي مسعود : « اذاً انت عازم على زيادة « سرابايا » ؟ ما اجمل هذه المصادفة !انا قاصد الى « سرابايا » . هي في قائمقامية « العباسية ». ما اسمه - صديقك الذي قتل في « الفلبين » ؟ رشيد المغربي ؟ بيت المغربي جماعة « اوادم » . في

الانتخابات الماضية اعطونا اكثرية ٩٤ صوتاً . سآمر الحاجب ان لا يطلب منك بطاقة حينما ترجع في صباح الغد . ادخل هذا الديوان فور وصولك . نمشي حوالى الساعة العاشرة .... على فوقه — يجب ان تنسفهم خطاباً . لئن كنت نسيت صنعة الخطابات ففي ديواني كاتب لا بأس به يحسن انشاء الخطب . لا تدفع له شيئاً فمعاشه يكفيه ، وانا دائماً أتصدق عليه بشيء . رويدك ! وكبس الزر الكهربائي كبستين طويلتين ، وكبسة قصيرة فما اسرع ان هرول الينا رجل اصلع شاخ فتياً ،فزرر سترته وانحنى متضعاً امام الباشا . فخاطبني الباشا مشيراً الى الكاتب : « لعلك تذكره . هذا « سمير ملّوك » .

*

ولقد علمتني الغربة احترام الوقت وتقديس المواعيد ، فمثلت في ديوان الوزير في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، فلم أجده هناك . وبعد انتظار ساعة أقبل في طليعة جماعة تواكبه وجثم على كرسيه يتحدث معهم بشؤون لم افهم مغازيها ،فمن بحث في سباق الخيل ، الى الاعجاب بفلم مصري ظهر حديثاً ،الى نقد قصيدة رثاء ، الى مفاضلة بين سيارتي « كرايسلار » و « بويك » . وانا بينهم صامت مشدوه حتى جاءت ساعة الظهر فدعاني الباشا الى الغداء معه . ولم نترك بيروت حتى الساعة الواحدة بعد الظهر إذ مرنا في قافلة سيارات تحمل جنوداً وموظفين . وكنا كلما بلغنا قرية أوقف الموكب جمهور القرويين ،وتبادل الوزير الخطب معهم والاحاديث السياسية . راذكران وظيفة معاون جمرك في بيروت كانت شاغرة

في ذلك الحين، وكان الوزير يعد بها عشرة اشخاص في كل قرية نمرّ بها . وكان الباشا يباهي امامي بدهائه السياسي : « السياسة » ، وتفلسفَ الباشا « هي اخذ وعطاء. خذ مواعيد باصوات انتخابية ، واعط وعوداً بوظائف حكومية » .

قلت : « واذا جاء يوم الحساب فكيف تبرر بوعودك لهؤلاء وتقعدهم كلهم في كرسي واحد ، أتراك تفعل المستحيل وتكذب علماء الطبيعة ؟... »

فابتسم وقال : « ان السياسي هو رجل يفعل المستحيل، ووظيفة معارن الجمرك اتفقنا بالامس مع دمشق ان تكون لسوري ! » وقهقه .

وراح الباشا الوزير يضخم في عيني نفسه كلما اوغلنا في هذه السفرة ، فطفق يحدثني من جديد عن ذلك الكتاب الذي يهم بتأليفه ، وانه يستمد عناصره من الحياة مباشرة . وصار الكتاب يضخم بعد كل استقبال ، حتى حسبت انه اذا استمرت استقبالات الاهالي فسيصبح الكتاب دائرة معارف .

وهوّن الله فبلغنا سراي « العباسية ». وكان الاستقبال هنالك رائعاً إذ أتت وفود القرى ببيارقها، واستلفت نظري علم « سرايا » المتعدد الالوان . وعلا الهتاف للوزير . وسرعان ما اعتلى الباشا منبراً وراح يخطب في الشعب. فبعد ان تغنى بالعباسية وامجادها التاريخية واكد لسامعيه ان أياً من ابناء قائقامية « العباسية » يفوق سوبرمان، وطرزان، وغاندي ، وانشتين ، ونيوتن ، وعلي الزيبق أو هنري فورد أو عنترة العبسي ، تخلّص الى ذكر « الفلبين »

والفاجعة التي نزلت بالشرق المتوسط باستشهاد البطل رشيد المغربي، وان الباشا حينما علم بالخطب من صديقه، وأشار اليّ ، اسرع فسألني ان آتي بنفسي لاحمل لبني العباسية وصية شهيدهم الاخيرة .

إذ ذاك أشرقت عليّ الحقيقة حين عرفت ان زيارة الباشا للعباسية لم تكن صدفة ، وانه اقتادني الى هناك ليستثمر حضوري ويبتاع به أصواتاً انتخابية . وكأنه لمح حنقي ، وكنت الى جانبه على المنبر ، فأخذ يقدمني للجمهور ، ويعزو إلي مقاماً سياسياً في المهجر لم احلم به ، وغمرني بالقاب علمية لم أسمع بها ، ولقبني بسموأل لبنان الذي تحمل اخطار الاسفار ومشاقها الى لبنان لأحمل وصية الصديق الاخيرة .

وجاء دوري للخطابة فنهضت وفتحت فمي :

« ايها الاخوان

كان رشيد المغربي بين يدي حينما لفظ أنفاسه الاخيرة

فهز حامل علم « سرابايا » بيرقه وصاح : « فليحي بطل سرابايا! » فاجابه فتى يحمل علم « الفحيص » : « اخرس! ان رشيد المغربي ابن الفحيص ، فليحي رشيد المغربي بطل الفحيص ! »

وتطايرت الشتائم واشتبك بنو القريتين في معركة بترت خطابي، فوجمت واتخذت موقفاً حيادياً . ولقد علمتني معارك « الفلبين » ان الحذر كل الشجاعة ، فهرعت ابتغي مكاناً قصياً ، غير ان امواج المعركة غمرتني ، ولم ادر إلا وعصاً كسرت على كتفي الايسر ، فماجت الدنيا في عيني ووقعت على الارض استمع الى اصوات القتال بيمنى اذنيّ ، وأصغي باليسرى إلى زقزقة عصافير الجنة ...

وفرّق الجند بين المتقاتلين ، وتوسط العقلاء ، فسكنت الجلبة واعتلى الوزير المنبر ثانية . فبعد ان مجّد قرية « سرابايا » وعظّم ضيعة « الفحيص » ، ذكر أن الشهيد رشيد المغربي ولد في «سرابايا» فهو ابنها غير منازع (هتاف من بني سرابايا) غير أن املاكه في « الفحيص » وزوجته منها ، وفيها كان عداد تذكرة نفوسه فهو بدون شك فتى « الفحيص » (هتاف من الفحيصيين) . وكان الباشا يود أن يطلق على الشهيد لقب « بطل القريتين » ولكنه يريد ان يزيد إلى أمجاد « العباسية » التاريخية فتحاً جديداً ، فهو يرغب إلى الجمع أن يوافقوه على تسمية الشهيد « بطل العباسية » فدوى الهتاف ، واطلق الرصاص ، وهاج القوم فرحين مؤيدين اقتراح الوزير في حكمته السليمانية ، فشكرهم الباشا وتمنى الشفاء العاجل للاربعة عشر جريحاً .

حينئذ تقدم زعيم المقاطعة وبلّغ الوزير قرارات القوم التالية :

اولا – مطالبة الحكومة الاميركية بتعويض مالي لاسرة الشهيد .

ثانياً – إقامة تمثال لـ «بطل العباسية» وتوجيه الدعوة للتبرعات الى المهاجرين في أنحاء الدنيا .

ثالثاً – مطالبة رئيس الجمهورية اللبنانية بتعليم أولاد الشهيد على نفقة الحكومة .

رابعاً – شكر فخامة الوزير لعطفه على المقاطعة .

خامساً – ارسال تلغرافات الى صحف بيروت بهذا المعنى .

*

قال الوزير لسائق السيارة « تمهل ! ». وأوضح لي : « اريد ان أتمتع بمشهد هذا المغيب . اودّ في كتابي وصف سيارة تنحدر إلى بيروت عند الغروب. وعلى ذكر كتابي آسف أنك لم تنه خطابك. قل لي ماذا كانت كلمات الشهيد الاخيرة ؟ فقد سمعت انه مات بين ذراعيك . »

اجبت : « لقد نطق بكلمة واحدة قبل ان يلفظ انفاسه . »

— ايّ كلمة ؟

— كلمة « آخ ! » .

— قل لي كيف صرع ؟

— كان بين نارين .

— اليابانيون والاميركان ؟

— اليابانيون وزوجته .

— وكيف كان ذلك ؟

— ارادت زوجته ان تغسل فسطانها ، فأمرت زوجها رشيد المغربي ان يملأ لها سطل ماء من قسطل قرب اليابانيين فلما دنا منهم صوّبوا البنادق وأمروه بالرجوع .

— ولماذا لم يرجع ؟

— لأن امرأته أمرته ان يملأ السطل ماء ...

— إذاً فقد مات ...

— حاملاً سطلاً ...

قال الباشا : « اريد ان اصف ، في كتابي الجديد كيف يتفجر الدم من صدر قتيل . قل لي بمَ شعرت حين رأيت الدم يفور من

صدر صديقك ؟

– لم يكن هناك من دم .

– إذاً كيف قتل رشيد المغربي؟

– الخوف قتّال يا باشا !

وقبل أن نترجل من السيارة في بيروت شعرت انه جاء دوري بالقاء سؤال. فتطلعت اليه وسألته بلهجتنا ايام التلمذة : « مسعود ! كيف حذقت هذا النفاق ؟ » فضحك حتى كاد يغمى عليه، وامسك بكتفي الصحيحة وخاطبني بلهجة الحكيم يعظ أحمق فقال : « الصدق قتّال يا باشا ! »

وحينما غابت سيارته عن عيني وانقطع صوت قهقهته تبلجت لي الحقيقة المؤلمة ، وهي ان مسعود ألبسنا في زمن الكهولة وفي مدرسة الحياة لقباً خلعناه عليه ايام الصبا وفي مدرسة التلمذة فخاطبت نفسي معترفاً بلقبي الجديد : « هذه حال الدنيا يا باشا » .

البُرهان القاطِع

بعد السلام والكلام اسمعني تلك العبارة من جديد ، فامسكت بكلتا يديّ قميصه من تحت عنقه وهززته هزاً عنيفاً رجرج نظارتيه وصحت :

- انطق بهذه العبارة مرة ثانية ترَ نفسك مضطجعاً على مخمل هذا الرصيف تعدّ نجوم السماء في هذه الظهيرة ...

ولقد كنت فظاً قاسياً على مخاطبي ، ولكنها عبارة سمعتها من كل من لقيته بعد رجوعي الى « مانيلا » على أثر دخول القوات الاميركية تلك المدينة ، وتحريرها من اليابانيين. اذ طُفتُ الشوارع والمتاجر اطلب واتداول مع اصدقائي ومعارفي في شؤون تحصيل الرزق . وكانت كل محادثة تبتدىء او تنتهي بنفس العبارة :

- « افتح خمارة » .

كيف افتح خمارة وقد وُلدتُ وشببت في « بعقلين » لبنان ، تدوي في أذني كلمة « حرام » . بلى ، حرام ان تقبض « فائظاً » على دين ، حرام ان ترمي بكسرة الخبز ، أو تنفق من معاشات الحكومة

او من دفعات المهاجرين . حرام ان تدخن سيكارة او تفوه بشتيمة — كل شيء حرام إلا عبادة الله ، وقهر النفس ، وحراثة الارض ، والعناية بها .

وهنا في « مانيلا » يريدونني على ان افتح خمارة !. أي شيء من ماضيّ بان سافلا فشجعهم على مثل ذلك الاقتراح !. فلا عجب إذن ان ثار حنقي حين سمعت تلك العبارة من جديد . واني عصبي المزاج لا اقوى على كبح غضبي متى ثار . لا سيما اذا كان خصمي وضيع الحال ، نحيل البنية . عجباً لسراع الغضب : كيف يضبطون عواطفهم أمام من يفوقهم قوة أو شأناً ! ذكرني متى اجتمعنا ان اروي لك كيف استطعت ان اكبح جماح غضبي في حضرة ضابط ياباني يدغدغ كتفي بسوطه ، ويصف السالفين من اهلي بكلمات تُسمع ولا تُطبع !.

وحين أفلتت فريستي من يدي تابعت تسياري في الشوارع ، فألفيت حوانيتها خمارة تجاور خمارة ، فضلا عن متجولي الباعة الذين ملأوا جيوبهم وأيديهم بقناني الوسكي ، والجنود والبحارة يملأون الشوارع والأقنيـــة باجسامهم وشتائمهم ودولاراتهم وعراكهم . ولئن جاز ان تسمى دمشق مطبخاً كبيراً ، فقد كانت « مانيلا » في تلك الايام حانة كبيرة .

وفيما انا أحسب نفسي اسيرُ وحيـــداً ، تطلعت فاذا بالأسود الباسم ذي القرنين والذيل الطويل يماشيني قائلا :

— يا مجنون ! حين ترجع الى لبنان ، سيسألونك كم جمعت من مال ، لا كيف جمعت المال . ارجـــع عن غباوتك وافتح حانة

تغنيك في شهرين . تلك الدنيا التي عمرت بها مخيلتك طمست ولن ينقب عن آثارها الباحثون !

« هلو عمّو ! » بادرني وليم زعرور الجندي اللبناني الاميركي ، طارداً الشيطان من جواري . « أراك سابحاً في التفكير ، بماذا تفكر عمّو ؟ . » قلت :

– اني افكر بوسيلة اكسب بها دولاراً من غير ان افتح خمارة !

قال : – لماذا لا تحاول الخدمة في الجيش ؟

– هاه ؟!

– كمدَنيّ اعني . انهم يستخدمون الوف المدنيين . اذهب الى البناية الكبرى قرب المرفأ وقدّم استدعاءك .

وحين صعدت درجات تلك البناية لم أدر كيف بلغتها فاني لم اركب أي عجلة تمشي على دواليب ، كذلك لم اذكر ان قدميّ لمستا الارض . غير اني اعرف من نفسي اني متى أردت الاسراع شددت على كتفي جناحين .

« اني أطلب عملاً » اجبت الفتاة الاميركية التي سألتني . « هل في وسعي ان اسعفك ؟ » فناولتني ورقة ملأتها باسمي ، وجنسيتي ، وسيرة حياتي ، واسم ابويّ ، وثقافتي ، وأمضيت تلك العريضة ودفعتها الى الفتاة سائلاً :

– متى اعود ؟

قالت : ان لم تكن في عجلة فاصبر قليلاً . نحن في حرب ونفعل كل شيء بسرعة .

فجلست في قاعة الانتظار هنيهة ، وسرعان ما عادت الفتاة

مبتسمة قائلة :

– تفضل بمقابلة كبتن كلي .

وتبعتها الى حيث اشارت فنهض الكبتن وحياني وقـــدم إلي سيكارة قائلاً :

– اني درست عريضة استدعائك . ان المعاش الذي ندفعه لك هو ١٥٠ دولاراً . اراك تبتسم . اني ادري ان هـــذا المعاش لا يكفيك . انتم المدنيين تدفعون دولاراً ثمن عشرين سيكارة وثمانية دولارات ثمن كيلو لحم . لهـــذا دعوتك اليّ . اراك تدعي انك خريج الجامعة الاميركية في بيروت ! هذا حسن . حسن جـداً ! اننا نحسبك كخريج جامعة اميركية في الولايات المتحدة ونجعـل معاشك تسعمائة دولار ، اراك فرحاً . انمـا لا تتعجل ، فنحن نريد برهاناً قاطعاً على انك خريج الجامعة الاميركية في بيروت ... هل لك ان تأتيني بشهادتك ؟

قلت : – انها ...

– احترقت . هذا ما كنت اخشاه .

– لا ...لم تحترق ولكني احرقتها خوفاً من اليابانيين . غير انه في وسعي ان آتيك بشهود ...

– شهود ؟ ما نفع الشهود . انا في وسعي ان آتيك بشهود انني انا الرئيس روزفلت وغريتا غاربو .

– لماذا لا تبرقون الى بيروت؟

– التلغرافات هي للامور الحربية فقط . ولكن تعـال معي الى ج ٢ – دائرة الاستخبارات . هنـــاك يعرفون متى حشوت

ضرسك ، ومـــاذا همست في اذن حبيبتك اذ قبلتها لأول مرة .
هيّا بنا فمكتبهم في البناية المقابلة .

ومشينا معاً ، ولم استغرب الاهمية التي يعلقونها على الجامعـــة الاميركية في بيروت ، فاني ما حدثت اميركياً الا وجدت انه قد سمع بتلك الجامعة فمعظمهم يجهلون اين هي سوريا أو لبنان ، ولكنهم يعرفون الجامعة الاميركية في بيروت ... — انها مؤسسة ثقافية عظمى مكانها اسطمبول أو اثينا ، او القاهرة وربما كانت في القدس او بغداد .

وودعني الكبتن كلي بعد ان عرفني الى الماجور ملَر وخوفني منه قائلاً ، مشيراً الى ملَر : « حذار من هذا الذئب . لئن دعاك الى سهرة فارفض الدعوة . » ثم زاد : « لئن جئتهم بالبرهان القاطع انك خريج جامعة بيروت ، فابدأ عملـــك في صباح الغد بمعاش تسعمائة دولار » فشكرته وانصرف .

أما ملر فقـــد كان سريع الخطى ، قلق الصوت ، مختطف الكلام ، ولكنه كأكثر الاميركان ، مصقول التهـذيب لطيف ، ففتح الباب الذي وراء طاولته ودعاني : « لنمش الى الشرق الاوسط . انه في الجناح الايسر من هذه البناية » .

ودخلنا غرفة كبرى كتب على رتاج بابها « الشرق الاوسط » عمرت بالرفوف تحتشد فيها الكتب والاوراق والصور . وما ان لفظ ملر « الجامعة الاميركية في بيروت » حتى جاءه القائم على تلك الغرفة بدفاتر و كتب . وراح الماجور يقرأ احـداها عابساً بعض الاحيان ، ومقهقهاً تاره قهقهة هزّت كل خلية في جسمه ، ثم سألني :

– بالطبع انت تذكر بعض اغاني الجامعة ؟

فوقفت وانشدت منها اغنيتين .

فقلب مجلد صور فوتوغرافية وسأل : « هؤلاء الرجال . هل تعرف منهم احداً ؟ فحدّقت واجبت سلباً . وقلّب الورقات الى ثانية ، فاشرت باصبعي إلى تلك الهامة الجرمانية تعممها عليقة من الشعر الابيض الكثيف واجبت « رحم الله الاستاذ نيكولي مدرسي في علم الاقتصاد »

– وهذه البنايات ؟

– بلى هذه « وست هول » حيث تقام الحفلات .

وكدت ان احدثه عن « لولا المحامي » و« نخب العدو » غير اني ذكرت ان الاميركان يمقتون المتبجحين .

ثم راح يتصفح دفتراً آخر ظهرت فيه حوانيت ومتاجر ومطاعم ، فلما ان وصل الى صفحة ٤٣ صحت « قف ! هذا هو المطعم الذي يقابل بوّابة الجامعة . هذان صاحباه الأخوان توفيق واديب فيصل ، وهذا الدفتر الاسود الذي بينهما هو دفتر الهوالك. لوتصفحته لرأيت حسابي غير المدفوع – ٣٤ ليرا و٢٨ قرشاً .

فأطبق الدفتر ودفع به وبالكتب الى القيّم على تلك الغرفة . وصمت برهة مفكراً ثم خاطبني :

– اسمع ! نحن في حرب وانا جنديٌ في جيش . اني مقتنع انك خريج جامعة بيروت ، ولكننا في الجيش لا ننفذ الامور بسبب الاوهام او الاقتناع او الشعور او الظواهر ، بل نتقصّى الحقائق الراهنة . ما ادراني انك لم تكن مستخدماً في الجامعة ، أو تلميذاً .

او انك عرفت هذه الامكنة والاشخاص بسبب مصادقتك لاحد الناس في الجامعة ؟ اني آسف ان ليس في مقدوري ان أثبتَ للكبتن كَلِي انك خريج جامعة بيروت اذ انك لم تأتني بالبرهان القاطع . غير انه في طاقتي ان اخدمك . تعال الى حانوت الجيش واشتر بعض حاجاتك . اسعارنا بخسة » .

وهبطنا الى الحانوت ، وهو في الطابق الاول من البناية فعجبت لهذا الجيش يحارب ويصطحب معه ما رأيت من بضائع ، فقد ابصرت الغرائب : كمنجة ،قيثارة . ماندولين ، كل انواع العطور والحمرة والبودرة ... وما فتح الله ورزق من ضروري وغير ضروري . لا عجب أن قال ذلك القائد الالماني في ايطاليا « الجيش الاميركي ؟ ! زمرة مليونارين في اثواب جنود » ولما فرغت الفتاة التي تتولى البيع من خدمة احد الزبائن ، اقتربت من رفيقي الماجور فحيّته !

— مرحباً يا عشيقي .

اجابها :

— مرحباً يا جميلة الوجه !

قالت :

— حسبتُني نفضت يدي من كريه خدمتك امس حين اشتريت كل حاجاتك بتلك المزيفة التي اعطيتنيها صباح البارحة .

اجاب الماجور :

— ما كنت لارجع الى التطلع الى سحنتك البشعة لولا اني اريد ان اشتري — واشار اليّ — بعض حاجات لرفيقي . هاك

وثيقة تخصيصاتي ، ولا تبيعيني ثانية من تلك القاذورات التي تسمينها بضاعة .

وتطلعت الفتاة الى وثيقة التخصيصات بلحظة خاطفة وكلمتني « ان جشع صديقك لم يبق له حقاً بالشراء الا حذاء واحداً ومشمعاً » .

قلت للماجور : « لعلك في حاجة اليهما »

فمد قدمه يريني حذاء بنيّاً جديداً ، واشار الى مشمع يحمله على زنده واجاب « لقد اشتريت هذين امس وعندي في الخيمة سواهما »

وقاست الفتاة قدميّ وقامتي بلحظة خاطفة ثانية ، وجاءتني بسرعة البرق بمشمع قياس ٤٢ وحذاء بقياس ٩ ١/٢ فنقدتها ١١ دولاراً وحملت ما ثمنه في المدينة ١٢٠ دولاراً . وراح الماجور يشوّقني الى شراء اغراض ثانية مباحة كمياتها ولا ترتبط بوثيقة مخصصات ، فرفضت شاكراً ، فان آداب السلوك في « بعقلين » لبنان ، هي ان لا تشبع على مائدة مضيفك مهما برّح بك الجوع .

وكان رفيقي من اولئك الذين تزخر معلوماتهم فتطوف عن السنتهم فتفرق عشراءهم ، اذ ما اسرع ما سمعت الماجور يقول : « انت من العنصر السامي بلا ريب . انظر الى قامتك فهي في طول قامتي وعرضها . كلانا في قياس ٤٢ ، اما حذاؤك فهو قياس ٩ ١/٢ في حين اني البس ١١ ١/٢ . اني اراهن ان ساقي اعلى من ساقك . » وكشف بنطلونه ودعاني الى المقايسة فوجدته صادقاً اذ ان ركبته علت ركبتي بنحو قيراط . وعاد الماجور الى دلق المعلومات : « لا عجب فانت سامي وانا انكلوسكسوني . اما هذه الفتاة فهي

اسوجية الاصل ، واني اراهن ان ساقها اطول من ساقي مع انها امرأة » فدارت الفتاة حول الحاجز الذي يفصلها ووضعت قدمها قرب قدمينا وحسرت عن ساقها الى همامة فخذها ، فبانت ركبتها اعلى من ركبة الماجور بنحو نصف قيراط . وكأنما رفيقي رأى ما أرعبه فجس « بطة » ساق الفتاة وصاح : « حذار ! فقدضخمت بطةساقك واشتدت وان هذا في المرأة لعيب . خففي من الالعاب الرياضية » .

فاجابت الفتاة مشمئزة : « كذب وبهتان. ان ساقيّ جميلتان ! ليس من فتى في الجيش لم يهنئني على هندامها . كذلك لن انقطع عن العتلتة » .

ودارت نحوي ودعتني لأن أجس : « قل لصديقك هذا الخبيث ان كانت بطة ساقي ضخمة العضلات » . فلمست ساقها لمسة خفيفة وابتسمت متأدباً شأن الغريب لا يود ان يشترك في جدال بين صديقين .

وحين صرنا في الباب منصرفين التفت الماجور الى خلفه وسأل « ماذا تفعلين هذه الليلة ؟ » اجابت « اسأل الليوتنان سميث . هو الذي يخرج بي هذه الليلة . »

فغمز رفيقي بعينيه وصاح «بعض الفتيات محظوظات» .اجابت صديقته بعد ان اخرجت لسانها ساخرة : « بعض الضباط طوال الألسنة ! » .

وحين صرنا في الشارع فاضت معلومات الماجور ثانية فجدّد ملاحظاته الفلسفية : « ان الذين لا يفهمون الاميركان يعيبوننا بامور

نحن منها براء . ان دعابتنا مع النساء طاهرة ليس فيه لؤم الفجور، فلسنا نحسب اعضاء الجسم مما يحرّم ذكره أو لمسه» . اجبت متلعثما: «صدقت ، لقد عايشت الاميركان وخبرتهم» واحمرّ وجهي . تراه لاحظ كيف بلعت ريقي وارتعشت انامليّ حينما لمست تلك الساق ؟ واردت الافتراق عنه فجرني الى مطعم عبر الشارع وأصرّ علي ان اشاطره زجاجة بيرة ، فجلسنا نتحدث اكثر من ساعة استهلكنا خلالها زجاجات لا زجاجة واحدة . ولم يشأ الا ان يدفع عني ، فشكرته . وودعني معتذراً ، شاجباً قوانين الجيش التي تغلّ يديه عن خدمتي وتسهيل امر استخدامي .

ووقفت في عتمة ذلك الشارع ، خارج الرستوران ، وقد بدأ المطر يقع رذاذاً فوضعت المشمع على كتفي من غير ان ارتديه ، وكانت اور كسترا المطعم تعزف لحناً خافتاً ، وفي نفسي ظلمة أشدّ حلكاً من عتمة الشارع ، وفي قلبي وحشة وغمرة حزن .

لقد مرّت بي مواقف يأس كثيرة في هذه الغربة المريرة . اذكر يوم كنت اتمشى بابنتي الصغيرة في البولفار اذ مرّ بائع بالونات ملوّنة منفوخة فنادته ابنتي وصرفته أنا إذ لم يكن معي ثمن ذلك البالون . كذلك اذكر رعب السجن الياباني حيث ضاجعت طيلة الليل رجلا صينياً ميتاً لفظ انفاسه في وجهي وصبغت دماه قميصي . واذكر يوم اختبأنا رجالا ونساء واطفالا في كهف اتقاء غارات الطيارات ووقعت القذيفة قربنا بحيث لفحت وجوهنا ريحها ، ولكني لا اذكر مرارة قطعت نياط قلبي مثل تلك التي شدّت على اوتاره حين وقفت خارج ذلك الرستوران لا ادري الى أين اسير ،

ومن اين اكسب الرزق في اليوم التالي . حقاً ان الحيرة آلم على النفس من الخيبة ، والخوف ، والفاقة .

لا ادري كم طـــال وقوفي هناك : الحظة ام ساعة ، ولكني استفقت من غيبوبة آلامي على قهقهة الماجور ، تلك الضحكة التي كان يقهقهها في مكتبه وهو يقلّب الكتب وينهال عليّ بالاسئلة . وفيما هو يقهقه خاطبني بكلمات منقطعة :

– رح الى الكبتن « كَلي » غداً وقل له ان يضع اسمك في قائمة المستخدمين بمعاش ٩٠٠ دولار في الشهر . لقد ظفرت بالبرهان القاطع على انك من « خريجي الجامعة الاميركية في بيروت » .

وخلع مشمعه مقهقهاً من جديد ، متابعاً حديثه :

– الظاهر اننا تبادلنا المشمعين . فحين مددت يدي الى جيب المشمع أتطلب محرمتي وجدت هذا ...

وانتشل من جيب المشمع تلك الملاعق الاربع التي استملكتها انا من المطعم حيث شربنا البيرة ...

قهوة سوراط

لليو تولستوي

كان في سوراط – احدى مدن الهند - قهوة يؤمها الكثيرون من المسافرين والاغراب من مختلف جهات العالم ، فاذا هم اجتمعوا أنس كل الى رفيقه وأقاموا يتفكهون ويتحادثون . وقد ساقت التقادير الى تلك القهوة رجلاً فارسياً من المولعين بعلم اللاهوت ، وكان الرجل قد انفق العمر يبحث عن طبيعة الله فدرس كتباً كثيرة ونشر تآليف عديدة .وكأنه استرسل في درسه وتنقيبه استرسالا غير محمود فلم يلبث ان اصابه الخبال ، فكف عن اجتهاده وتمادى في الكفر حتى لم يعد يؤمن بوجود الله . فلما اتصل امره بالشاه ، غضب عليه وطرده من بلاد العجم . وهكذا ساء أمر اللاهوتي ، فبعد أن جادل العمر كله مدافعاً عن « السبب الاول » صارت حاله الى البلبلة ، فبدلا من ان يفطن الى جنونه وفقده «عقله» أمسى يعتقد انه ليس ثمة من « عقل » يدير هذا الكون .

وكان في خدمة هذا العجمي عبد افريقي يسير في ركابه أنى توجه ، فلما دخل القهوة ، قعد العبد على حجر في الخارج «يتشمس»

ويلهو بطرد الذباب الذي كان يزعجه بأزيزه حول أذنيه . وما ان اطمأن باللاهوتي مجلسه في الديوان ، حتى طلب كأساً من الأفيون لم يكد يتجرعها حتى اسرعت حركة دماغه وبدأ فعل الشراب يظهر فيه فخاطب عبده من خلال الباب قائلا :

– قل لي ايها العبد الشقي ، أتعتقد بوجود الله أم لا ؟

فاجاب العبد ثم اسرع فانتشل من منطقته تمثالا صغيراً من الخشب وصاح : « هوذا الاله الذي حفظني من يوم ولادتي، وليس في بلادنا من لا يؤمن بالشجرة المقدسة التي صنع منها هذا الاله ! »

أما رواد القهوة فقد استغربوا هذا الحديث بين اللاهوتي وعبده وعجبوا لسؤال السيد . ولكن عجبهم كان أشدّ حين سمعوا جواب عبده . وكأن ما فاه به العبد قد استغضب احد الجلاّس – وكان برهمياً – فصاح بالعبد : « ويحك ايها المعتوه ! افتحسب ان الاله يحمل تحت المناطق ؟ لا اله إلا براهما ، وانه لأعظم من العالم باسره ، إذ انه هو الذي خلقه ، لهذا نحن شدنا من أجل تكريمه الهياكل على ضفاف الكنج حيث يسبحه البراهمة ، فليس في الدنيا من يعرف الله سواهم . وها قد نشبت الثورة بعد الثورة ، فلم تفتّ في عضدهم ولا انقصت من سيادتهم ، إذ ان براهما ، ولا اله سواه ، يحميهم ويصد عنهم غارات الاعداء .

وما ان فرغ البرهمي من قوله حتى سرت الخيلاء الى نفسه ، إذ توهم انه اقنع الجمهور ، ولكن سرعان ما تلقاه أحد الحضور – وهو سمسار من اليهود – بقوله :

– ضللت يا صاحبي ، فالاله الحقيقي لم يختر هيكله في الهند ولا

هو يحمي جماعة البراهمة . ان الاله الحقيقي ، هو اله ابرهيم واسحق ويعقوب ، لا يعطف على غير شعبه المختار ، وهم الاسرائيليون الذين أحبهم منذ بدء الخليقة ولم يحب سواهم ، ولئن يكن قد فرقنا اليوم في انحاء العالم ، فهو لم يفعل ذلك تخلياً عنا ، بل ارادة ان يبلونا ، ولقد وعد بان يجمع شعبه يوماً من الايام في بيت المقدس وإذ ذاك يعود الى بيت المقدس رواؤه ويعزّ بنو اسرائيل عصا الحكم فوق رؤوس امم الارض اجمعين .

وغلب التأثر على اليهودي فأجهش بالبكاء . وفيما هو يحاول الكلام ثانية قاطعه مبشر ايطالي قائلا :

– ان ما نطقت به لضلال وايٌ ضلال ، انك لتنسب الظلم الى جلالته تعالى ، فهو لا يستطيع ان يحب امتكم اكثر من حبه سائر البشر ، ولئن خص اليهود بحب في سالف الايام ، فلقد مضى على ذلك الزمن اكثر من تسعة عشر قرنا اذ اغضبوه وحملوه على محو امتهم وتشتيتهم حتى انك لا تجدهم الا بقية مبعثرة هنا وهناك ، وليس لدينهم تأثير فلا يعتنقه احد . ان الله لا يفضل امة على امة بل ينادي الجميع ان ينضموا الى صدر الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، وهي وحدها كفيلة الخلاص .

واتفق انه كان بين المستمعين قس بروتستنتي فاصفرّ وجهه وتطلع الى المبشر الكاثوليكي وطفق يتكلم :

– عجباً لك ! افتزعم انه لا خلاص بغير اعتناق دينك ؟ وان الخلاص نصيب الذين يخدمون الله متمشين على سنة الانجيل في نصه وفي روحه ؟

وكان الى جانب المتحادثين رجل تركي يشغل وظيفة في جمرك سوراط لم ينقطع طيلة الحديث عن تدخين غليونه ، ولكنه حين سمع تتمة الحوار التفت الى المسيحيين معاً وخاطبهما بلهجة الغطرسة :

– يا بُطل ما تؤمنون بتلك الديانة الرومانية التي حل الدين الحقيقي – دين محمد – محلها منذ اكثر من الف ومئتي سنة . وهل في وسعكم ان تنكروا انتشار الدين الحنيف في اوروبا وآسيا وتجاوزه الاقطار الى بلاد الصين المتنورة ؟ لقد قلتم لهنيهة خلت إن الله قد نبذ اليهود واستشهدتم على ذلك بذلهم ومسكنتهم ، وبأن الناس يعرضون عن مذهبهم فلا يعتنقه منهم أحد فأقرّوا اذن بحق الاسلام إذ انه خفاق اللواء في مشارق الأرض ومغاربها . حذار حذار فلن ينجو من عذاب الله الا المؤمنون برسالة خاتم الانبياء وصفوة المرسلين ، ولن يخلص من هؤلاء الا اتباع سيدنا عمر لا اشياع علي ، فان هؤلاء قد نشزوا عن الدين القويم » .

وحاول اللاهوتي الفارسي ، وهو من شيعة علي ، ان يحتج على هذا الكلام ، ولكن ارتفعت اذ ذاك ضوضاء ملأت المكان فقد كان اولئك الاغراب ينتمون الى مختلف العقائد والمذاهب ، فكان بينهم مسيحيون من بلاد الحبش ولاميون من تيبيت واسماعيليون واناس من عبدة النار فاشتركوا جميعاً في اللغط والمماحكة في طبيعة الله وكيفية عبادته واصرّ كل على ان بلاده انفردت بعبادة الله الحقيقي عبادة صحيحة ، ولم يعتزل وطيس هذا الجدال الا صيني من تلامذة كونفوشيوس انكمش في اقصى زاوية من القهوة وأخذ يشرب الشاي على مهل ويصغي الى حديث الباقين من غير ان يفوه

بكلمة . فلحظ التركي هذا الصامت فخاطبه بلهجة الشاكي يختصم الى قاضٍ وقال :

– إنك لمتقوى على تثبيت الذي ذكرته يا اخي الصيني . لقد بقيت ساكتاً حتى الساعة .على انك لو نطقت لما ايدت غير اقوالي. فان التجار الذين يؤمون سوراط من بلادكم فيأتون اليّ في طلب المساعدة يؤكدون لي ان قد تسربت الى بلاد الصين ديانات كثيرة غير ان احبها للصينيين هي الديانة الاسلامية ، لذلك هم يعتنقونها عن طيبة خاطر .فهلا تثبتّ كلامي وتبسط لنا معتقدك في الله وفي رسوله ؟

فالتفت اليه الحاضرون جميعاً وصاحوا به : « بلى ، بلى، اسمعنا رايك في هذا الأمر ! ».

فاغمض الصيني عينيه وفكر هنيهة ، ثم عاد ففتحهما ثانية وسل يديه من كميه الواسعين وطواهما على صدره وأخذ يتكلم بصوت هادىء خافت فيقول :

– يخيّل اليّ ايها السادة ان لا شيء يمنع الناس من الاتفاق في الأيمان الا عجبهم وكبرياؤهم . اسمحوا لي أن أضرب على هذا مثلاً بالقصة التالية :

« غادرت الصين وقدمت الى هذه البلاد على باخرة انكليزية كانت قد طافت حول الارض . وقد تحتم علينا ان ننزل الى الشاطىء الشرقي من جزيرة سومطرا في طلب الماء العذب . فلما بلغنا البر وكان الوقت ظهراً ، نزل البعض منا يتفيأون اشجار جوز الهند ، وكنا جماعة ننتمي الى مختلف البلدان . ولم يطل

مكوثنا حتى وافانا رجل اعمى عرفنا عنه بعدئذ انه فقد بصره لطول تحديقه في الشمس يبغي ان يستكشف طبيعتها ويحاول ان يقبض على ضيائها، وأجهد نفسه فأطال نظره الى الشمس فلم يعد عليه هذا الجهد الا بان أضرت اشعتها باصرتيه فأخمدت فيهما النور، يحدث نفسه حينئذ بقوله :

— ليس ضياء الشمس بسائل ، فلو كان سائلاً لسهل سكبه من اناء إلى اناء ، ولاستطارته الريح كما تفعل بالماء ، وما هو بنار ،فلو كان ناراً لاطفأها الماء ، وليس ضياؤها بروح لأنه يُنظر بالعين ، وما هو بمادة اذ يستحيل تحريكه ، اذن فما دام ضياء الشمس ليس بسائل ولا نار ولا روح ولا مادة فهو اذن — لا شيء !

تلك كانت حجته . أما استمراره على التحديق في الشمس والتفكر باسرارها فقد سبّب له فقد بصره وادراكه . فلما ان عمي جاء عماه مثبتاً لاعتقاده بان الشمس لا وجود لها !

وكان يرافق هذا الاعمى عبدٌ له فلما أجلس سيده في ظل شجرة جوز الهند ، راح فالتقط جوزة أخذ يعدها سراجاً لليله ، فجعل من خيوطها فتيلة ، وعصر من جوفها زيتاً غمس فيه الفتيلة . وان العبد لجادّ في عمله ،اذ بسيده يتنهد ويسأله :

— أفما كنت مصيباً يا عبدي حين قلت لك ان الشمس غير موجودة ؟ أفلا ترى أي ظلام يحيق بنا ؟ مع هذا يقول الناس ان الشمس موجودة ! لئن صح ما يزعمون ، فما هي الشمس ؟

فاجابه العبد : — أنا لا ادري ما هي الشمس ، وليس من شأني أن اتعرض لمثل هذا البحث،غير انني أعرف ما هوالضياء ؛ هأنا ذا

قد اعددت لك سراجاً استعين به على قضاء امورك في الليـــل ، والوصول الى أي شيء تطلبه في الكوخ .

ثم التقـط قشرة جوزة وقال « هذه شمسي» . وكان إزاءهما رجل اعرج يسير على عكازين، فضحك حين سمع هذا الكلام وقال « يلوح لي انك أعمى منـــذ ولدت ، فانت إذن لا تعرف ما هي الشمس ،فاستمع إلي اخبرك :الشمس هي كرة نار ترتفع في الصباح من البحر وتنحدر كل عشيـة بين جبال جزيرتنا . ولقد شهدنا هذا كله - نحن سكان الجزيرة - ولو كان لك ان تتمتع بناظريك لتحققت صدق ما قصصت عليك»

فعارضه صياد سمك كان يصغي الى الحديث بقوله :

— ما اسهل ان يعرف الانسان انك لم تبارح جزيرتك قط ! ولو لم يبتلك الله بالعرج فكنت قادراً على ان تطوف مثـلي في قارب صيد لعرفت ان الشمس لا تغيب بين جبال جزيرتنا ، بل ترتفع من الاوقيانوس كل صباح ،وتغيب في البحر كل مساء. واني ارى هذا المشهد كل يوم ، فهو اذن صحيح لا ريب فيه .

فقاطعه حينئذ رجل هندي كان بين الجماعة فقال :

— إنه ليدهشني ان ينطق رجل ذو بصيرة وروية بمثل هـــذا الهذيان . أفيعقل ان كرة نار تنغمس في المياه من غير ان تنطفىء؟ ليست الشمس بكرة نار ولكنها آله اسمه « ديفا Deva » يعتـــلي عربة ويطوف الدهر كله حول « مارو Meru » الجبل الذهبي ، وقد تهيج الحيّتان الشريرتان « راغو Ragu » و« غاتو Ketu » فتبتلعانها فيعم الارض ظلام ويسرع كهنتنا الى نجدة الشمس، فيضرعون الى

الآلهة ان يطلقوا سراحها ، فيستجاب دعاؤهم ويحل عقال الشمس. وليس في الدنيا من يزعم ان الشمس لا تشرق الا في بلاده غـــير امثالك من الذين ضرب الجهل على عقولهم ، وقضي عليهم ان لا يفارقوا جزيرتهم »

وجاء دور ربان سفينة مصرية فقال :

ــ أخطأت يا صاح فليست الشمس آلهاً ولا هي اختصت الهند بالتطواف حولها وحول الجبل الذهبي ، اني جوّاب آفاق ، طوّاف بحار، فلطالما دغدغت الرياح شراع سفينتي في البحر الاسود وحيال شواطيء بلاد العرب ، ولطالما زرت جزائر الفيليبين ومدغسكر . ولقد علمتني اسفاري ان الشمس لا تنير الهند وحدها بـــل تضيء على الارض جميعاً ، ولا هي تطوف حول جبل واحد ، بل ترتفع في الشرق البعيد فيما وراء جزر اليابان وتغيب بعيداً بعيـداً وراء اقصى جزر بلاد الانكليز . فمن أجل هذا اطلق اليابانيون عـــلى بلادهم اسم « نيبون Nippon » اي « مولد الشمس » . أنا واثق مما اقول ،فلقد سحت كثيراً وسمعت كثيراً من جدّ لي بلغ في تجواله أقصى زوايا البحر .

وأراد الربان المصري ان يستمر في الشرح ، ولكن انكليزياً من بحارة سفينتنا قاطعه الحديث فقال :

ــ ما من اناس يجيدون معرفة حركة الشمس اجادة سكان بلاد الانكليز. ان كل انكليزي يعرف حق المعرفة ان الشمس ، لاتشرق ولا تغيب ، ولكنها تظل دائرة أبداً حول الارض. وليس أدل على هذا من اننا طفنا العالم باسره ، فلم نصطدم بالشمس بل كنا أنى

ذهبنا ، نجد انها تظهر في الصباح وتستتر في العشية

ثم أخذ بيده قضيباً ورسم على الرمل دوائر وحاول ان يشرح دوران الشمس حول الارض ،فأعياه ذلك ولمح في تلك اللحظة ربان السفينة الانكليزي فأشار اليه وقال :هـــذا الربان اعرف مني بحقيقة الأمر فسيتولى عني ايضاح ما غمض عليكم .

وكان الربان رجلاً فطناً وقد لبث صامتاً طيلة الحديث . فلما توجهت اليه الانظار وسأله رفاقه ان يتكلم قال :

– ان كلاً منكم يخدع نفسه ويضلل رفيقـــه . فان الشمس لا تدور حول الارض ، بل ان الارض هي التي تدور حول الشمس وحول نفسها أيضاً ،فلا يمضي على هذه اربع وعشرون ساعة حتى تواجه الشمس في اليابان والفيليبين وسومطرا وفي افريقيا واوروبا واميركا وفي بلدان غيرها كثيرة . فانتم ترون ان الشمس لا تقتصر منفعتها على جبل او جزيرة او بحر ، حتى ولا على الارض وحدها ، بل هي تشرك في الضياء سيارات كثيرة غير ارضنا هـــذه . ولو رفعتم بانظاركم الى السموات العلى ، بدلا من ان تخفضوها الى مـا تحت اقدامكم ، لوضح لكم ان الشمس لا تشرق من اجلكم واجل بلادكم فقط ... »

تلك كانت اقوال الربان الحكيم التي اكتسبها من طول تحديقه في السموات ومن تجواله في بحار العالم .

*

فلما فرغ الصيني من سرد قصته قال :

– ما اشبه هـــذا المثل بالأمر الذي اختلفتم عليه ، فان

الخيلاء التي حملت كلا من ربان السفينة في سومطره على ان يدعي ملك الشمس ، واقتصار منفعتها على بلاده ، هي التي تحملكم على ادعاء ملك الله ، واقتصار منفعته عليكم او على اهل مذهبكم . ياشد ما يفرق العجب بين الرجل والرجل . افليست كل أمة تبغي أن تحبس في هياكلها ذاك الذي يقصر العالم باسره عن ان يسعه ؟ وما هو الهيكل ، مهما عظم اذا قيس بالعظيم الذي ابتناه ، الله ، لكيما يضم فيه الناس اجمعين الى معتقد واحد وديانة واحدة ؟

إن الناس ابتنوا هياكلهم على مثال هيكل الله العظيم . فجعلوا لكل هيكل اجراناً ، وسقفاً مقبباً ومصابيح وصوراً وتماثيل ونقوشاً وكتاب شرائع وتقدمات ومذابح وكهنة ... ولكن قولوا لي : أي هيكل حوى جرناً كالاوقيانوس ، وسقفاً مقبباً كالسموات ، ومصابيح كالشمس والقمر والنجوم ، وأي رسوم تماثل الرجال الاحياء المتحابين المتعاونين ؟

اي آثار هي اظهر من آثار هذه البركات التي اغدقها الله على الانسان لسعادته وهنائه ؟ واي كتاب شرائع هو أوضح معاني من الكتاب الذي خط في قالب الانسان ؟ وأي ذبائح توازي التضحية التي يقوم بها رجال هذا العالم ونساؤه اذ يكونون متحابين ؟ واي مذبح شرف حتى ضارع قلب الرجل الصالح ؟

كلما سما نظر الانسان في خالقه ، ازداد معرفة له ، وكلما ازدادت معرفته لله ، ازداد اقترابه منه وتحديه اياه في صلاحه ورحمته وحبه للانسان . فخليق بالرجل الذي يرى شعاع الشمس يملأ العالم أن يترفع عن تأنيب ذاك الذي لا يرى من الشمس الا خيطاً واحداً

من خيوط نورها ، وان يتنكب عن احتقار غير المؤمن الذي عمي فلم يَعُدْ يستطيع ان يرى الشمس اصلًا...

*

تلك كانت أقوال الصيني تلميذ كونفوشيوس ، وقد أصغى اليها من في القهوة معجبين ، فلما فرغ منها بقي القوم صامتين وكفّوا عن التباهي بعقائدهم والتفاضل باديانهم .*

* نشرت في الجزء السادس من مجلة « الكلية » ـ نيسان ١٩٢٥

مراسلات

بين المؤلف وسهيل ادريس

حول

كتاب «نخب العدو»

١

من عادتي ، حين اتناول كتاباً بالنقد ، ان ابـــدأ بتلخيصه واختصاره لأمكن القارىء من متابعة النقد الذي يلي . ولكني لن اعمد الى هذه الطريقة في الحديث عن هذه المسرحية التي بين يدي : « نخب العدو » من تأليف المهاجر اللبناني الاستاذ سعيد تقي الدين . ومرد ذلك ان المسرحية في حد ذاتها تستعصي عـــلى التلخيص ، ولا ريب في ان الذي يصر على عرضها مختصرة يشوهها ويفقد معظم خصائصها . ثم انني لا أود ان احرم القارىء لذة مطالعة الرواية برمتها لانها تستحق القراءة حقاً ، بل تستحق الدراسة .

و « نخب العدو » كتاب ينقسم الى قسمين ، في اولهما مسرحية « نخب العدو » وفي الثانية مجموعة من القصص بقلم المؤلف نفسه واذن فان الاستاذ سعيد تقي الدين كاتب مسرحي وقصاص في آن واحد . فما مبلغ توفيقه في كل من الميدانين ؟

لقد قدم المؤلف لمسرحيته بمقدمة ممتعة حقـــاً ، فيها التماعات

ادبية موفقـــة ، وان كنا نخالفه في ان « النقد فن زائف ومهنة طفيلية ... لانه يوهم صاحبه ولو ضمناً بالتفوق على المنقود » وهذا رأي يكوهه الناقد الحق ، لانـه لايؤمن بصحته ، ولا يشعر به في نفسه . وليست هذه المقدمة وحدة قائمة بذاتها ، فان المؤلف يتناول فيها كل ما يعرض له من آراء في ميدان الادب والكتابة ، وهو لذلك قد وضع لكل رأي عنواناً صغيراً يختلف بالفكر عن سابقه ولاحقه ... فهو يتكلم عن « الدرامائي رجل الشارع » و « لماذا لم تنشأ عندنا الدرامة » و « الادب لايطعم خبزاً » الخ ... وفي هذه المقدمة فصل طريف عن « اللغة » يبدو فيها المؤلف متحرراً ، على انه اذا وجد ان « السندويش » كلمة مأخوذة عن العربية « سندش من السندوش : عشبة خضراوية ورقها كالهنـــدباء ، كانت العرب تضعه بين قطعتين من معجون البلح فيأكلونه » فانه لم يجد لنـــا اصولا عربية لاستعمال فعل « سردن » من « السردين » و « عتليت » وجمعها « عتاليت » عن كلمـــة « Athlète » الفرنسية ، وفعل « تطربش » و « سرغس » و « تمحدل » ... كما اننا لانستسيغ استعمال فعلي « تعذلب » بمعنى استلذ التعـذيب ، و « حلقظ » كان كثير احلام اليقظة ، لان هذا الاشتقاق ، او قل هـــذا « العصير » لم يرد له شبيه في كلام العرب يقاس عليه .

على اننا نكرر ان المقدمة التي تسبق المسرحية ممتعة وطريفة حقاً ، لانها تكشف لك عن كاتب اديب ، غني التفكير والشعور . ويتبع المؤلف المقدمة بفصل عن سيرته ، كتبه بقلمه . ولئن كنت تلمس في هذا الفصل غروراً من المؤلف ، فان روحه الخفيفة المرحة

تبرر هذا الغرور ، بل ان ثقته بنفسه في محلها ...

فالواقع ان سعيد تقي الدين فنان بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، وهو الى ذلك اديب بارع . وقدالتقى الاديب والفنان فيه ، فاذا هو مؤلف مسرحي وقصاص من الطراز الاول .

فاما مسرحية « نخب العدو » فلست اتعدى الحقيقة اذا قلت انني لم اقرأ أجمل منها في ما كتبه ادباء لبنان ، بل ادباء العربية جميعاً ! فانت تعجب كيف اجتمعت فيها كل عناصر النجاح ، وتألبت عليها جميع وسائل التفوق . فاذا انت مسوق الى تلاوتها دون ما توقف . واذا انت تخرج من مطالعتها ، في عينك دمعة ، وعلى فمك بسمة !... لقد نقل لك سعيد تقي الدين في مسرحيته جميع « النماذج » البشرية في لبنان ، سواء منها القروي او المدني ، الطيب او السيء ، والرفيع او الوضيع ، ونقل لك الاخلاق اللبنانية في شتى مظاهرها وآفاقها ، وحشد لك الحادثة المؤسة تهتز لها نفسك جزعاً ، والحادثة المفرحة يضطرب لها قلبك جذلا وحبوراً ، وهو بعد ذلك كله قد اعطاك صورة بالغة الصحة والصدق عن هذا الجبل اللبناني وما يجيش فيه من اختلافات وحزبيات وطوائف وشيع ، وما يقوم بين اهله من احقاد وضغائن ، ومن حب ووداد ، ومن عداوة وصداقة .

ولعل المؤلف شاء الا يرهق القارىء في تلمس خصائص ابطاله فاذا هو يقدم له هؤلاء الابطال محللاً شخصياتهم بكثير من الوضوح والجلاء . فهذه « ام وسيم » تعبد بعد الله ولدها وسيم ، حريصة حذرة يقظة كثيرة الجد ، ذات انفة و كبرياء ، طاهرة من العجرفة ،

وهذا الدكتور نجيب (واليه اهديت المسرحية) تمشط الدنيا فلا تجد له مثيلًا ، وذلك هو راجي البيروتي، الفتى النحيل القلق الضجر صاحب النكتة والدعابة ، وهذا وسيم الحموي ، شديد الثقة بنفسه فوار الطموح الخ ...

اما ميزات المسرحية والعناصر التي كفلت نجاحها فهي :

١ - حسن اختيار الموضوع : هذا النزاع الشديد على المجد بين اسرتين لبنانيتين وذلك الحنق العظيم الذي يكنه - بل يظهره - كل منهما للاخرى ... مثل خالد سيبقى الجبـــل محتفظاً به أبد الدهر .

٢ - روعة الفكاهة والنكتة : وهذا عنصر قوي جـــداً في المسرحية ، وهو يقود معظم الفصول حتى ان بوسعنا ان نقول : ان الفكاهة هي الاساس الاكبر من اسس « نخب العدو »، وهي فكاهة موفقة أبعد حدود التوفيق ، تطلق النفس من عقال الرصانة ، فاذا هو ضحك شديد بل قهقهة يكاد المرء ينقلب منها على قفـــاه . ولا ريب في ان سعيد تقي الدين يقف ، في حقل الفكاهة ، في طليعـة الكتاب الفكاهيين العرب .

٣ - قوة الحوار : فان ذلك الحديث يدور بين الابطال يقوده تسلسل منطقي رائع ، في جمل مقتضبة قوية لا تدعو الى الملل .

٤ - جمال القصة : هي درامة عنيفة ، وان كانت الكوميديا تطغى عليها فهي تنتهي بفصل رائع مؤثر جداً يمثل أجلى صور الصفح والغفران والعفو . ويبدو المؤلف عالم نفس دقيقاً ، لان في حواره تحليلًا عميقاً للشعور الانساني .

وبعد ، فان الرأي الفاصل في هذه المسرحية انها من الروائع القليلة التي صدرت في البلاد العربية . وكل ما نرجوه ان يقيض لها فرقة تمثيلية قديرة تخرجها على المسرح اللبناني ، ولا شك في انها ستكون خير تمثيلية عرضت في لبنان .

*

اما القسم الثاني من الكتاب ، فمجموعة تتألف من احدى عشرة قصة كلها لبنانية من صميم الجبل ، والحقيقة الواضحة ان ابطالها جميعهم مهاجرون ، غادروا لبنان الى العالم الجديد او الى الفيليبين ، ثم عادوا اليه او لم يعودوا . فان فكرة « الهجرة » تطغى على القصص وهذا في الحق واقع المؤلف الذي هاجر الى مانيلا ، فهو اذن يعيش حياته ويقتبس منها ويطابق عليها ، فليس من عجب ان يوفق في هذه القصص ، لانه يكتب عن واقع حياته وحقيقته . وبوسعنا ان نقول ان هذه المجموعة القصصية تشكل لوناً جديداً في الادب اللبناني ، هو أدب المهاجرين الذي يقتصر على المهاجرين . على ان ابطال هذه القصص جميعهم من هؤلاء الاشخاص الذين يحبهم كل انسان ويؤثرهم على سواهم ، لان « الطيبة » اساس حياتهم وعيشتهم واخلاقهم . وكما ان الفكاهة هي العنصر الاساسي في المسرحية ، فهي كذلك في القصص تلعب دوراً كبيراً . والملاحظ ان المؤلف ينعم بحس شديد « للواقعية » ، حس صادق صريح ، لا يحاول ان يكتمه او يخفيه ، بل يجابه به القارىء مجابهة لا يهمه ما عساه ان يكون وقعها على نفسه . وهذا ظاهر في خاتمة قصة « الثلج الاسود » التي تكشف لك عن ان البطلة التي اصبحت عاهرة ، انما

هي تلك الفتاة الطاهرة الجميلة التي تفيض نفسها بالبراءة ، والتي كانت تملك نفس البطل بحبها وسذاجتها . وكذلك خاتمة قصة « دون كارلوس » التي تواجهك بحقيقة مؤلمة هي ان اجمل الفتيات قد اصبحت زوج ألأم الرجال !

ومن القصص التي تستثير بالغ الاعجاب قصة « حمود »، فهي مؤثرة ابعد حدود التأثير ، وهي تدل على ذلك العقوق الذي يلاقيه رجل من اهله وارضه وعشيرته ، بعد ان قضى كل حياته يخدم اهله وارضه وعشيرته. ومثل هذا القول يصح في « شيخ القافلة » التي تمتلىء بالمفاجآت . والواقع ان عنصر « المفاجأة » قوي لدى المؤلف ، وهذا ما يجعل لقصته قيمة كبيرة . وأنا أوصي القارىء خيراً بقصص « صورة أم فريد» و « الشيخ عجاج »و« التجارة شطارة». وتمتاز قصة « الثلج الاسود » بروعة السرد المتسلسل واستدعاء الذكريات الاثيرة وان كانت نهايتها لا تنسجم كثيراً مع منطق الحوادث التي تؤلف القصة . واما « حمار الصف » ، فتفتقر الى حرارة وحيوية لم تعوز سائر القصص ، وقد طغى عليها السرد طغياناً غير يسير .

وبالاجمال تمتاز قصة سعيد تقي الدين بقوة الحادثة وجمالها وبهذه الالتماعات الذهنية الموفقة والبدوات الفكرية التي تنم عن الروح الادبية المستقرة في اعماق المؤلف ، وهي بعد مقتطعة من صميم هذا الجبل اللبناني العريق ، فلئن كان المؤلف يعيش في مانيلا ، ان روحه وحسه وتفكيره معلقة بذروة جبل ، وغنة عصفور ، وحداء راع في وهاد لبنان .

وتسألني عن اسلوب المؤلف ؟ انه اسلوب سهل يسير من غير ركاكة او ضعف ، بل هو الى الجزالة اميل ، وهو مشرق الديباجة متين التركيب . وينعم الاستاذ سعيد بحساسة وصفية ممتازة، وله اوصاف وتعابير تملك النفس بروعتها .من ذلك قوله : « وكنت اسمع جدران نفسه تتهدم » تعبيراً عن الخيبة والغم عند صاحبه ، وقوله « اقتتلت اثوابهم مع اجسامهم » دليلاً على ضيقها،وقوله : « اميركي يتكلم لغة عربية هي لتكسرها كأنها لوح زجاج وقعت عليه بلاطة » ... الخ (اقرأ المقطع الذي يصف فيه عودة حمود الى ارضه ص ٢٨٧)

على انه لا بد لنا من ان نلاحظ ان المؤلف يتبع احياناً في تسجيل الحوار طريقة اجنبية ، اذ يبدأ بسرد الجملة المقولة ، ليقطعها بعد كلمات بغية ذكر قائلها : — ذهبت اليه عند المساء،قال حمود، فوجدته نائماً (مثلاً) وهي طريقة عقيمة، وطريقتنا العربية اجمل واسهل. ثم اننا كنا نحب ان يتفادى المؤلف اخطاء نحوية واملائية وقع فيها كقوله : « العينان الضحوكتان (ص ٢٥٢) وصحتها « الضحوكان » ومثل ذلك قوله « أحب الحياة جموحة » وصحتها : جموحاً — صار له في تلك الزاوية اثنتا عشر عاماً (ص ٢٥١) الصحيح اثنا — الفلق الذي يحملق باؤلئك الخمسة واربعين تلميذاً (ص ٢٦٧) وتصويبها والاربعين —غلام في نحو الثانية عشر من عمره (٢٠٧) الصحيح الثانية عشرة — ١٣٥٠٠ دولاراً : دولار — تثائب (ص ٢٨٩) وتكتب هكذا تثاءب ، وفاجئه (٢٧٩) وتكتب فاجأه الخ ... فعسى ان يتدارك المؤلف ذلك في الطبعة القادمة .

اما بعد ، فانا موقن انني لم أف المؤلف الفاضل حقه في هـــذه الكلمة ، ولعلني أتدارك بعض هذا التقصير حين اسارع الى ارسال تحية اعجاب عميق، وتقدير بالغ الى الاديب اللبناني المبدع الاستـاذ سعيد تقي الدين ، نزيل مانيلا عاصمة الفيليبين، وادعوه بل ارجوه، ان يثابر على كتابة المسرحية والقصة ، لانه لا ريب عـــلم من اعلامها ... فهل نسعد بين حين بتمثيلية جديدة لا تقل روعـة عن « نخب العدو » او قصص اخرى تفوق مجموعـة « الثلج الاسود » جمالا وقوة ؟!*

سهيل ادريس

* جريدة « بيروت » ١٥ تشرين الاول ١٩٤٦

٢

مانيلا ٢١ كانون الاول سنة ١٩٤٦ .

اخي سهيل

اخاطبك باسمك عارياً عن الالقاب، اذ اني شعرت بقربى تربطني بك بعد قراءة نقدك الرائع في جريدة « بيروت » « لنخب العدو » ولو انه اعطي لي قبل اليوم ان اطلع على مثل هذا النقد لترددت في قول « النقد فن زائف ومهنة طفيلية » .

كانت كلمتك مخلصة فطنـــة ، واني لم اقرأ في الذي نشر عن « نخب العدو » ، وفي الكتب الخاصة التي وردتني ، شيئاً يمكن ان يقاس بعمق تفكيرك . فسلمت يداك .

كان بحثك بالرواية بحكم ضيق ذينك العمودين مقتضباً ، ولكنه كان بحثاً نزيهاً ، يفيض طلاوة ، ويظهر ثقافة واسعة ، يشعر القارئ

منه ان صاحب البحث يتكلم في موضوع يفهمه . اكتب لك بعد منتصف الليل ، وفي رأسي مشاكل عدة، منها هـذه الاربعة الاف سرير التي اشتريتها من مخلفات الجيش ، وحوالة مرفوضة من زبون، ورجفة سوق الاقمشة بسبب قرب وصول شحنات يابانيـة . اسرد هذا لاعتذر عن تشويش قد يبدو في هذه الرسالة، ولكني اود ان اؤكد لك ان اعجابي بنقدك لم يكن سببه انه طغى المديح عليه ، وبعد فهل تسمح لي بـ Counter — attack

أ — سندش ، وسندش : هذه « تقريقة » على الاستاذ اسعاف النشاشيبي والمدرسة اللغوية البالية التي يمثلها . اراك لم تعترض عليها حين رددتها الى اصل عربي في كتاب موهوم اسمـــه « الحواشة العزقولية » ولكنك اعترضت على غـير كلمات ، لاني لم اردها الى اصلها العربي . من الذي اعطى الاقدمين امتيازاً حرمنا من اختراع الكلمات ؟ اقول اني استغرب ان ارى رجـــلاً له ادب سهيل ادريس ينكر علينا حق خلق كلمة نحتاجها .

اما « عتليت » فهي كلمة انا فخور بها . عندنا رياضة روحية ، رياضة « Athletics » ورياضة او رياضيات « Mathematics ». يلزمنا كلمة ، واعتقد ان صدى كلمة « عتليت » يفي بالحاجة .

« تطربش » لم اخترعها بل دونتها .

« تمحدل » اعتقد انها لن تثبت على الدهر لانها كلمة جبلية .

« سرغس » قد تموت لانهـــا كلمة بيروتيـة . « حلقظ » و « تعذلب » لم اوفق بهما . واعتقد انه لو ان بين يدي الآن قاموساً

عربياً لكنت احور هاتين الكلمتين الى لفظتين تستحبان . ولكنه يلزمنا ترجمة Day-dreaming

« السادية » : اعتقد انها اشتقاق موفق لـ Sadism

« الغرور »: لقد اصبت في قولك ان في الفصل الاوتوبيوغرافي غروراً . اتدري لماذا ؟ لاني كتبت تلك الرواية في اتعس ايامي . ولقد اثارت الفاقة ، وهيّج ازدراء الناس لي كل ما في نفسي من قوة مقاتلة . كان ذلك الغرور من قبيل تشجيع نفسي والبهورة ، واصارحك انه لم يستقر الغرور بي الى ثقة بالنفس ، حتى رأيت اجماع الناس على الاعجاب بالكتاب .

تقدمة الرواية : لم تكن للدكتور نجيب ، بل ان دور « الدكتور نجيب » قدمته للدكتور المرحوم نجيب الصليبي .

« ولعل المؤلف شاء ألا يرهق القارىء في تلمس خصائص ابطاله الخ .. » عدا عن ملاحظتك ، كتب لي اخي بهيج شيئاً في هذا الصدد . فالذي اود ان اوضحه ، هو ان هذه السير كتبت للممثل لا للقارىء . اردت للممثل ان ينسجم بدوره ويتلاشى به ولم اجد أيسر من الوصول الى تلك الغاية ، من ان اسرد للممثل حياة الدور كما تخيلته وعايشته . اشكرك على اصلاحاتك اللغوية . واعتقد انه من الضروري ان تدفع مطبعة « الكشاف » غرامة مالية على كل غلطة نحوية تظهر في كتاب تطبعه .

في السنة القادمة سيظهر لي كتابان احدهما مهزلة في فصل واحد والثاني مسرحية كبرى . بعد هذا سأنقطع الى الانكليزية .

تأكد اني فرح جداً باني اكتشفتك . تقبل مني شكري الحار واعجابي الصحيح .

سلمت لاخيك

سعيد تقي الدين

على فوقه : لماذا ابحت لنفسك استعمال « كوميديا » وانكرت عليّ استعمال « تطربش » ؟

جريدة « بيروت » ١٦ كانون الثاني ١٩٤٦

حول

القصة في لبنان

- ١ -

اخي سهيل !

تفهم من الحكاية التي ارفقها بهذا الكتاب ان « اشواق » لم تصلني ، وساسرع بابداء رأيي بكتابك ساعة اقرأه .

غير اني أحذرك اني سأكون قاسياً بالنقد لاسباب منها :

١ – انك من الحي المعادي : حي النقدة .

٢ – انك أصبحت لي صديقاً .

٣ – انه ينتظر من الشخص غير العادي ، شيء غير عادي .

ولئن شئت ان تنشر هذه الحكاية ، ففي عنقك جريمة كل غلطة نحوية ، أو صرفية ، أو املائية . فاني اعترف لك ان الذي اعرفه عما تفعل – مثلاً – كان واخواتها وصار واخواتها هو من قبيل الشائعات لا الحقائق .

يدي على قلبي .

سجـل لي اني اول من استعمل هـــذا التعبير ، بدلا من « السلام » أو « اشواق » .

اخوك

سعيد تقي الدين

حكاية سهيل ادريس كما رواها سعيد تقي الدين لحفيده

كنت في مساء العمر ، في عشية ذلك النهار المزمهر من شتاء ١٩٨٤ ، وقد غطت الثلوج مدينة « صهباء » اللبنانيـة ، اذ أفقت هلعاً من رجة على سطح البيت ، فانتفضت صائحاً « ما هذا ؟ ! » . أجابني حفيدي ضاحكاً : « أكلما حطت عـلى سطح البيت طائرة ذُعرت ، يا جداه ؟ ! هذا أبي عائد من الاسكا . والان وقـــد استفقت ، هلا رويت لي حكاية وعدتني بها هـــذا الصباح ، حكاية الرجل الذي حاول القفز من قمة إلى قمة ، حكاية سهيل ادريس ؟

قلت : يا بني ! كان جميلا ذلك العام عام ١٩٤٧ ، وكنت في الشرق الاقصى أتهيأ للرجوع إلى هذه الجنة .

وكان سهيل في لبنان قد بنى مسكناً على ذروة قمة ، وكان الناس يحملون اليه الجديـد من المؤلفات فيجيل في نظره بعضهـا ويقرأ البعض الآخر ، ثم يدعو اليه الجماهير ، فيحدثهم عما قرأ فيمدح هنا وينتقد هناك ، وهو يقيس بالمتر والذراع ويزن بالرطل والكيلو ، يتناوب المكرسكوب والتلسكوب الجلوس على ارنبة انفه ، وفي بعض الاحيان ينفعـل فيرمي بالموازين والمقاييس ، والنظارات ، ويصرخ : « هذا كتاب جميل ! »

— ألم يكن في بعض الاحيان يبصق كما رأيتك تفعل البارحة

حينما جاءك البريد بنسخة من ...

– لا يا ولدي ! في عام ١٩٤٧ كان ادباؤنا يبصقون في مناديلهم وفي عزلة من الناس . كانوا مهذبين ...

– ومن هم غير المهذبين ؟

– من هو في عمرك أو عمري !

وكان هذا الرجـــل هنيئاً في عيشه، يرى الناس يشيرون الى صرحه لئن مروا به ، ويسمع قولهم : « هـذا قصر سهيل ادريس بناه على قمة « النقد » .

وفي ذات يوم ادار نظره فيما حوله، فرأى ذروات غير ذروته، فنزع سترته وشمر عن ساعديه ، وأحكم شد حذائه، وقفز الى القمة المجاورة ، قمة « القصة » .

– وما الذي حـــدا به الى تلك القفزة ، وقد كان سعيداً حيث هو ؟

– ان الناس يا بني يقفزون من القمم لاسباب شتى . فالرجـل تواق ابداً إلى ما ليس يملك . أنظر إلى أبيـــك وهو التاجر الماهر كيف أحمرّ وجهه كبراً أمس، اذ قال لصديقه ان له منطقَ المحامي، واسمع رئيس مجلس الشيوخ الاميركي يتباهى بانه أمير الطباخين . من يزدهي بشهادته الجامعية غير الجاهل ؟

– أكان سهيل ادريس دعيا ؟

– لقد قاطعتني قبل أن أوفي على ذكر الاسباب الـــتي تهيب ببعض الناس للوثوب من القمم. اذ أن بينهم من فقد حاسة التناسب فيخطىء بتخمين المسافة بين مكانه وبين مطمحه. وآخرون يربدون

الغمار حباً بالغمار . وغيرهم ألف النعمة فتبرم بها . وسواهم يرى في الجبل المقابل حقلا لمعوله .

فقاطعني حفيدي ثانية سائلا :

ـ قبل ان تهرم ، هل كنت يا جداه حسوداً ؟

ـ حسوداً ؟ ! ألم أقل لك أن سهيل كان صديقي ؟

ـ ألم تقل لي ان الحسد يكون على أشده بين الاصدقاء ؟

ـ ألم أقل لك كذلك ان بين الناس من له جنيّـــة تحرسه ، ومن شُدّت نفسه إلى رفّاص ، ومن جنّح الالهام قدميـه ، فمن السهل عليه الوثوب من قمة إلى قمة ؟

ـ وهل بلغ صديقك القمة الثانية سالماً ؟

ـ قلت لك يا ولدي انني كنت أتهيأ لهجر الشرق الاقصى . ولم نكن في تلك الايام نتبادل الرسائل بالصواريخ كما نفعل اليوم ، بل كانت الرسائل المستعجـــلة تزجّ في بطون الطائرة ، وغـــير الرسائل المستعجلة ومنها الكتب ، ترسل في البواخر . وقد جاءتني رسالة صاحبي بالطائرة تقول ان مؤلفه « اشواق » في طريقه اليّ ، فدهشت وبهتّ ، وذكرت النابغين الذين هلكوا في مثـــل تلك الوثبة ـ اولئك الادباء العالميين الذين طالما ذكرت لك اسماءهم ، ورحت أضيء الشموع وأبهظ النذور ، واتمتم الدعوات . وحقاً لم يعجبني اسم الكتاب « اشواق » .

ـ وهل العنوان من الاهمية بحيث يستحق النقد ؟

ـ العنوان في غاية الاهمية : يجب ان يكون جذاباً غير عادي . ليته سمى مؤلفه « بحيرة تلتهب » او « فيـــل في ثقب فارة » أو

« طلع الفجر يا طنوس » أو ...

– أو شيئاً جميلا غير عادي مثل « نخب العـدو » أو « الثلج الاسود » أو « لولا المحامي » ...

– صدقت يا ولدي ...

– جدي ... !

– حبيبي !

– تصبح على خير !

– ألا تريد أن تسمع قصة سهيل ادريس ؟

– كلما ابتـــدأت بحكاية تنتهي بالتحداث عن نفسك ، ألا تضجر من الحديث عن ...

– ابداً . « انا » الدنيا « وانا » الحياة ، ولست انت ولا سهيل ادريس بالامر الذي آبه له الا بقدر ما أنتما شطر من نفسي .

فاتني أن أخبرك أن هزة جذل ملكتني اذ وافتني رسالتـه بان ظهر له مؤلف قصصي . فرحٌ ساديّ كمن رأى قاضياً طال أمـــد جلوسه في صدر المحكمة ، يقتعد قفص المتهمين . وطربت ان فتى له دماغ مثقف نيّر هجر قمة النقد ، ففي الادب النقـد يا بنيّ هو مهنةُ من ليس له مهنة . ونحن بالانتاج نقتات ونقوى .

ولقد ذكرت لك ان خبر صدور الكتاب جاءني قبل أن أضع يدي على الكتاب ، فأقف هنا ، وتصبح على خير .

– جدي ! لقد سمعت الدكتور يسرّ في أذن أبي ان قد تقضي نحبك في غفوتك . فلئن أتاك حتفك في هذه الليلة فمن يقص عـليّ بقية الحكاية في الصباح ؟ وكيف أقوى على التثبت من أن وثبة

سهيل ادريس كانت موفقة ؟

قلت : يا بني اقرأ الكتاب .

اجابني حفيدي : اكاد ان اكون اميّاً ، اذ اني لم انهِ دراستي القراءة إلا في الصيف الماضي . فهل في مقدوري ان افهم «اشواق»؟

ـ ان لم تفهم « اشواق » فاعلم انه ليس بمجموعة قصصية وان مؤلفه وقع دون مرماه .

ـ وكيف ادري انه « كتاب جميل » وانا لا اعرف الوزن لا بالرطل ولا بالكيلو ، وما ادري الفرق بين المتر والذراع ، وليس في بيتنا تلسكوب ، ولا مكرسكوب ؟

ـ اتذكر انفعالك لحظةَ التفّتْ اصابعك على الضفدع في بركة الجيران ؟

ـ نعم .

ـ وحنقك حينما عصاك التقاط الجندب القفاز ؟

ـ نعم .

ـ وبكاءك حينما مات كلبك الاسود الكبير ؟

ـ نعم .

ـ واهتزازك اذ رقص ضيوفنا على الحان راديو سان فرنسيسكو؟

ـ نعم .

ـ اذن شعرت وانت تقرأ «اشواق» بمثل تلك الرعشات، فأعلم ان سهيل ادريس بلغ القمة الثانية سالماً .

وساد سكون بان خلاله « مورفيوس » ، فمدّ انامله الناعمة الى جفنيّ ، وما ان غفوت حتى افقت مذعوراً للمرة الثانية اسمع صوت

حفيدي قائلًا : «سؤال اخير يا جـــدي – حينما انرت الشموع ، وايقظت النذور ، وتمتمت الصلوات ، هل فعلت ذلك تمنياً لنجاح سهيل ادريس ؟ »

فاعتصمت بالشخير . وذكرت ذلك العام الجميل ١٩٤٧ حين لم يكن على سطح البيت في لبنان الا المحدلة ، وحين كان الاحفـــاد يوقرون اجدادهم ولا يحرجونهم باسئلة خبيثة .

سعيد تقي الدين

جريدة « بيروت — المساء » ٣١ اذار ١٩٤٧

٢

اخي سعيد

تلقيت رسالتك المؤرخة في اول آذار فسعدت بها واغتبطت سعادتي برسالتك الاولى ، فقد اصبحت من اعز اصدقائي وآثرهم الى نفسي ، على الرغم من انني لم اعرفك ولم اجتمع بك من قبل ، ولكن حسبي اني عرفتك في كتابك « نخب العدو » وصادقتك من رسالتيك اليّ .

ولقد ابلغتني في هذه الرسالة ان كتابي « اشواق » لم يصلك بعد ، وانك ستسارع الى ابداء رأيك فيه ساعة تقرأه ، وستكون قاسياً في نقده... ولست اراني في الحق الا شاكراً لك هذه الرغبة ، رغبة القسوة في النقد ... فانا منذ اصدرت كتابي ، متحرّق لأن أرى من يقسو عليّ في نقده ، فما اجد الا مقرظين لا ناقدين ، مع احترامي وتقديري للذين كتبوا عن « اشواق » !

ولكني – يا سعيد – أراك تستكثر عليّ كتابة القصة، وتخشى علي من قفزة بين قمة وقمة ، كما حدثت حفيدك ذلـــك النجيب إذ رويت له حكايتي كما فهمتها ... واحسب ان حفيدك هذا سيكون له شأن ، لأنه ذكي وطُلَعة ... شأنك تماماً ، ولكني ارجو ان لا يكون في مثل خبثك ! ولكن لعلك تعجلت الامور ، حين قصصت عليه حكاية صاحبنا ... فقد جعلته في حيرة شديدة من امر بطـل حكايتك هذا ، وما من شك في انك – انت نفسك – كنت محتاراً في امر هذا الذي لا تعرف عنه الا انه نشر يوماً نقداً قصيراً لكتابك الاخير ... فهل كان ذلك كافياً لان تعرفه حقاً ، معرفة تبرر لك ان تجعله بطلاً لقصة او لحكاية من وضعك ؟

انا اقول انه كان بوسعك ان تتريث حتى يصلك الكتاب فتقرأه وتعرف بعضاً من شأن صاحبه ، فتروي لحفيدك الذكي رواية اقرب الى الصحة وألصق بالواقع .

ولكن صديقك وصديقي الاستاذ محيي الدين النصولي صاحب « بيروت » يزعم انك قد تسلمت الكتاب ، وقرأته ، ولم تشأ ان تبدي فيه رأيك الا رموزاً واحاجي ، وانك عمدت الى وضع هذه الحكاية لتسجل بعض خيبة في نفسك ، يمازجها إنكار عليّ ان اتطلع الى ما لست املك ، وأنشد ما ليس في مكنتي ان ابلغه ... ومن جميل الصدف ، ان يوافق الكاتب الساخر الاستـاذ المشنوق على رأي زميله الاستاذ النصولي ... وهذا شيء نادر !

على اني لم اقتنع بما ذهب اليه الصديقان لاسباب :

اولها – ان ليس في رسالتك ما يبرر مثـــل ذلك ، بل ان

اشاراتك جميعاً تدل على ان الكتاب لم يصلك وانـــك لم تقرأه ، فاعتقاد بعضهم بخلاف ذلك تحميل لكلامك اكثر مما يحتمل ...

وثانيها – انك صريح جداً ، ولا سيما مع اصدقائك الذين ليس عهدك بصداقتهم بعيداً ... امثالي ! فليس ما يمنعك من مهاجمتي ، لو انك قرأت الكتاب ولم يعجبك .

وثالثها – وهو الاهم ، انك اديب مغرور بادبـه وقصصه ... وهذا الغرور ينبغي ان يدفعك دفعاً الى مصارحة غيرك من الادباء – ولا سيما في ميدانك – باخطائهم ونقائصهم ، ارضاء لنزعة غرورك ، وهذا لم يحدث . غير اني اسارع فاقول : اني لا انكر عليك هـذا الغرور ولا استكثره ، فقد سبق ان اشرت الى ذلك واشدت به ، فانت لست دعياً ، لانـك تملك ما يدعو الى الفخر والاعـــتزاز والادلال ... والى الغرور ايضاً ! ولعـل تعجلك بارسال هـــذه الرسالة اليّ ، تعبر فيها عن خشيتك من ان اكون وقعت دون سرماي ، وقصرت دون مطمحي ، يتصل من قريب او بعيد بهـذه النزعة التي تملأ نفسك .

وإذن فانا موقن انك بعثت اليّ برسالتك قبل ان تقرأ كتابي ، وعلى هـــذا الاساس أود ان اذكر لك او – لحفيدك النجيب – حقائق كان يسعى لمعرفتها كل السعي ، فلا يجـــد ما يرضي به فضوله ..

لقد ذهب جدك بعيداً – يا بني – حين روى لـــك ان ذلك الكاتب قد بنى عـــلى ذروة قمة من قمم لبنان مسكناً ، هو قصر « النقد » ... فان عهده بهذا الميدان قريب جـداً ، وهو لم يجمع

بعدُ من المعدات ، ولم يتوفر له من اللبنات ، ما يجعله يقتنع بان في وسعه بنـــاء قصر والسكنى فيه ... انها ثلاثة اعوام فحسب ، كان يحاول فيها ان يقرأ في بعض الكتب ، يلتمس المتعة والفائدة ، قبل ان يقصد الى الدرس والنقد والتحليل .. ثم خطر له ان يفيد من هذه المطالعة ، فراح يسجل ملاحظات كانت تخطر له بينما هو يقرأ الكتاب ، وينشرها في مجلة عزيزة على نفسه ، هي مجلة « الاديب » ، ولكن هذه الكلمات — على هامش النقد — لم تكن يوماً ميدانه الاصيل ، ولم يعتبرها احد من قرائه ، وقراء تلك المجـــلة العزيزة مجال ابداعه ودائرة فنه ... كان صاحبنا جالساً على الجبل الثاني ، ولا أقول « القمة » الثانية ، كما روى لك جدك ... وكان هـــذا الجبل ، جبل « القصة » بعينه .. فهو منذ ان ولد ، وُلد على ذلك السفح ، وكان يصبو ابداً الى ارتقاء ذلك الجبل .. وقد ظل يجدّ ويعمل ، ويدرس ويطـــالع ، ويستجمع اسباب الفن ، ويستثير مشاعر النفس ، حتى اتيح له آخر الامر ان يبلغ مكانا ما من هـذا الجبل ، فاصدر كتابه الاول ، بعد ثمانية اعوام انصرف فيها كلها الى هذا اللون من الادب . وظل يتربص ، تملأ الخشية نفسه ان يكون قد زلق او سقط في حفرة ، فتحطم جسمه وتبددت آماله هباء ، وطارت جهوده شعاعاً .

لقد خدع جدك عن نفسه ، حـين اراد ان يعتبر صاحبنا ذاك جالساً على قمة « النقد » .. فهو لم يحاول كما ذكرت لك الا محاولة يسيرة في المطالعة وابداء الرأي على هامش النقد .. بيد ان هـذه المحاولة نفسها كانت محدودة جداً . فصاحبنا لم يتخـذ النقد مهنة ،

وانما كان يتناول الكتاب الذي يمت الى ميدانه ، ميدان القصة ، فيطالعه ليستفيد ويستزيد ، غير ان ذلك لم يكن يمنعه من ابداء الملاحظات ، فهو اذن لم يخرج من ميدانه .. انها القصة التي تهمه وتعنيه .. وخدع جدك مرة ثانية عن نفسه ، حين تعجّب ودهش لدن بلغه نبأ ذلك الكتاب .. فلو كان معنيا بادب بلاده ، ولو كان متتبعاً لانتاج كتابه وادبائه ، ما فاته ان يلاحظ ان صاحبنا هذا كان من اكثر الكتاب القصصيين انتاجاً في فترة الحرب الاخيرة ، بصرف النظر عن قيمة هذا النتاج .. واذن فان جدك كان مقصراً في رسالته كاديب .. ولو أن صاحبنا لم يكن معتقداً أنه يفهم القصة ويتذوقها ، ما جرؤ على ان ينقد كتاب جدك « نخب العدو » الذي ضمنه أقاصيص جميلة تبلغ حد الروعة أحياناً ..

وبعد ، فهذه حقيقة أحببت أن أوضحها لك ايها الحفيد اليقظ ، وأحب أنك ستأخذها أو يأخذها جدك بعين الاعتبار ساعة يصدر حكمه على باكورتي المتواضعة ، وارجوك ان تثق بان اهتمامي لحكم جدك وتلهفي لمعرفة رأيه يفوقان اهتمامك وتلهفك ، لان جدك أديب قبل كل شيء ، ولانه سيكون صريحاً بل قاسياً كما قال ، ولانه ليس حسوداً ، ولو انه صديق ، إذ انك رأيته غير مرة ينير الشموع ، ويبهظ النذور ويتمم الصلوات . وما احسبها الا دعوات لي ، لا عليّ .. بقي أن أدعوك إلى العناية بجدك واحاطته بجميع ضروب الاهتمام والرعاية ، فهو يملك ثروة كبيرة .. ولست أقصد الثروة التي تقدر بالمال والدراهم ، وانما الثروة الادبية .. ومهما يكن من امر ، فارجو الا تلهيه أشغاله

المادية ، عن أشغاله الادبية ، وعليك انت أن تحثه دائماً على الانتاج والكتابة فجدك سعيد تقي الدين أديب بالدم والروح ... وانا بعدُ منتظر رسالته في نقد الكتاب فعسى الا يطول الانتظار . *

سهيل ادريس

* جريدة « بيروت المساء » ٣١ آذار سنة ١٩٤٧

جَوْل

کتاب «اشواق»

— ١ —

مرحبا سهيل !

هل سمعت بـ « حمى الذهب » ؟ تلك التي تلهب وعي المصاب بها ، فيجازف بما فوقه وتحته مطلباً المعدن الاصفر ؟

فشت تلك الحمى في « مانيـــلا » عام ١٩٣٦ ، وكنت انا من صرعاها . ولقد صحبت مهندساً اميركياً في رحلة الى الغابات نفتش عن الذهب ، فكان المهندس يكسر الصخر بمعوله الصلب الصغير ، ويصوّب مجهره على الشظايا فيحدّق بهـــا ، ثم يهز رأسه ويمشي . ومرة اذ كنا نأكل على ضفاف غدير ، قفز المهندس وانتشل حصاة من الماء ، وصوّب مجهره اليها ، وراح يضرب بذراعيه على جانبيه فرحاً ويصيح كأنه ديك يصفق بجناحيه :

— انظر ان هذه الحصاة تحمل ذهباً . لئن كان الذهب في الغدير فالذهب في الجبل . هذه الحصاة لم تمطرها السماء ، ولكنها انشطرت عن صخور بالذهب حبلى . قد تكون صخور التبر على بعد شبر منا ،

وقد تكون على بعد الف ميل . ولكن الذهب موجود بلا ريب . علينا ان نهتدي اليه .

في كتابك « اشواق » لم ألق منجم ذهب ولا عروق تبر ، ولكني وجدت الكثير - اقول الكثير - من الحصى حوامل الذهب . فهل تهتدي الى المنجم في غدك ؟ او بعد عشرة اعوام ؟ لا ادري ! هذا سؤال لن يجيبه سواك .

ان غايتي في هذه الرسالة ان ادلك على اقصر طريق بين الحصى والمنجم . ولئن كان قد ساءك من الكتاب عدم رواج ، او فتور من النقدة الذين المخلصين ، فليس لانك عديم الغنى ، بل لان هذه الحصى حوامل الذهب ، لا يراها الا المهندسون .

واني الان وقد استللت « أشواق » من « تزمين » بضعة شهور ، أشغفُ به مني حين قرأته لأول مرة . وهذا اصلب دليل على جودة عناصره .

ما هي القصة ؟

القصة كما افهمها ، هي حادثة غير عادية محتملة الوقوع ، تسرد باسلوب جذّاب سهل ، وتنتهي بمفاجأة حلوة معقولة . لئن وجدت هذا الوصف في كتاب ما ، فلك ان تصدقني انه من قبيل توارد الخواطر ، ولك ان تسيء الظن . بالطبع في وسعك ان تأتي بـ ٤٦٢ وصفاً آخر . لن اجادلك ولن اقاتلك ، ولئن سحبت عليّ مسدسك . فانا منهزم . هكذا افهم القصة ولك ان تفهمها كما تريد . واني أرى قصصك في « أشواق » اكثرها حوادث غير عادية ، ولكنها

غير محتملة الوقوع . خذ مثلين : فتاة تقتني كلباً تدلله، لن تنهال عليه بهراوة غليظة كما فعلت فتاتك في « هي وكلبها » . ومثل تلك الفتاة لم يكن في متناولها هراوات ... كذلك لا افهم لماذا رمت فتاة « بوارج » بنفسها منتحرة في « راحة الضمير » .

اقرأ في صحف بيروت انكم اقمتم للشيخ ابراهيم اليازجي حفلة . اني إخال اليازجي يحوم طيفه فوق المحتفلين به ويقهقه هازئاً « لماذا هذه الحفلة ؟ » ان النثر العربي اليوم — هذه السنة — في أوجه . ان اياً ممن ينشر المقالات في « الاديب » او « الصياد » لهو اغنى واصفى في نثره من اليازجيين ، وانت يا سهيل ادريس ، جزل ، جميل العبارات ، مليونار الفاظ ، ولكنك كأكثر كتبتنا، فقرك في غناك . اذ ان هذه الثياب الانيقة من الفاظ وتعابير وعبارات تصرفك عن ترويض جسدك فتكتفي بجمال ما يعلوه من ثياب ولا تطلب في الجسم صلابة عضلات .

خذ هذا الازدواج المعيب الذي يكاد لا يتفلت منه اي من كتابنا . اني انقل اليك بعضاً من عباراتك المزدوجة فيما انا اقلب صفحات كتابك: « خوالج النفس ، ورغائب الروح » (ص ٨) . اطفئت عيناه فهو لا يبصر (ص ١٠) . اذا اطفئت عيناه فهو طبعاً لا يبصر !— « ... سراً يستكن بين جنبي هذا الشاب، وينطوي في جانحتيه »— « فرق وفزع » (ص ٩٩)— « مطمئنة اليه كل الاطمئنان سعيدة به غاية السعادة » (ص ١٦) — « من حب وود وسرور ورضى » (ص ٤٥) — شذى وعطراً . (ص ٢٥) رويدك ! اراك انفعلت . تريد ان تقول لي انك لست من عبيد التقاليد . وان الازدواج لا

يركب قلمك . تريد ان تشرح لي الفرق بين «الاطمئنان والسعادة» و « الحب والود » ؟ قبل ان تفعل ذلك، هلا افهمتني الفرق بين ان يصمت وان يسكت ؟ (ص ٥٦) . غريب ان لم يقم قبل اليوم ناقد — فيما اعلم — ينادي بنا ان اقتصدوا بالكلمات واقتطعوا هذه العبارة الثانية التي هي في نثرنا في معظم الاحيان ترديد للعبارة الاولى يستغنى عنه ، هي صدى السجع الذي مرض به الادب العربي في أسقم ايامه. (كان في وسعي ان ازاوجها : « وبلي به في زمن نحوله) .

وفضلا عن الازدواج، فاني أراك تؤمن بان اي كلمة غير مألوفة هي كلمة حبيبة . لماذا « تصرمت » ايام ؟ (٢٧) اي اجمل : «تصرمت» او «مضت» و «ولت» او «فاتت» و «انقضت » ؟ ثم لماذا «زجيت» لدى صديقك في كيفون تسعة ايام ؟ لماذا «زجيت» لماذا ؟ ما عيب «قضيت» او «صرفت» او «انفقت» او «لبثت» او «مكثت»؟ ما عيب هذه الالفاظ غير ان الناس كلهم يفهمونها واننا ربينا على خطأ ان البلاغة هي في كتابة ما يصعب فهمه ؟

ولماذا تحدث الامور في كتابك في « ذات اصيل » و « رأد الضحى » ؟ ومن هي هذه الفتاة البيروتية التي تريد ان تتعلم الكمان ثم هي لا تزال « تتعثر باذيالها » (ص ٩) ؟ اذا كان في بيروت مثل هذه الفتاة، ارسل لي عنوانها فاني اريد ان اتبرك بتلك الاذيال !... ثم قل لي أحقاً حينما صيفت في بوارج كنت تطالع « اذا شرعت طيور الدوح تصدح » ؟ على علمي ان كل الطيور الصداحة في لبنان هجرت الدوح وعشعشت في قصائد بشارة الخوري !...

تراك ذكرت اني وعدتك بنقد قاس ؟ ربما . وقد تكون انت القاسي على نفسك، لانك بين فتى « يصمت ويسكت » و « ايام » « زجيتها » وامور تحدث في «ذات اصيل» وفي «رأد الضحى» وبيروتية « تتعثر باذيالها » ومطالعة « اذا شرعت طيور الدوح تصدح » - قد خلقت جواً مصطنعاً يوهم القاريء لاول وهلة ان ليس هنالك من قصص ولا مواهب، بل ان احد غلمان المنفلوطي يغامر بنشر كتاب !...

ولئن آلمتك هذه العبارة ، فليفرحك ان تنظر الى نفسك في اللحظات التي اعتقت بها قلمك من العبودية اللفظية . ما اجمل اللذة الكبرى « وشعرت بلذة تقطر من اسناني» (ص ٧١) يا جميل! هذا أدب ! وما ابدع وصفك للفتى «ظفر بفتاة وهي خجلة مستسلمة ، وحين استقر بها المقام نظر اليها وفي عينيه بريق النصر ، وعلى شفتيه بسمة متكبرة، واذا هي تغضي وتصرف نظرها عنه » . وحين علوت بقارئك الى الاثير في « سراب . سراب » لقد بلغت الابداع بامر بسيط - اعادة لفظة عذبة (ص ١٢). وهات لي كأساً اسكر منها وصبّ لي فيها « ليس يهمني ان تحدثني عنك ، فانا اراك بملء عيني » .

ولكني ارى اني لم أدلك بعد على الطريق المختصرة، ولااشرت الى الحصى حوامل الذهب . فلنبدأ إذن الامور من اولها !

عنوان القصة

عنوان القصة ، يجب ان يكون ، عدا عن جماله ، لغزاً . لم

تكن موفقاً في عناوين قصصك . لقـــد دنوت بـ « صراع » من النجاح . ولعل الخيبة في العنوان كانت عـــلى اوضحها بـ « تذكار ثورة » . وهذه القصة هي اقرب الى « مقالة » منها الى قصة . لقد سميتها « تذكار ثورة » ثم اظهرت العكاز تحت إبط الفتى . ومن غير ان تمنح الايام قارئك بشهادة جامعية من اكسفورد ، او يجود عليه كرم الدهر بان يولد في « بعقلين » ، يفهم من غير ان يقرأ الحكاية ان القصة هي حكاية فتى جرح في ثورة او كسرت رجله . حـذار حذار ان يفضح عنوانك قصتك !

لقد كان أبواك سليمي الذوق اذ دعواك « سهيل » ، وان جدك الاعلى كان موسيقياً حين اختار « ادريس » له اسماً . ان لك اسماً موسيقياً تحسد عليه . فلتكن عناوينك الغازاً موسيقية . انني أسائل نفسي أكان جبران خليل جبران اصاب هـذه الشهرة لو ان اسمه « قزحيا مطانيوس بو غنطوس ؟ »

العبارة الاولى : اول عشرين كلمة من اي خطاب او مقـالة يجب أن تكون جذابة تلصق عيني القارىء بالكلمات فلا تستطيعان الزيغـــان عن الصفحة . لو ان نثرك طهر من منفلوطيته لكان في هذه « الطلعات » نجاح عظيم . ان ابتداء اتك جميلة قوية فيها نفَس الاديب الموهوب .

الموضوع

تلاحظ ان من يحاول تعلم سواقة الاوتوموبيل ، لا يبـــدأ بالزواريب . كذلك ترى ان البادئين من القصاصين يكثرون من

احاديث الغرام ، والموت ، والانتحار . الحياة فيها غرام وموت وانتحار . ولكن اساطين الفن لا يطلبون المواضيع في الطريق العريضة الكبرى . وهم لئن عالجوا هذه المعضلات الاولية ، جعلوا لقصصهم « لفتات » غير مألوفة .

ان قصص « أشواق » هي من صالون الحيـــاة ، لا من زوايا غرفها .

العبارة الاخيرة في القصة يجب ان تكون قنبلة ذرية تنفجر بين عيني القارىء جملة قصيرة حبّلها كلها ديناميت . لو ان احداً قرأ عليّ عباراتك الاخيرة في قصص «أشواق» من غيرأن يتلو القصص لقلت ان مؤلفها قصاص عالمي . ان معظم حوامل الذهب وجدتها في نهايات حكاياتك .

الصنعة

ليس في الدنيا من ليس عنده قصـة . قليل من يعرف كيف يرويها . خذ أي اثنين يخبرانك حكاية ما . تقهقه للواحد ،وتتثاءب للاخر ، والحكاية هي هي.

انت تعلم ان التاريخ ذكر العظـــام من جنود يلهمون رسم خطط المعارك ، وآخرون تقصر مقدوراتهم على تنفيذ الخط . انما الجندي الخالد هو من يبدع في رسم الخطة ويحذق تنفيذها .

وفي القصة يعوز الراوي اما سليقة العبقري ، أو ميكانيكية صناعة الدارس . واني لاظلمك ان قلت انك عديم السليقة . امـا الصناعة فلقد فتشت عنهـا في كتابك فلم أجدها ولم اجدلها من أثر .

هاك مثلاً في « نداء الاعماق » : حينما وضعت اصبعك مشيراً الى الموجة ثم اعدت الاشارة الى الموجة – حينما فعلت ذلك فضحت نهاية القصة . ان أي قارىء يدرك من توجيهك الاشعة على الموجة ان القصة ستنتهي بانتحار ، ومتى فهم القارىء نهاية الحكاية ، فلم يعد هنالك من حكاية .

لقد صدقت حين أتهمني بانني أجهـــل محاصيل الادب العربي في هذين العقدين . لذلك لا أعرف أي مكان يشغله « سليم بطي » في هياكلكم الادبية . فلقد جاءتني مجلة « الاديب » بعدد منذ شهور فيه قصة بقلم « سليم بطي » . العدد ليس بين يدي ، واني لا أذكر عنوان القصة ولكني أقول لك أنه يكفيني أن أقرأ هـــذه القصة الواحدة لاحكم ان سليم بطي قصاص . ان تلك القصة هي في مستوى ما ينشر في (Saturday Evening Post) والتي يقبض مؤلفوها عليها ٦٠٠ الى ١٥٠٠ دولار . انما صاحبنا تعوزه الصناعة . اذ أنه وقع في مثل الفخ الذي وقعت فيه أنت . كان في قصته قناة ماء فسلط عليها كل الانوار الكهربائية وهكذا فضح قصته فقتلها .

ان لبطي جرأة المتجدد ، أو ثقة نفس المقتدر . إذ أنـه سرد حكايته بلغة سهلة التركيب وكلام مألوف . ولروايته انسياب النهر السائل بهدوء – ذلك الانسياب الذي يجب أن يلازم سرد القصة . ألعن ما يركب القصاص هو « التدحرج » . وما دمنا نتحدث عن قصته ، فخذ نهايتها الجميلة إذ تلتف أصابع ذلك المقعد أو الاعمى على عنق النذل فتدقها . نهاية جميلة غير منتظرة . هكذا ينهي القصاصون الحاذقون حكاياتهم . القصاصون الحاذقون . أما « براهمـــة »

القصاصين فيجعلون لها نهاية تنهض بتلك القصة من الجميل العادي إلى الابداع العبقري ، وهم في ذلك لا يشردون عن وقائع الحياة أو حقائق العلم . ذلك المقعد بين يدي قصاص عبقري ، كان مشى ، ولو لم أخف التطويل لاتيتك بشواهد من الحياة ، واستشهادات من البسيكولوجيا أنه في الازمات الكبرى تحدث العجائب .

الصناعة هي أن تمشي بقرائك إلى جهة مجهولة يعتقدون أنها مثلاً ، طرابلس ، وحينما تقف بهم في النهاية — تلك الوقفة الجامحة ، يتلفتون فاذا هم في دمشق . فيبتهجون ويقولون : حقاً لقد كنا في طريقنا إلى دمشق . كيف لم نفقه هذا ؟ ما أسعدنا أن وصلنا إلى دمشق !

الصناعة هي أن تدس الحادثة التي تريد ان تستغلها بين كثير من الحوادث بحيث توسخ في عقل القاريء الباطن ، من غير أن ينتبه اليها . ولكنك حين ترجع الى استثمار تلك الحادثة او الصورة أو العبارة ، تقفز تلك الحادثة أو الصورة أو العبارة من العقل الباطني وتنسجم بما تريد ان تستغله .

حتى تقوى على « الدس » المنسجم في حادثة القصة ، يعوزك خفة أيدي نشالي مرسيليا ، وذرابة بياعي الكرت بوستال في بورت سعيد ، ووداعة المرشحين قبيل الانتخاب ، ومراوغة الف ثعلب .

التفاصيل في القصة

ومن عناصر الصنعة انتباهك إلى التفاصيل . ذلك الاستاذ لم يجي تلميذته بـ« بونسوار أيتها الآنسة » . لقد قال لها إما « بونسوار

مدموزال » أو « مساء الخير ايتها الآنسة ». أحقاً أن القرويات في الجبل اليوم يبادئون المصيفين التحية ؟ وتلك الام – هل جادت بتلك العبارة الخالدة عن الموجة على فراش الموت ؟ ابتعد عن مثل هذه السذاجات . إن الناس لا يفوهون بالعبارات الخالدة على فراش الموت . خذ « مهاتما غاندي » و« جلال زريق »، انهما يفوهان بالعبارات الخالدة ، ويأتيهما الوحي – في بيت الخلاء. ان لم تصدق فاقرأ سيرة المهاتما وأسأل جلال . هو منك على ضربة حجر . اني أعلم علم اليقين عن احد رجالات لبنان في العهد الماضي، رجل ملأت صوره واحاديثه الصحف والمنازل. أتدري ما كانت كلماته الاخيرة على فراش الموت ؟ – « آخ على صحن مهلبية » ! ...

ومن عناصر الصنعة ايضاً ان تخلق في القصة جواً حقيقياً . ذلك المعلم في « ظامئات » وصفته بانه « فارع » ، ولقد استعملت كلمة « فارع » لانها كلمة غير مألوفة ، ولانها مثل « ساهم » هي موضة كتابية في هذه الايام . لو كنت طليقاً من رق الالفاظ ، لانتبهتْ فيك سليقة القصاص ، ونظرت الى ما وراء المعلم في « ظامئات » فبصرت باللوح الاسود، وقلت ان انف المعلم يعلو حافة اللوح العليا .

هكذا تضع قارئك في تلك الغرفة . اذاً فحينما تؤلف حكاية عن بقال كبير الانف – فمنخاره اكبر من اي من خياراته ، اوسائق سيارة نزق الاطباع فاخلاقه مثل زمارته ، لا يأتي منها إلا الصياح ، او أردت ان تصف فتاة تذرع المروج في شهر ايار فقل ان الاعشاب كانت في علو ركبتها . هكذا تغمر قارئك بواقعية

الحوادث وتزجه في جغرافية حكاياتك ، فينسى نفسه ويروح يصدق ما انت له راوٍ .

قصة المرآة

ان اجمل قصة قرأتها حتى اليوم هي « المرآة » . خلاصتها ان فتاة تزوجت عشيقها وكانا في فقر ، غير انهما سعيدان. كانت الفتاة فتانة الجمال ، وكان زوجها يرغب في ارضائها . وبعد شقاء سنوات ، ادخرا شيئاً من المال . فاراد الزوج ان يهبط لندن من كوخهما في الريف ، فسأل زوجته اي حاجة تريد ان يهديها . اجابت « مرآة ». ورجع الزوج من لندن فرحاً بمرآة كبيرة وضعها في اعلى درج البيت . فلما تطلعت بها الزوجة تحققت لاول مرة ان جهاد السنين صيّر منها عجوزاً شمطاء .

لو ان هذا المؤلف سمى قصته « المرآة الغادرة » لكان فضح القصة ، فقتلها . ولو ان رشيد شقير نقدها لقال ان فيها « حشواً واسهاباً » اذ ان المؤلف مهّد لهذه الحادثة الضئيلة ببضع صفحات . في هذه القصة ارى رشاقة الدس او «الزرع» في اعلى ذراها . اذا لم تكن قرأتها بعد فاقرأها .

امومة

بين يديك يا سهيل شيء من مثل مواد « المرآة » . خذ قصتك « امومة » . خلاصتها ان اماً ثكلت وحيدها مرتين . شيء بديع . شيء جميل مبتكر . هذه حجارة يبنى منها ناطحة سحاب ، واراك

قد عمرت منها كوخاً متصدع الحيطان . هذه التيم (تعريب Theme) بين يدي ماهر الصنعة يحوك منها قصة عالمية . لو انك مهدت لها بحوادث معقولة مثل : ان يسمع الفتى جارته الثكلى تنوح ، فيثير نواحها حنينه الى امه ، ومثل : ان ترى الارملة الفتى ثم تحلم تلك الليلة بابنها ، ولكن بابنها لابساً وجه جارها : شيء معقول . فالعلم يثبت ان الصوت يوقظ الذكريات (ولكن الرائحة افعل بايقاظ الذكريات ، اذاً فلينشق رائحة العطر من جارته الثكلى او رائحة طبخة كانت امه تجيد صنعها او ... اي شيء يسوق إلى النهاية) . اما الام التي فقدت وحيدها مرتين فهي ، على ما يظهر من بيئتها ، امرأة جاهلة تؤمن بالاحلام . ومن الطبيعي انها في مصيبتها كثيرة الاحلام ... شيء من هذا .

قصة « هي وكلبها »

اسمع في « اشواق » هدير ارض باطنياً ، فاتطلع فلا ارى حمما ولا دخاناً . « هي وكلبها » طيبة الصلصال ، قبيحة التمثال . لو ان الفتاة أحبت من الفتى عنترية جسمه ومظاهر الاقدام فيه ، وفيما هو يقبلها القبلة الاولى فاجأهما الكلب بنباحه ، فذعر العاشق وهرب والكلب راكض في اثره ، والحبيبة تقهقه ، وهكذا انتهى الغرام ، لكان في مثل هذا « قصة » . اولا : الحب في نظر السذج هوحب . اما في نظر براهمة الادب فهو الف نوع . اذاً فانت حين تقول انها اغوتها في فتاها مظاهر العنترية ، دخلتَ في صفوف البراهمة . ثم انه من الطبيعي ان ينبح الكلب اذا رأى صاحبته في ذراعي رجل .

ومن الحقائق العلمية ان الخائف تنبعث منه رائحة كريهة لا تشمها غير الكلاب . وان الكلاب تتقزز نفسها اذ تنشق هذه الرائحة فيشتد نباحها وتهيج . هكذا يمسي في قصتك ١) حادثة فكهة قوية ٢) فضح الذين لهم مظاهر الرجولة ولكن فيهم قلوب الارانب – جورج برناردشو الف كتاباً طويلاً عريضاً يثبت ان الملاكم المحترف هو جبان – ٣) الهزء من الفتيات المغفلات اللواتي يولع غرامهن بوهم وينطفيء بحادثة تافهة – ٤) ان الكلب ،صديق الانسان الاوفى ، في غيرته على صاحبته ، كشف لها مزيف المظاهر التي اغرتها .

واني اشجعك على كتابة القصة الحيوانية اذ ان الحيوان يلعب دوراً مهما في حياة الانسان . كذلك في هذا اللون من الادب فائدة اجتماعية . لكنا شعباً أقل فظاظة ولكان احتكامنا الى المسدسات اقل ، لو اننا ندلل الكلاب بدلا من ان نرميها بالحجارة . ولا تنس أن من أجمل ميراثنا الادبي ما قاله الاولون في حيوانين – الجمل والحصان – .« هي وكلبها »تقدران تدور بها عشرين دورة وتجعل منها عشرين قصة . ان هذا ما يثير حنقي عليك . اجيل نظري في بضائعك فارى فيها الكثير من الجيد النادر ، ثم اتطلع في حانوتك فاذا الملفوف فوق أثواب الحرير ، وقشر البطيخ في جوار كلسات النيلون (عفوك عن هذا الازدواج) !

القصة والموسيقى

ليس من فنين تشابها مثل القصة و « الصوناتة » . استمع

لصوناتة من بتهوفن - تشعر ان النقرات الاولى توقظك في رفق أو عنف ، ثم تهزك وتتماوج بك (حشو واسهاب في نظر رشيد شقير) ثم تندفع بك في صخب وجلب ، ثم تهتز في وقفة جامحة . هذه هي القصة التي يربط أولها بآخرها خيط هيولي ارق من غزل بشاره الخوري .

مستقبل القصة العربية

إني متفائل بالمساهمة التي سيقدمها كتبة العرب في أدب «القصة» العالمي لسببين ، اولهما اننا قوم ملهمون كسالى . والقصة ، على عكس الدرامة والنوفل ، تحتاج الى جهد قليل . والالهام ملازم للابداع ولنا من الالهام حظنا . ولكن حذار ان يحاول الواحد منا قطع « المانش » قبل أن يصبح في مقدوره أن يطفو في البركة !

أما السبب الثاني الذي يهيب بي أن اتفاءل في مستقبل القصة العربية ، فهو ان العرب منتشرون في بقاع مترامية الاطراف تكاد كل بقعة منها ان تكون دنيا ليس بينها وبين الثانية شبه - « البسطة » « دير مشموشة » « خيام الرولة » « عزب دمنهور » « السويدا » « حي السراسقة » - الله الله ! كيف لا تشبه الواحدة الثانية !

ومن كنوز هذه الدنيوات ستغتني اللغة العربية وتغني الادب العالمي . هذا اذا استوحى الكتبة الحياة لا الكتب فحسب . وان هم لم يشرعوا اقلامهم ولم يمدوا طاولات الكتابة في صالون اموات

مصطفى لطفي المنفلوطي .

التضخم الاطرائي

ان اكبر نكبة على اقتصاديات اي بلاد ، هي التضخم المالي ، وفي معتقدي ان اعظم مصيبة على الادب العربي اليوم هي «التضخم الاطرائي» ، ولا ادري ان كان اعجبك هذا النقد لكتابك ولكني واثق ان ما فيه من مديح دفعته لك دولارات اميركية ، وذهبيات « ام حصان» ، وعندي انك اغنى بهذه العملة منك بملايين الدولارات الصينية . يهمني جداً ان تحبني ولكن يهمني اكثر ان تحترمني ، واني لاؤثر أن أهمزك الى العمل بكلمات مؤلمة من أن اقتلك رويداً رويداً بشيء تستلذه أنت وأستلذه انا ويستلذه الناس اجمعين : هو مورفين المديح .

اخرج الى الحياة

اخرج الى الحياة وعبّ منها . ان ابراهيم حيدر ما كان جاد على العربية بتلك العبارة الخالدة «الوزارة نائمة على الثقة» لو لم يكن مارس من الحياة ناحية لعبة البوكر . نوّع حياتك . انت مسلم تصلي في الجامع كل يوم جمعة . عال ! رح الاحد القادم الى الكنيسة واحضر القداس وانشق عبير مبخرة الكاهن ، واصغ الى الترتيل في اللاتينية . ان تجويد القرآن وأذان المؤذن يغسلان الروح ، رح اختبر ما يفعله لروحك بخور الكنيسة . كيف تأتي الى المكتب ؟ ماشياً ؟ تعلق بالترامواي مرة بعد مرة ، واركب التاكسي في بعض الاحيان !

تعلم الرقص ! غنّ المرسلياز ! اركب على حمار ! تبادل الشتائم مع طنبرجي ! رشح نفسك للنيـــابة ! ادخل في الكتائب ! انضم الى النجـادة !

انسحب من الكتائب ! استعف من النجـادة ! افتح دكان بوظة في البادية ! هرّب اسلحة ! تاجر بالحشيش ! تضارب مع عبـد الستار الطرابلسي ! ترحم على الانتداب بقصيدة ! ادرس اللغـــة السنسكريتية ! تزوج ! ابق اعزب ! ادخل في الاطفائيـة ! احرق اثاث البيت ! قامر في سباق الخيل ! سمّم جيرانك ! انتحر ! اسهر الليل كله ! نم النهار كله ! اقفز من النافذة ! امش حافيـاً ! امش عارياً ! الف كتاباً ! لا تؤلف كتاباً ! احمل السلم بالطول ! احمل السلم بالعرض ! تبرع بدمك لمريض ! الق قنبلة على مستشفى !

هذه هي الحياة فعبّ منها . انما امراً واحداً ارجوك ان لا تفعل – وهي ان لا تسأل اياً من الناس رأيه في كتابك . استشر ما تشاء ومن تشاء قبل ان ينشر الكتاب ، اما متى ظهر فافعل ما يفعله القبضـــاي بمسدسه – لوّح به في الفضاء وصح : « الكل بيخدموك » .

وان في كتابك الكثير من الفضائل السلبية . مثل انـــك لم تحاول اغتصاب النكتة . فان الكثيرين من ادبائنا اليوم يتوهمون انهم متى ذكروا اصطلاحات عامية ، او وضعوا بعض كلمات بـــين أهلة ، او رووا نكتة ضحك لها من قبلنا جدنا آدم ، صاروا كتبة فكهين .

واني من المؤمنين ان الفن يعلو ولا يعلى عليه . ولو اني ايقنت

انك مجلّ في ميدان التبذّل والتهتك ، لما سألتك ان ترعوي عنه . ولكن هذا الميدان ليس ميدانك. انظر الى عبارتك العجراء «لقد ارجعتني ... يا حسني ... حسبتك لا تزال مبتدئاً ... انت حقاً قوي ! » انظر الى تلك العبارة ثم لتنس انها كتبت !...

تصميم القصة

اخالك لا تضع تصميماً لقصصك ؟ هذا غلط ، وهو غلط خطر على كاتب مثلك موفور الالفاظ . ضع لقصتك تصميماً كما يفعل المهندس بخريطة البناية قبل ان يباشر البناء . بالطبع حينما تجلس لتكتب، ستشرد عن الخارطة قليلاً ولكن التصميم ضروري . اياك ان تستشير صديقاً يشتغل بالادب ، قبل ان تشرع بالكتابة . إذ انه اما صديق صديق لا يرى المعايب ، او مخاتل يهدم معنوياتك . حينما تضع التصميم للقصة وتمسي واضحة في مخيلتك ، إروها لاجنبية أو اجنبي يجهل العربية ، وقل له او لها انها قصة قرأتها الليلة البارحة. لا تنتظر منه او منها ابداء الرأي. ان لم يثب او تثب بعبارات الاعجاب ، فالقصة فاشلة . وان لم يكن لك من الاجانب صديق فاروها لاميّ وتبصّر بانفعالاته .

الى نادي البراهمة

امامك، قبل ان تبيضّ لحيتك ايام كثيرة وانتصارات كثيرة، واني لواثق انك نامٍ الى مبتغاك ، وانك واجد منجمك ، وانك في محاولتك القادمة ، ستتأبط كتابك المقبل جواز دخول الى ذلك

القصر القائم بين الغيوم ، ووثيقة عضوية في ذلك النـادي « نادي البراهمة »، واذ تقبل عليه لا يفتنّ عزمك عظمُ ابراج القصر ، فلن تكون هناك غريباً ، إذ سيخف الى لقائك فرحاً بقدومك ، ذلك المزدهي باوسمته، الرافل بطيلسانه ، مَن قامته تَقْزِم ابراج «نادي البراهمة » ومن يطفح بالخيلاء اناء حياته : اخوك

سعيد تقي الدين

ملاحظة : سجل لي هذا التعبير الجديد « براهمة الادب »
(جريدة « بيروت المساء » ١١ آب ١٩٤٧)

- ٢ -

مراحب سعيد !

ألا تشعر أننـــا نكاد نضايق قراء « بيروت المساء » ؟ انت تتحدث عني وعن كتابي، وأنا أتحدث عنك واردّ عليك ؟... مهما يكن من أمر ، فالخطأ – ان كان هناك خطأ – يقع على صديقنـا الاستاذ المشنوق ، فهو الذي فتح لنا الباب ، وأحسب انـــه لن يغلقه هو نفسه ، وانما سيدعنا نتناقش ونتساجل ، وقـــد نذهب إلى أبعد من ذلك ، إلى أن يغلقه أحد منـا أو كلانا ... والضحية دائماً هو القارىء !

وايا ما كان ، فقد كاشفت الاستاذ المشنوق برغبتي في أن أكتب – أنا نفسي – نقداً لكتابي « اشواق » ، بعد أن يئست من النقاد ، ولم أقع على من يشفي غليـلي ، وان كان معظم الذين

تناولوه أثنوا عليه الثناء المستطاب ... أجل هممت بقراءة كتابي ناقداً ، محاولا جهدي أن أتجرد عن نفسي ، واعتبرني اجنبياً عن صاحبه ، فاتتني رسالتك الممتعة البارعة ... ولست أقول إنها صرفتني تماماً عما كنت اهمّ به ، ولكنها بردّت ظمأي ، وهدأت همي ، يراودني منذ خرج الكتاب إلى السوق ... وأما ذلك النقد الطويل الذي كتبته بعد ان أخرجت القصص من التعتيق وقرأتها ثانية ، فاشكرك عليه ، لانه كان صريحاً نزيهاً ، ولانك انفقت وقتاً غير قصير لتدبيجه . واني لارجو أن أكون جديراً وكفؤاً بما سقته لي من التقريظ ، واصارحك القول ، كما صارحت بعض اصدقائي ، انه كان حسبي أن أعلم ان نقداً كمثل هذا سيكتب عن قصصي حتى أكون سعيداً بنشرها .

على ان لي ملاحظات أود أن ارد بها على ما آخذتني به أجملها فيما يلي :

أردت أن تثبت ان حوادث قصصي غير محتملة الوقوع ، فاستشهدت بقصة « هي وكلبها » قائلا : « ان فتاة تقتني كلباً تدلله لن تنهال عليه بهراوة كما فعلت فتاتك ، ومثل تلك الفتاة لن يكون في متناولها هراوات » . والواقع ان البطلة لم تنهل على كلبها بالهراوة إلا حين رأته هاجماً على خطيبها يعضه ويمزّق ثيابه ويسيل دمه من جرح عميق في ذراعه ، ثم رأت خطيبها يتراجع ويكاد يسقط خائراً ... وانت طبعاً لا تطلب منها ان تظل مكتوفة الايدي ، وان تؤثر العطف على كلبها ... وانما يكون طبيعياً منها جداً اذا « شعرت بموجات من الغضب الشديد تتدافع في صدرها » فتضرب

كلبها بهراوة ، لم تكن في متناولها ، وانما وجدتهـا « ملقاة في الحديقة » ! أما لماذا رمت فتاة بوارج بنفسها منتحرة في « راحـة الضمير » فلأن هذا الشاب الذي كانت تحبه أشد الحب ويقضّ عليها مضجعها ، قد اخلف وعده في ان يصطحبها معه ، فرأت حبها يتبعه ، والفت أملها المنشود الذي تغذيه بكل قوى حياتهـا يخيب ... ألم يحدث ان انتحر قبل اليوم عاشق هجره حبيبه ، او فتاة تخلى عنهـا فتاها ؟ ... فاين الغرابة في هذه القصة ؟

وتأخذ عليّ الازدواج : رغائب النفس وخوالج الروح ، لست أدري كيف تريد أن تتجاهل الفرق بينهما ! هل الرغبة هي الحاجة ، وهـل النفس هي الروح ، دون ان نهتم بالرجوع إلى خلافات الفلاسفة والمتكلمين ؟ « اطفئت عيناه فهو لا يبصر » انك اولا لم تورد العبارة على صحتها : « اطفئت عيناه فهو لا يبصر النور » فاحسب أنها الآن اكثر استقامة .. وحتى كما اوردتها ، ايهما « ابلـغ » اطفئت عيناه « وبس » - ألا تراها « واقفـة » ؟ - أم اطفئت عيناه فهو أكثر جداً مما تفيد نصف هذه العبارة ؟ وأيهما اكثر موسيقى وأعذب جرساً في السمع ... انك يا اخي سعيد صاحب ذوق أدبي مرهف ، فكيف تبرر هذه المآخذ ؟

ان العربية لا تحتوي كلمتين تفيدان معنى واحداً ، ففي الثانية معنى أوضح أو أعمق أو أبسط ، اختلاف عن المعنى الاول عـلى كل حال ، مثل هذا « فرق وفزع » وهل « مطمئنة اليه » تفيـد المعنى نفسه الذي تفيده « سعيدة به » ؟ وثمة بون كبير بـين « حب وود » و« سرور ورضى » و« شذى وعطر » . ومن اضاعـة الوقت

تبيين هذا الاختلاف ، والا لماذا لم تقم به أنت نفسك بعد ان هممت ؟... الحقيقة انك « تكره » الازدواج ، لكن كرهك له لا يعني انه ليس وجهاً من وجوه البلاغة !.. ثم ألا ترى انه يكسب الاسلوب رونقاً وبهاء (ازدواج معيب في نظرك !) ومع ذلك ، فما قولك في انك عمدت انت إلى المزاوجة – التي تعيبها – في « نخب العدو » : ألم تقل (ص ٧) : « فصيّر شيعهم شيعة ، وطوائفهم طائفة ، وجماعاتهم جماعة » – أليست شيعة مرادفة – إذا صح ان ثمة ترادفاً في العربية – لطائفة وجماعة ؟ « فاشتكى وتذمر من عطل الحال » (٢٣١) – « يدر على صاحبه الربح الادبي من « صيت وشهرة » (ص ١٠) هل الصيت غير الشهرة ؟ « حنكة السياسي ودهاؤه » (ص ١٠) – « مفلس خالي الوفاض » (٣٢) « بحور متشابكة التيارات متدافعة الامواج » (٢٤) الخ .

انا لا انكر عليك هذه المزاوجات فهي جميلة ، ولكنك انت تنكر الازدواج على غيرك وتبيحه لنفسك ... بقي ان نبحث مبدأ المزاوجة ، فانا لا احبذه في كل موضع ، ولا انكره في كل موضع ، فالمزاوجه جميلة في مواضعها ، بل هي ضرورية في المواضع التي لا يستقيم فيها نغم العبارة وموسيقاها . فالمهم في الموضوع حسن استعمال المزاوجة ، وهذا معنى من معاني البلاغة . فهل ترائي اخفقت في تلك العبارات المزدوجة ، وهل تراك انت اصبت بها ؟!

اما قضية استعمال الالفاظ والتعابير غير المألوفة ، فان لي فيها رأياً مبنياً ، فانا لا اعمد الى هذه الالفاظ حباً بالاغراب ، وهي لا ترد على قلمي اعتباطاً ، ولكني ارى ان نحيي هذه الكلمات العربية

الجميلة الوقع ، الرقيقة التركيب ، فنتفادى من جهة ترديد تلك الكلمات المبتذلة لكثرة الاستعمال ، ونغني من ناحية اخرى لغتنا ونرتفع بها الى مستوى اسمى من التعبير . فانا اجد « تصرمت ايام » اجمل من « مضت » او « انقضت » ، واعتبر « زجيت » خيراً من « قضيت » . وأود انا ان اسأل : اليس فطاحل الكتاب يتميزون — فيما يتميزون به — باللغة الرفيعة والكلمات المتخيرة من بين مئات الكلمات « العادية » ؟

ولماذا تعجب من هذه الفتاة التي تتعثر باذيالها ، وهي تريد ان تتعلم الكمان ؟ اذا كانت في سن « سميـة » — السابعة عشرة — وكانت مسلمة مثلاً ، تعيش في ذلك الجو المتحفظ ، فان العجيب ان تكون جريئة ولا تتعثر باذيالها ! وعلى ذلك فبوسعك يا اخي سعيد ان تتبرك باذيال كثيرات من فتياتنا اللبنانيات ، حتى لتكره التبرك والبركة ! واراك بعد تريش سهامك للمنفلوطي ... وانا اصدقك القول اني لم اقرأه كثيراً ، واخالني لم اتأثر به ، على اني رجعت اليوم اليه ، فما ترى عيبه ؟ اني ذلك الاسلوب المشرق ، والديباجة الجزلة ، والبيان العربي الرائع ، على الرغم من رغبته احياناً في الاغراب ؟ ان المنفلوطي لخليق ان يكون صاحب مدرسة في البيان العربي !

اما رأيك في عنوان القصة فعجيب ... لماذا تريده لغزاً ؟ لا اريد الآن ان اناقشك ، ولكن قل لي اين اللغز في عناوين قصصك في « نخب العدو » ؟ باستثناء « الثلج الاسود — ما اعجب هذا اللغز » ! — اقرأ : « حلم البولفار » — « التجارة شطارة » : ايصلح

هذا عنوان قصة ؟ - « دون كارلوس » - « صورة ام فريد » - « حمار الصف » : عنوان موفق من حيث الروح الفكاهية - « حمود » « شيخ القافلة » - « الكتاب العظيم » - « الملك فردننس » - « ذنب الطاووس » : ان معظم عناوين قصصك تحمل اسم بطل القصة ، فاين اللغز ؟ اتراك تنسى يا اخي سعيد ان الناقد يجب ان يكون منسجماً مع نفسه ؟!

وفي ميدان « الصنعة » ، أخذت علي اني فضحت نهاية قصة « نداء الاعماق » . وأنا اعجب كيف حكمت على نهاية هذه القصة بهذا الحكم ، وهي أغمض نهايات قصصي وأشدها خفاء ! واسمح لي هنا ان استشهد بحكم كاتب كبير من كتاب القصة في العالم العربي ، هو الاستاذ محمود تيمور رائد القصة العربية ، فهو يعتبر - في رسالة خاصة لي منه - نهاية هذه القصة « رائعة موفقة » بفضل غموضها وابهامها !

وأنا اوافقك على ما اخذته عليّ بشأن تحية الاستاذ لتلميذته ، ولكن ادهش كيف يغيب عنك ان القرويات يبادئن المصيفين التحية .. هل انساك البعد في الفيليبين عادات قومك ؟ ! واما العبارات التي يتفوه بها الذين هم على فراش الموت ، فاحسبك كنت تمزح اذ قلت ان الناس لا يفوهون بالعبارات الخالدة في ذلك الموقف ، فانت تعرف ان اخلد عبارات فاه بها كثيرون من العظماء والساسة والقادة والادباء كانت حين تنازعهم الروح .. واذا كان جلال زريق يفوه بعباراته الخالدة في بيت الخلاء ، فما احسبك انت قد جدت بطرفتك المسرحية « نخب العدو » في مثل ذلك

الموضع والظرف !!..

وعلى الرغم من احترامي لرأيك في الشكل الذي كنت تفضل ان تصاغ فيه قصتا « أمومة » و « هي وكلبها » فانا لا أزال اعتقد انهما اجمل كما وردتا في المجموعة .

*

وبعد فقد كنت انت سعيداً باكتشافي ناقداً، اذ درست دراسة موجزة كتابك الرائع ، واراني لا اقل عنك سعادة ، فانا ايضاً اكتشفتك ناقداً ممتازاً ، وقبل ذلك «متذوقاً» كبيراً للادب و الفن. ان لك يا سعيد طريقة في النقد فذة بين الطرائق ! ان « الابداع » دأبك في كل شيء: في التأليف او النقد او التعليق. وما اروع نصائحك لي بالخروج الى الحياة : انني اعترف لك ان الحياة تنقصني ، واني بحاجة الى خوضها والتعمق فيها ، وهذا اعتراف بوسع « كثيرين » من « محبي » ان يستفيدوا منه !! ولكن لعلك التمست لي انت نفسك المعاذير اذ قلت «امامك، قبل ان تبيض لحيتك، ايام كثيرة وانتصارات كثيرة » ... وكم انا سعيد في ان أراك تنتظر قدومي الى ناديك العبقري ، نادي البراهمة ...

ولكنني اخشاك يا سعيد ! انك ذو هيكل نحيف ، وانا مخلوق اقرب الى القِصر والهزال ، ثم انك ذو دماغ جبـــار ، فكيف سأقوى على الوقوف امامك ! لا ... لا ... سأرفض ان أراك يوم تعود الى لبنان ... فما يدريني ؟ لعلك أن تغيّر بي رأيك ! فلتظل تنظر إليّ على الورق ، من خلال السطور !

لقد أحببتك يا سعيد من زمان ، وازداد حبي لك اليوم ...

اما الاحترام فاني اكننته لك منذ قرأت كتابك ، وما زلت اكنه ولعله ارتفع وسما درجة جديدة ...

لقد سقت لي نصائح كثيرة ، فهل تسمح لي بواحدة : ان اكبر جريمة ترتكبها في حياتك هي ان تنصرف يوماً عن الادب !

عد الينا ، فان لك بيننا المقام المرموق ، وان لك في الادب العربي لشأنا ! *

سهيل ادريس

* (جريدة « بيروت المساء » ٢٥ آب ١٩٤٧)

بيان

ان سهيل ادريس الذي روّح نفسه بطبع هـذا الكتاب والاشراف على تنسيقه ، و نَعِمَ ساعات كذا عدّها بتعهده شؤون نشره ، هو وحده المسؤول عما قد يجده القاريء من اغلاط وامور غير مستحبّة . وليس للقاريء ان يعزو اليّ الاّ ما قـد يجده في هذا الكتاب من قيم وجميل .

هذا بيان يوحيه واجب الاعتراف بالجميل الذي أسديته إلى سهيل ادريس ، اذ يسّرت له سبيل خدمتي المجانيّـة ، فوقيته من داء الاثرة ، وروّضت كتفيه بهذا الحمل الذي قوّى عاتقيه ، وشغلت ساعاته بشؤوني ، فدفعت عنه خطر البطالة .

المؤلف

فهرست

الاهداء	٥
رسالة	٨
لمحة تاريخية	٩
طعبروس	١١
حفنة ريح	٢٩
إلى المخرج	٩٧
موجة نار	١١٣
آلام الذكرى	١٢٩
لعنة كتاب	١٣٧
الدواة	١٦١
الخطاب المبتور	١٨١
البرهان القاطع	١٩١
قهوة سوراط	٢٠٥
مراسلات بين المؤلف وسهيل ادريس	
حول كتاب « نخب العدو »	٢٢١
حول القصة في لبنان	٢٣٥
حول كتاب اشواق	٢٥١
بيـــان	٢٧٨

٨٣ — ١ — ٤٨

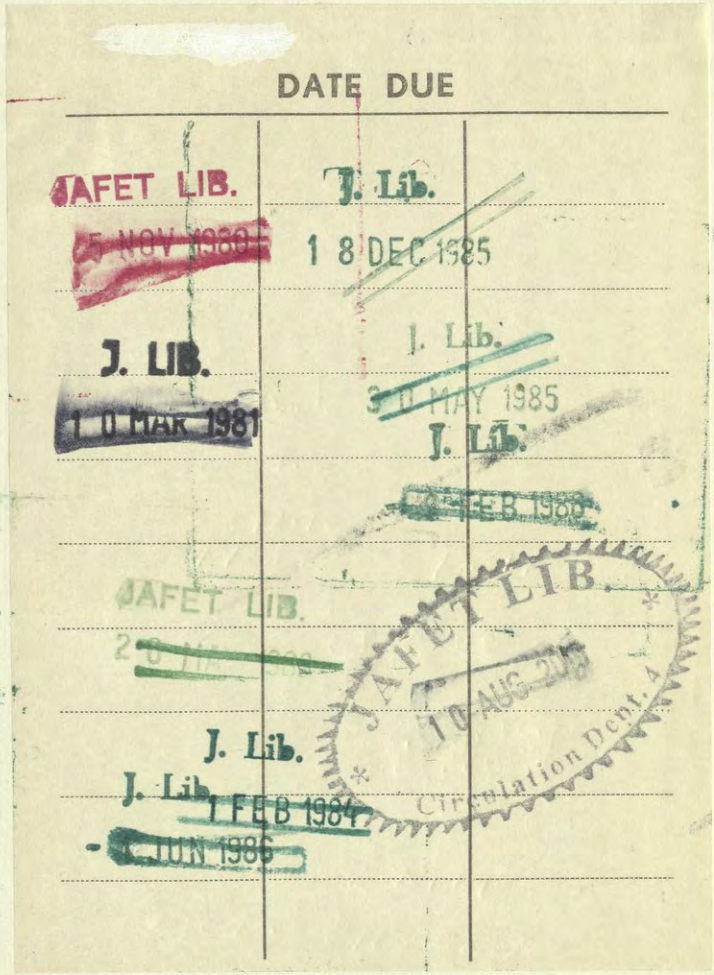
DATE DUE
SAFET LIB.
5 NOV 1980
J. Lib.
18 DEC 1985
J. LIB.
10 MAR 1981
J. Lib.
30 MAY 1985
J. Lib.
FEB 1980
SAFET LIB.
J. Lib.
J. Lib.
1 FEB 1984
JUN 1986
SAFET LIB.
10 AUG 20
Circulation Dept.

A.U.B. LIBRARY

892.72:T13hA:c.2
تقي الدين ،سعيد
حفنة ريح: مهزلة في فصل واحد؛ مو
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01039022